بين الغربة والونس

مشاهدات متطوع في ملف اللاجئين

بين الغربة والونس

مشاهدات متطوع في ملف اللاجئين

رام الله - القاهرة 2024-

الترقيم الدولي: 1 - 04 - 415 - 9950- 978

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

القاهرة ج. م. ع

+201222235071

rwafead@gmail.com

www. rwafead.com

تصميم الغلاف: إسلام مجاهد

الإخراج الفني: ضياء فريد

بين الغربة والونس

مشاهدات متطوع في ملف اللاجئين

باسم الجنوبي

إهداء

إلى الذين يحاولون ترميم خراب العالم، ولم ينتظروا الجزاء من أحد أو الشكر.
إلى متطوعي الظل، وأبطال الخفاء، ونجوم الأيام المُظلمة وتقلب الدهر.
إلى من كانوا وما زالوا في الشدائد هم الأمل والسند والظهر.
إلى من عملوا الخير ورموه بالبحر ولم يأخذوا معه صورًا.
بعدد حروف هذا الكتاب..

شكرًا.

الحكايات التي تنتهي، لا تنتهي ما دامت قابلة لأن تروى.

د. رضوى عاشور

***

واجب كل إنسان أن يبذل جهده لتحسين كل شيء في عالمه بما في مقدوره، ومع ذلك فسيظل أطفال يموتون بطريقة مأساوية حتى في أكثر المجتمعات كمالًا، والإنسان في أحسن الفروض قد يستطيع أن يقلل كم المعاناة مع بقاء الظلم والألم مستمرَّيْن، لكن عليه أن يُقدم ما عليه، وإذا حدث الألم يمكنه أن يقول إنها إرادة القدر التي لا نعرف حكمتها، إنه شعور بطولي، شعور إنسان قام بأداء واجبه وتقبل قدره.

د.عبد الوهاب المسيري

البـدايـــة

أصبح من البدَهيات أن العمل التطوعي هو ميزان إنسانية ورُقي وتدين المجتمعات والأفراد، باعتبار أن التطوع لا يتطلب أي إجبار على عمله ولا يُقصد به أي منافع ذاتية، وكلما كان المستهدف من العمل التطوعي هو رعاية الأكثر استضعافًا؛ يكون التطوع أكثر طلبًا وأكبر قدرًا. ومع بداية الحرب السورية 2011 والتي أدت إلى تدفق ملايين اللاجئين إلى دول العالم، ظهرت من جديد قضايا اللاجئين العرب لتكون قضايا الساعة بعد ضعف الاهتمام بشتات الشعب الفلسطيني منذ 1948، ونسيان الهجرة اللبنانية بعد الحرب الأهلية (1975-1990). وبعد ظهور مشكلة اللاجئين السوريين، تعالت قضايا اللجوء أكثر بعد الحرب على اليمن 2014، وتكرر الاهتمام الدولي مرة أخرى مع التغريبة السودانية الجديدة بعد النزاع المسلح 2023، بالإضافة إلى ما بينهم من قضايا اللاجئين القادمة من العراق وليبيا وأفريقيا وأخيرًا أوكرانيا، لتبدو بالصوت والصورة معاناة التهجير والنزوح واللجوء لكتل بشرية هائلة هائمة كانت آمنة يومًا.

صار المشهد المتكرر حاليًا هو معاناة ملايين اللاجئين في البحث عن سلامتهم وسلامهم وأمنهم على الحدود، وفي البلاد التي يمشون إليها مرضى وجرحى وجوعى وخائفين؛ لتبدو ظاهرة اللجوء كأكبر كارثة إنسانية في التاريخ الحديث وأكبر صفعة إلى ضمير العالم الذي يتغنى بشعارات الحقوق والحريات والتقدم والرفاه، ظاهرة يمثل فيها اللاجئ صورة الإنسان في أكثر أحواله استضعافًا، وأكثر من يستحق كل أنواع العون والمساعدة.

ومع كثرة مؤسسات وفرق الدعم الإنساني العاملة في ملف اللاجئين في العالم العربي، إلا أن من عايش عمليات التطوع والمساعدة والمتابعة في هذا الملف يلاحظ أن أغلب هذه العمليات في كل مراحلها تسير بلا خطط ولا مناهج ولا دراسة

واضحة، هذا مع انشغال الكثير بشؤونهم الخاصة، وظهور أصوات عنصرية تنادي بطرد اللاجئين بوصفهم عبئًا مضافًا على اقتصاد وموارد الدولة، كذلك يُلاحظ الباحث في المكتبة العربية أن الكتب التي تتعلق بقضايا التطوع قليلة وقد تكون نادرة، وأغلب الموجود منها يتوقف عند فكرة الوعظ بأهمية التطوع بلا التطرق لكيفية صناعته وبدايته وتطويره وحل مشكلاته، وبالتالي فالكتب والمراجع والدراسات المتعلقة بالعمل التطوعي الموجه لدعم اللاجئين ومعرفتهم قبل دعمهم هي أكثر ندرة.

هذا الكتاب هو إعادة التذكير بمفاهيم أساسية حول أهمية العمل التطوعي الفعّال خاصة المقدم عبر مؤسسات المجتمع المدني، الذي يُبقي على المجتمع إنسانيته وينفع اللاجئين إلى أقصى حد ممكن، ويستثمر وجودهم كثروة إنسانية واقتصادية وثقافية واجتماعية بدمجهم في خطط التنمية المستدامة للدول والمجتمعات الحاضنة.

ينقُل الكتاب كذلك عددًا من المعاني والمشاهدات التي عايشتُها عبر أكثر من عشر سنوات في العمل التطوعي وخاصة في دعم اللاجئين، مع التعريف بخريطة اللاجئين في العالم وعددهم ومشكلاتهم وملفات دعمهم ومقارنة أشكال مساعداتهم بين الدول، إضافة إلى التعريف بإمكاناتهم ورموز النجاح منهم. يتعرض الكتاب أيضًا لأهم الكتابات التي تناولت قضايا المجتمع المدني والتطوع واللاجئين، بالاقتباس منها ولو جمل وفقرات بسيطة للتحريض على الرجوع إليها لأهميتها. عسى أن يكون هذا الكتاب ملهمًا في عمليات التطوع بشكل عام، وفي دعم اللاجئين بشكل خاص، وباعثًا لأقلام على الكتابة عنهم؛ ليكون العمل التطوعي الموجه لهم أكثر تأثيرًا لرفع ما يمكن من ألم، فهذا التطوع الذي نقوم به للاجئين بلا أجر، هو في الحقيقة الثمن الذي ندفعه لنعيش على هذه الأرض كبشر.

باسم الجنوبي

معاني التطوع وأهميته

من زمن ليس بعيد، كانت الأفعال السيئة هي التي تتطلب تبريرًا
أما اليوم، فالأفعال الجيدة هي التي تتطلب تبريرًا، يا لبؤس هذا العالم!

ألبيركامو

الجنين في بطن أمه، يضرب برجله أحشاءها ويبدل كل نظام حياتها، يُسهرها ويتعبها وأحيانًا يُبكيها، ثم تلده بمعاناة لا يعرف مداها غيرُها، ثم تُرضعه وتنظفه وتنيمه وتسهر على راحته، ولسنوات تتفقد صحوه وتتفنن في ملاعبته وهي راضية، ولديها استعداد لعمل ذلك طوال العمر باختيارها، لا تنتظر أجرًا ولا شكرًا، من هنا عظمة الأم ظهرت، ومن هنا الحياة بدأت واستمرت. صحيح أن الأم يخلق الله في قلبها قوة حنان لولدها تساعدها في القيام بذلك، وصحيح أن الفطرة هي وجود الرحمة للأقربين، لكن **عندما تصح القلوب يكون كل طفل يعاني ابنًا، وكل امرأة تجوع أمًّا، وكل رجل تدمع عيناه من الخوف أخًا أو أبًا**؛ فيسارع أصحاب القلوب بتطوعهم بما استطاعوا لرفع المعاناة، ورد الجوع والمواساة. هكذا هي الإنسانية التي عرفناها من ثقافتنا وديننا أنه «ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع هو يعلم».[1] كما يقول الحديث الشريف؛ لذلك فلا نغالي أبدًا عندما نقول: **حدثني عن التطوع في مجتمع، أحدثك عن إنسانيته وأخلاقه وتدينه وفطرته.**

(1) رواه البيهقي: 20160.

التطوع الذي نقصده هو كل تبرع إرادي بالوقت أو المال أو المعرفة أو الخبرة أو الجهد إلى المُحتاج، بقصد تحقيق منفعة أو مصلحة أو درء مضرة، بشكل كامل أو جزئي، على أن يكون ذلك عملًا بعيدًا عن الاضطرار أو قصد المتطوع مصلحة خاصة من ورائه.

والتطوع أو العمل الخيري يُقابله في اللغات الأوروبية مصطلح (Philanthropia) وهي كلمة مشتقة من مصدرين في اللاتينية، الأول (Philein) وتعني حب، والثاني (Anthropon) وتعني الإنسان، ومعنى الكلمتين معًا هو حب الإنسان، أي إن العمل الخيري هو صفة لمن يحب الإنسان ويشعر بآلام الآخرين ويرغب في تحقيق سعادتهم أو دفع الأذى عنهم.[1] ويختلف استخدام المصطلحات الدالة على العمل الخيري في الغرب حسب كل دولة ومنطقة وحقبة زمنية والهدف منه وطريقة تحقيقه؛ فبقي هذا المصطلح (Philanthropia) مرتبطًا بتصورات العصر الفكتوري عن سخاء وعطف الطبقات العليا في المجتمع على الطبقات الدنيا، لكنه في أمريكا (Help) يشير إلى النتيجة وهي الدعم أو المساعدة، أو الطريقة (Volunteering)، ويقصد بها التطوع والبعد عن قصد المنافع الشخصية وتأكيد إنكار الذات، وفي إنجلترا يُستخدم مصطلح الإحسان (Charity) كوصف لشكل وطريقة ونتيجة هذا التطوع ليخرج في أفضل صورة مُمكنة، وهذا العمل بهذا الوصف في العهد اليوناني هو الذي كان يعطي الشخص صفة المواطن؛ لأنه يعمل للصالح العام لا لشخصه؛ فمعيار المواطن الصالح كان وضعه المصالح الذاتية في مرتبة أدنى من المصالح العامة التي تمثل المدينة؛ لأن المصالح الخاصة لا توفر أساسًا حياة سعيدة عادلة ومُتمدنة.[2]

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية في العمل الخيري، إبراهيم البيومي غانم، ص31.
(2) المجتمع المدني في اليونان حتى القرن العشرين، جون أرنبيرغ، ص21.

فوائد التطوع للمجتمع

في السنوات الأخيرة، خاصة مع التزايد العالمي في تعداد السكان وانتشار الأوبئة والكوارث الطبيعية واستمرار النزاعات المسلحة، عجزت حكومات محلية عن تلبية المتطلبات الأساسية لشعوبها وأقلها الغذاء، ما أدى إلى تفشي ظاهرة الجوع في العالم، هذه الكارثة التي تعد أخطر من كل الكوارث التي عصفت بالبشرية؛ حيث يُتوقع أن يعصف الجوعُ بضحايا أكثر من عشرين مليون شخص (هو نفسه عدد ضحايا الروس في الحرب العالمية الثانية). يكفي أن دولة واحدة مثل الصين عندما حدثت فيها المجاعة عام 1928، راح ضحيتها 10 ملايين شخص بالإضافة إلى لجوء ونزوح 4 ملايين مُشرد، وتكرر الأمر في الصين نفسها بين عامي (1959–1961)؛ حيث مجاعة الصين الكبرى التي راح ضحيتها 30 مليون شخص، وانتشرت بها ظاهرة أكل لحوم البشر والحشرات والزواحف، ما حذرت الأمم المتحدة من تكراره في أفريقيا، فقالت عبر بيانها في أغسطس 2022، أن 22 مليون أفريقي مهدد بالموت جوعًا بسبب انعدام الأمن الغذائي.

يبدو أن الكوكب في خطر، خاصة مع تأكيد منظمة أوكسفام أن عدد الوفيات في العالم بسبب الجوع يفوق وفيات كورونا؛ حيث يموت جوعًا 11 شخصًا كل دقيقة، ومع تقديرات البنك الدولي إلى أن نحو 783 مليون شخص (أي ما يعادل 10 ٪ من سكان العالم) في خطر وخط الجوع، بينهم 148 مليون طفل تحت سن الخامسة يعانون التقزم و45 مليون طفل منهم يعانون الهُزال بسبب سوء التغذية. وبعد جائحة كوفيد 19 وتداعايات الحرب الروسية الأوكرانية (تشارك الدولتان بنسبة 12 ٪ من تصدير القمح في العالم)، وتعطُّل سلاسل الإمداد العالمية نتيجة للإغلاقات الاقتصادية، وقع خلال السنوات الأخيرة 100 مليون شخص جديد تحت خط الجوع.[1] هنا **يكون الترف أكثر قسوة من الحرب** إذا لم يُصاحَب بعمل

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 2022، ص121.

تطوعي للمساعدة والدعم في تقليل آثار هذه الكارثة وغيرها، التي تجعل إنسانية العالم على مفترق طرق.[1]

من هنا وجب استدعاء قيم العمل التطوعي، خاصة أن مئات الملايين في العالم يعانون مع الجوع، المرض والأمية والفقر متعدد الأبعاد، بما لا يُمكن تحقيق أي تقدم وتنمية إلا إذا تم التعامل مع هذا الثالوث (الفقر، المرض، الأمية)، عبر العمل التطوعي ومؤسساته التي تمثل (البديل الثالث) مع عمل الحكومات والقطاعات الخاصة، وأحيانًا يكون هذا القطاع الثالث هو الداعم الوحيد لبقاء الدولة ومؤسساتها وأمن الشركات وكامل المجتمع، خاصة في أوقات الثورات والأزمات العامة والتغيرات السياسية الكبيرة التي تعطل عمل الحكومات والشركات.

التطوع كذلك هو الباب الأكبر لتعزيز قيم التكافل والعدالة الاجتماعية (خاصة الاقتصادية والاجتماعية) بما يحمي المجتمع من الانزلاق في مستنقع الطبقية والتحارب من أجل العيش؛ **فالإنسان المتوتر والمضغوط بالحاجة والجهل، يتحول إلى قنبلة موقوتة حقيقية**. لهذا فالتطوع صمام أمان المجتمعات والأفراد، كما يقول مصطفى لطفي المنفلوطي: «لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع، ولا مغبون، ولا مهضوم، ولَمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح ظلام الليل». وهذا ما أكدته التجارب الحضارية والتاريخية؛ فكلما زاد العمل التطوعي وتشعبت موارده وتعددت مؤسساته والخدمات العامة التي يوفرها؛ قلّ نطاق الاستبعاد الاجتماعي للفئات المهمَّشة بسبب الفقر أو العجز أو الجهل، وتراجعت فرص القلاقل والنزاعات الأهلية والانقسامات الطبقية والعنف المجتمعي الذي يضر بالجميع ومعهم أصحاب رأس المال، والعكس صحيح. لذلك يمكننا القول: أن الأنانيون في أي مجتمع هم لعنته الحقيقية، بسببهم تحترق كل الفضائل والقيم أمام مصالحهم الشخصية.

(1) عار الجوع، ديفيد ريف، ص194.

يدرك هذا الكثير من الأغنياء ورجال الأعمال في العالم الذين يتبرعون بمبالغ ضخمة ويرصدونها للفقراء عبر دعم وتأسيس المنظمات الإنسانية، مثل الملياردير بيل غيتس الذي وهب ما يقرب من نصف ثروته للمؤسسات الخيرية العالمية عن طيب خاطر وقناعة، وأوقف 30 مليار دولار للعمل الإنساني، وكانت مجلة دير شبيغل الألمانية أشارت إلى هذه الفكرة في أحد مقالاتها؛ حيث أكدت أن هذا هو المنحى الذي سار عليه منذ القدم ملوك المال من قبيل عائلة كارنيجي (تبرع أندرو كارنيجي وحده بأكثر من 350 مليون دولار) وعائلة روكفلر (تبرع جون روكفلر وحده بأكثر من 550 مليون دولار)، فهذه العائلات وغيرها كثير، ترى أن خدماتها للمصلحة العامة حسنة تبقى في ذاكرة التاريخ على مر الزمن.[1]

ويبدو أن المقال قد اقتبس من كلمات أندرو كارنيجي نفسه الذي كتب مقالًا بعنوان (إنجيل الثروة) عام 1889م، قال فيه: ليس اليوم ببعيد عندما يموت الرجل ويترك خلفه الملايين من الثروة التي كان بإمكانه أن يديرها خلال حياته، سوف تذهب بغير رثاء، بغير شرف، بغير معنى.

وصل مقال كارنيجي إلى روكفلر فأرسل رسالة إلى كارنيجي كتب فيها: أتمنى أن أصحاب الثروات كانوا يفعلون بأموالهم ما تقوم أنت بفعله، ولكن اطمئن، فإن المثال الذي صنعته سوف يثمر وسوف يأتي الوقت الذي يكون فيه هؤلاء على استعداد لاستخدام ثرواتهم في منفعة الغير.

وفي نفس العام بدأ روكفلر أعماله الخيرية التي تكلفت 129 مليون دولار والهادفة لدعم التعليم وإتاحته للجميع بغض النظر عن الجنس والعرق والعقيدة، في الوقت الذي كانت فيه أمريكا ترزح تحت التفرقة العنصرية. وفي عام 1913، قام بإنشاء مؤسسة روكفلر التي وهبت 14 مليار دولار للآلاف من الفقراء حول العالم. أندرو كارنيجي أيضًا تفرغ في نهاية حياته لأعمال الخير التي بدأها بتبرع لتمويل وبناء 3 آلاف مكتبة في 47 ولاية أمريكية، وتأسيس معهد كارنيجي للعلوم

(1) اقتصاد يغدق فقرًا، هورست أفهيلد، ص138.

بواشنطن ومعهد كارنيجي للتكنولوجيا في بطرسبرج، وجامعة كارنيجي ميلون، ومؤسسة كارنيجي للارتقاء بالتدريس، وإطلاق وقف مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي، وفي المجموع أسس كارنيجي أكثر من 20 مؤسسة إنسانية خلال حياته.

أصبحت هذه المبادرة الخيرية من الأغنياء كثيرة وملحوظة حول العالم، وإن بدا أن سببها هو السعي لتقليل دفع الكثير من الضرائب عبر سياسات المسؤولية الاجتماعية لشركاتهم، أو الوجاهة الشخصية، أو حيلة براغماتية لتأمين أيدٍ عاملة في المستقبل، كما أشار جيمي أوغسطو (رجل أعمال فلبيني) في كلمته بمؤتمر رجال الأعمال الآسيويين 1995، التي جاء فيها: «إننا جميعًا ندفع ثمن الفقر والبطالة والأمية، وإذا انضمت نسبة كبيرة من المجتمع إلى طبقة المحرومين فإن المستثمرين سيجدون من الصعوبة بمكان الحصول على عمالة مهرة ويقظة، ولن يجد أصحاب المصانع سوى سوق محدودة لمنتجاتهم، وسيُفزِع الإجرامُ الاستثمارَ الأجنبي فيهرب، وستَستنزِف الهجرةُ الداخلية إلى مناطق محدودة الفرصَ في الخدمات الأساسية، وستؤدي إلى تكوين بؤر شيطانية وإرهابية، تُسبب كارثة مدنية واجتماعية، في ظل هذه الظروف لا يستطيع أي بلد أن يتقدم إلى الأمام اقتصاديًّا وأن تستديم تنميته».[1]

ومهما يكن الدافع، المهم سيستفيد الفقراء؛ فقبل فترة ليست بعيدة أعلن الملياردير الهندي غوتام أداني (ثاني أغنى رجل في العالم 2023، بعد إيلون ماسك) تبرعه بنحو 7.7 مليار دولار لصالح الأعمال الخيرية، وتعهد ثالث أغنى رجل في العالم، وهو مؤسس شركة أمازون، الملياردير جيف بيزوس بالتبرع بمعظم ثرواته التي تبلغ 127 مليار دولار أمريكي خلال حياته لصالح الأعمال الخيرية، كذلك أعلن وارن بافيت (من أشهر وأغنى رجال الأعمال بأمريكا) في عام 2006 تبرعه بنسبة 99 ٪ من ثروته بالكامل التي تبلغ 117 مليار دولار للمؤسسات الخيرية، ومع ذلك ما زال بافيت في أعلى قائمة أغنياء العالم.

(1) السيطرة الصامتة، نورينا هيرتس، ص199.

يعرف هؤلاء- وإن كان عبر فلسفتهم النفعية - أن التكافل والتبرع وتعزيز التطوع ينشر الاستقرار ويُوفر فرص الإبداع والابتكار واكتشاف القيادات ويعم السلم والأمن المجتمعي والاتجاهات الإيجابية بشكل عملي، بما يفيد شركاتهم في الوجود والاستمرار في المستقبل القريب، لكنها حقائق تفيد المجتمع أجمع، أقل ما فيها صناعتها حالة الامتنان التي تولد من قيام أفراد هذا المجتمع بتهوين الشدائد على بعضهم، مما يزيد تماسكه وزيادة الروابط الإنسانية الإيجابية المانعة والحامية من الجرائم والمشكلات الاجتماعية الخطرة والمتفشية. نلاحظ ذلك حتى على مستوى العمل التطوعي الفردي الذي يُعد النواة الأولى للعمل التطوعي العام، فمع وجود روح المبادرة والشجاعة الدافعة للمساعدة من أحدهم، نجد أن الشخص الذي تمت مساعدته يبقى دائمًا شاكرًا وممتنًّا لمن ساعده، وغالبًا ما تعمل كرة الثلج في رد الجميل.

وكثيرًا ما كانت حركة تطوعية واحدة يقوم بها فرد واحد في وقتها وأسلوبها المناسب هي المنقذة لحياة أحدهم، صحيح أنه أنقذ حياة فرد، لكنها حياة كاملة لشخص يرتبط به العشرات في أسرته وعائلته وأهله وعمله. نعم.. لا يمكن أن ننقذ العالم، لكن يمكن أن ننقذ فردًا هو لأهله كل العالم، إنه المقصد من قوله تعالى: «**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**».[1] هذا المعنى هو الذي تحدث عنه أنطون دوسانت أوكوبيري في قوله: على المرء أن يعكف على إنقاذ المجتمع، ليس عن طريق عملية حسابية تتسم بالغباء، ولكن عبر احترام الإنسان من خلال الفرد.

فوائد التطوع للمتطوع

ومع كل أهمية وفائدة للتطوع على المجتمع، فإن هذه الفوائد عائدة بشكل مباشر على الفرد، وكأن الفرد يُحصن نفسه وأسرته وعائلته الكبيرة ومجتمعه ضد آفات الإنسان التي تضر حياته وأخلاقه وثقافته وماله وعرضه، كما يقول الشيخ محمد عبده: **من أراد أن يخدم نفسه وجب عليه أن يخدم العامة، لاندراج المصلحة الخاصة**

(1) سورة المائدة: 32.

في المصلحة العامة، فإذا ضاعت المصلحة العامة ضاعت الخاصة، وإذا حُفظت الأولى حُفظت الثانية.

مع ذلك فإن للتطوع فوائد عظيمة عائدة على المتطوع نفسه بشكل مباشر منها: تحرير النفس من قيد الكبر والاستعلاء وحب الظهور، وارتقاء روح المتطوع على منطق الحياة السائلة الذي جعل المادة والفردية هي كل شيء – أنا ومن بعدي الطوفان – هذه الفلسفة التي حولت الأنا(نية) إلى نمط نفسي واجتماعي، بحيث جعلت الإنسان العادي فرديًّا تمامًا، مُمعنًا في الفردية، في حالة تنافس دائمة مع من حوله؛ فهو ذات مستقلة، لا يمكنها إرجاء تحقيق رغباتها التي غالبًا ما تُصاحَب بتوقعات عالية للغاية، وسريعًا ما ينفد صبرها، مرجعيتها ذاتها ولها قوانينها الخاصة.[1] وهنا الطامة الكبرى، فمع تمحور الذات حول قوانينها وأخلاقها الخاصة، يصبح لكل فرد أخلاقه التي يبررها ويبرر بها ما شاء وكيفما شاء، التي غالبًا ما تختلف مع الآخرين لأنها تخدم فردًا واحدًا فقط، هنا يكون مجرد التواصل مع الغير مغامرة، هنا ضاع المجتمع وضاع أولهم.. ضعفاؤه. ويتغير تعريف المجتمع من نظام إنساني يشتبك في التعاقدي مع التراحمي، إلى نظام نفعي فقط، تتشابك فيه الغايات الشخصية، ويساعد كل فرد غيره من خلال سعيه خلف غاياته هو نفسه، فإذا لم يكن هناك مصلحة خاصة فلا حركة.[2]

فيأتي التطوع مانعًا لهذه الكارثة غير الإنسانية، التي تهدد بانقراض الإنسان الذي يشعر ويعمل للضعيف بلا انتظار مقابل، ويكون التطوع حجر ثورة في وجه المبادئ اللاإنسانية لزمن الحداثة وعصر السوق التي جعلت المصلحة الفردية هي القِبلة، ما يعني أن **التطوع هو وسيلة التحرر من عبادة النفس.**

كذلك يُعد التطوع استثمارًا لوقت الفرد في النفع له ولغيره، ومساحة رائعة لاكتشاف قدراته ومهاراته في التعامل مع الناس والمواقف، يتعرف على ذاته وينمِّيها

(1) رحلتي الفكرية، عبد الوهاب المسيري، ص263.

(2) المتخيّلات الاجتماعية الحديثة، تشارلز تايلر، ص25.

بما يحقق شخصية سوية قادرة على مواجهة الحياة، كذلك يُنمي القدرات الاجتماعية مثل تكوين الصداقات الجديدة، العمل في فريق، حل المشكلات الطارئة، الالتزام في المواعيد وتنظيم الوقت، تجويد وإنجاز العمل في وقته المحدد، التعرف على الآخر المختلف في المجتمع والعمل معه أو له.

كما يغرس التطوع في الفرد الشعور بالرضا ومعرفة قيمة النِعم التي يحيا بها ولا يُقدِّرها، خاصة عندما يرى أصحاب الحاجة من الفقراء والمرضى والمشردين وأصحاب الابتلاء، وتؤكد الدراسات أن التطوع له تأثير كبير في معالجة الاكتئاب والضيق النفسي والملل والشرود، حيث يمد العمل التطوعي صاحبه بإحساس لا أعلى منه من السعادة والإنسانية لإحداثه فرقًا في حياة غيره، وهذا الإحساس هو الأغلى حاليًّا خاصة مع شيوع الأمراض النفسية المرتبطة بعبادة الذات مثل الشعور بالوحدة والغربة والاستعلاء والكبر والتمرد ووهم التفرد والمظلومية والهلاوس والاحتراق النفسي؛ فيأتي التطوع ليمد الفرد بما يبقيه على قيد الإنسانية بآلية بسيطة، وهي أن يساعد غيره بما استطاع ليرفع عنه حاجته ويسعده، **هذه السعادة مخلوقات وفية، ما إن تقدمها لأحدهم برضاك، تعود إليك لتسكنك**.

كما أن التطوع هو مورد إحساس الحرية الذي قصده مانديلا في قوله: «ليس حرًّا من يُهان أمامه إنسان ولا يشعر بإهانته». وإحساس النجاح الذي قال عنه ليو تولستوي: «لا علاقة للنجاح بما تكسِبُه في الحياة، أو تُنجزه لنفسك؛ فالنجاح هو ما تفعله للآخرين». يأتي هذا مع إحساس المتطوع بأهميته ومعرفة قدر نفسه القادرة على التغيير وسماع صوتها المُؤثر في حياة من حوله، وتحوُّله إلى رحمة الله الدائرة على عباده. **صحيح أن لكل فرد طريقته في السعادة، ولكل قلب جنته في الدنيا، ولكلٍ طريقته إليها، إذا وجدها صعُب وصفها لغيره، لكن يبقى إسعاد أحدهم وطمأنته على غده.. هو أقرب الطرق إليها، والآخرة خير وأبقى.**

تراث العمل التطوعي العربي والإسلامي

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِير.

سورة القصص

الناظر في التراث العربي والإسلامي يجد بسهولة أن العمل التطوعي وما يرتبط به من الشهامة والمروءة وإكرام الضيف وإطعام الجائع ونجدة الملهوف متأصل الجذور، فيجد مثلًا أن إيواء الغرباء وإطعامهم بلا مقابل، يرجع إلى عادة قديمة تُنسب إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ».[1]

كذلك ورد في العهد القديم، عبر الوصايا العشر التي نزلت على موسى عليه السلام، الأمر بالإكرام والبذل خاصة على المساكين، جاء فيها: «طوبى للذي ينظر للمساكين في يوم الشر ينجيه الرب».[2] «افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك».[3] «أعطه ولا يسوء قلبك عندما تعطيه؛ لأنه بسبب هذا الأمر يباركك الرب إلهك في كل أعمالك وجميع ما تمتد إليه يدك».[4] واحتذى العرب هذه المُثل العظيمة، وصار كرم الضيافة لديهم ظاهرة يُضرب بها الأمثال بعد أن انتشرت كعادة في كل أرجاء الجزيرة العربية، وظهرت شخصيات بارزة في التراث العربي

(1) سورة الذاريات: 24-27.
(2) سفر المزامير: 1-41.
(3) سفر التثنية: 10-15.
(4) سفر التثنية: 11-15.

كانت القدوة والشامة في هذا مثل كعب بن مامة الإيادي، قيس بن سعد، أوس بن حارثة، عبد الله بن حبيب العنبري، هرم بن سنان، وحاتم الطائي الذي قال لخطيبته (ماوية) في معنى الكرم:

أمـــــاوي قـــد طـــال الـتـجـنـب والهـجـر
وقـــد عـــذرتـــنـــا عـــن طـلابـكـم الـعـذر
أمـــــاوي إن المـــــال غـــــاد ورائـــــح
ويـبـقـى مـن المـال الأحـاديـث والـذكـر.

وقال في موضع آخر:

وإني لـعـبـد لـلـضـيـف مـا دام ثـاويًـا
ومـا فيَّ إلا تـلـك مـن شـيـمـة الـعـبـد.[1]

وكان الكرم والعطاء اللامحدود يمثل إحدى مفاخرهم التي لا يفرطون فيها أبدًا؛ فكانوا يتباهون بكثرة الأضياف وعظيم الضيافة وذبح الإبل وإطعامها المحتاجين، والكريم عندهم هو من أعطى فحرم نفسه وبذل من نصاب حاجاته الضرورية، قال في ذلك قيس بن سعد: «**المنح لا يستحق الثناء إذا كان المرء موفور النعمة، وإنما يستحق الثناء من أعطى من قليله**». ونجده في رد حسان بن سهل على من قال له: «لا خير في الإسراف». فقال حسان: «لا إسراف في الخير». وثبت في فطرة العرب أن **أفضل المعروف إغاثة الملهوف**؛ فتفننوا في هذه الإغاثة، فكانوا يُشعلون النيران ليلًا على المرتفعات لتمكين الغرباء من الاهتداء إلى الأماكن التي يقصدونها، وقد بالغ بعضهم في الكرم فكانوا يستخدمون المندلي الرطب، وهي أعواد من العطر حتى يهتدي بها العميان.[2] كذلك كانوا يجتذبون الغرباء إلى بيوتهم بنباح الكلاب، وكانت عادة معروفة عند العرب، فينبح الشخصُ الذي ضل طريقه، فتنبح الكلاب على نباحه، فيهتدي إلى مكان المضيف، وفي ذلك يقول نابغة بن جعدة:

(1) العقد الفريد، ابن عبد ربه، جـ1، ص335.
(2) بلوغ الإرب، الألوسي، ص416.

عــوى في ســـــواد الـلـــيـل بـعـد اعـتـسـافـه
لـيـنـبـح كـــــلـب أو لـيـفـــــزع قـوم
فـجـاوبـه مـتـسـمـــــع الـصـوت لـلـقـرى
لـــه عـنـد إتـــيـــان الـمـلـمـين مـطـعـم
يـكـاد إذا مـــا أبـصـر الـضـيـف لـلـقِـرى
يـكـلـمـه مـــــن حـبـه وهـــو أعـــجـم.[1]

كانت الشجاعة والفروسية من شيم العرب، خاصة مع قسوة الصحراء التي يعيشون بها، التي فرضت عليهم السمو الخلقي فصاروا يستهينون بالموت إلا تحت ظلال السيوف، ولما كانت حماية الضعيف والدفاع عنه هي شرع الفروسية، تنافس الفرسان في مساعدة النساء والأرامل والأيتام والمغلوبين على أمرهم، وجعل كل منهم سيفه في خدمة الحق والانتصاف للمظلوم من الظالم، وقد استخدم فرسان العرب شجاعتهم أنبل استخدام؛ فصارت رهن إشارة البائسين، ولم يكن من بينهم من يرفض حماية ضعيف أو الدفاع عن مظلوم استنجد به.[2] ومع ذلك كانوا يرون كل ذلك من باب الواجب فعله والذي لا شكر عليه، وإلى اليوم ينتشر المثل الشعبي العربي القديم الذي يقول: «اعمل خير وارميه البحر». كذلك ينتشر قولهم: «**لا خير في معروف، قال صاحبه: أنا فعلتُه**».

كان الضعيف إذا احتمى بقوي، ضمن القوي له الحماية والأمان لنفسه ولأهله وعشيرته في حياته ويُوصي عائلته بحمايته بعد مماته، وكان العرب يتباهون بكثرة من يلوذ بهم ويطلب حمايتهم، وكانت القاعدة عندهم تقول «حماية الجار بريئًا كان أم آثمًا». حماية كاملة ضد الجميع، ما أدى إلى تحملهم مسؤوليات كبيرة وجرّ عليهم مشكلات أكثر، ومع ذلك كان عندهم امتداد الحماية واتساع نطاقها يعني المزيد من السمو وعلو القدر والمنزلة. ورد في ذلك أنه لما ذهب الشاعر الأعشى يومًا إلى

(1) السابق، جـ1، ص416.
(2) العرب قبل الإسلام، محمود عرفة محمود، ص292.

(علقمة بن علاثة) وطلب منه أن يكون في حماه، فوافق أن يحميه من الإنس والجن، فطلب الأعشى أن يحميه من الموت أيضًا، فاعتذر، فذهب الأعشى إلى عامر بن طفيل وسأله الحماية الكاملة، فوعد بأن يحميه ولو من الموت. فسأله الأعشى: وكيف أنت فاعل؟! قال: إذا أتاك الموت وأنت في حماي دفعت لأهلك ديتك. فأعجب الأعشى من هذا الجواب، وأنشد يمدح عامرًا ويهجو علقمة، فندم علقمة على عدم نجدته من الموت وبعد أن قال فيه الأعشى:

تَـبِـيـتُـون في المـشـتـى مِـــلاَءً بـطـونُـكـم
وجـاراتُـكـم غَـرثـى يَـبِـتـنَ خَمـائـصَـا.

من الغرائب والروائع العربية، أن المرء كان إذا لم يجد في طريقه رجلاً قويًّا يحتمي به، كان يستجير بأي اسم من الرجال حتى لو لم يكن يعرفه، وحتى لو كان المُستجار به غائبًا بالموقف،لأنه يعرف أن الجميع يهاب ويحترم فكرة الحماية. فورد أنه لما أوشك بنو الحارث أن يقتلوا رجلًا اسمه خالد، استجار بأحدهم اسمه (قس بن الصمة)، لكنه كان غائبًا ولم يفده.. فقتلوه، فلما عاد قس بعد فوات الأوان وعلم بالأمر، غضب وعاب على أهله لما ألحقوا به من الهوان، إذ بلغت الجرأة بهم أن يرفعوا أيديهم عن من احتمى باسمه، وكان الرجل إذا ما تخلى عن حماية الضعيف التصق به العار، وصار رمزًا للمذلة التي يمكن أن يدفع العربي الحر روحه كي لا تلتصق به، يقول المتلمس:

إن الهـــــوان حمـــار الـــقـــوم يـعـرفـه
والحـــــر يُـنـكـره والـــرَّســـلـــةُ الأجـــدُ
ولـــن يـقـيـم عـلـــــى خـسـف يُـســام بـه
إلا الأذلان عـير الأهـــل والـــوتـــدُ.[1]

(1) السابق.

ومن هذا الكثير من العادات الرائعة في معاني الشهامة والكرم والغوث والنجدة التي وثَّقها التاريخ والأدب وكُتب السِّير العربية، **وكان من سجية العرب أن مجرد الفرح لجبر مظلوم يُعد من تمام المروءة وعلامات الرجولة وكمال الطباع، ما بالك بوصف من ساعد في النصرة وإنقاذ أحدهم من براثن أشباه البشر من الضباع**. وقد شهد رسول الله للعرب بهذه الأخلاق وفرح بها واستبشر بإعادة إنتاجها، خاصة إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم؛ ففي روايته لقصة حلف الفضول، قال صلى الله عليه وسلم «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا، لو دُعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها، وألا يعز (يغلب) ظالمًا مظلومًا».[1] لذلك أشاد غوستاف لوبون بسمو أخلاقهم فقال: إن أخلاق العرب في الأدوار الأولى من الإسلام أرقى بكثير من أخلاق أمم الأرض قاطبة، وكان عدلهم واعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم ووفاؤهم بعهودهم ونبل طبائعهم، مما يُوقف النظر ويناقض سلوك الأمم الأخرى.[2]

كان العرب القدامى يستبشرون بمثوبة وجزاء هذه المروءة في منع المصائب والحفظ من الشدائد؛ فبعد نزول أول قطرات الوحي، ذهب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى السيدة خديجة وهو خائف ومرتعد مما نزل عليه، فقالت له أم المؤمنين: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا». وأوضحت السبب: «إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتُقري الضعيف، وتعين على نوائب الحق».[3] لذلك كان من علامات حب الله للإنسان أن يجعله ملجأً للناس، يقضي دينًا، يُفرج همًّا، يُنفس كربًا، يُطعم جائعًا، يعين ملهوفًا، ينقذ متعسرًا، هذا الإنسان لا يخزيه الله أبدًا. من هنا كان التطوع لإسعاد المحزونين هبة ربانية تُقدم للمُعطي، وكأن الله يسخر للناس هؤلاء المتطوعين ليعبروا بهم إلى أمنهم وينيروا لهم ظلامهم. نجد ذلك في قول الإمام الحسين بن علي: «**اعلموا أن حوائج الناس إليكم، من نعم الله**

(1) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، محمد سليم العوا، ص20.

(2) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص453.

(3) صحيح البخاري:.6982

عليكم؛ فلا تملوا النعم فتتحول إلى غيركم». لذا كان كبار القلوب يفرحون إذا طلب أحدهم عونًا أو مساعدة منهم، كأنه رزق كبير جاء إليهم (وهم المُعطون) يُوجب الامتنان والشكر لمن تم الإحسان عليهم، فقد تسببوا في الأجر والغفران، وسمحوا بارتقاء مراتب المعروف والإكرام، وكُتب بوجودهم شهادة ضمان من المصائب والخذلان، كما يؤكد عبد الله بن عباس في قوله: «صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد متكئًا».

العمل التطوعي في التراث الإسلامي

وفي التراث الإسلامي نجد أن العمل التطوعي والخيري مقصد عام من مقاصد الشريعة.[1] حيث ارتبط بمفاهيم الحرية والعتق من الأَسر والحاجة والمرض والجهل والفقر، والعناية بالطبقات الضعيفة في المجتمع، كما ارتبط بالتمدن وعمارة الأرض ورقي المجتمع وتمكينه، ودعم السلم الأهلي وبناء المجال العام. وقد كفل الإسلام من الأحكام والوسائل ما يكفل العمل للعاطل، والأجر العادل للعامل، والطعام الكافي للجائع، والعلاج للمريض، والكساء للعريان، والكفاية للمحتاج، والتيسير على المعسر، والترحيب باللاجئ. نرى ذلك في جعل الزكاة فرضًا من فرائض الإسلام وركنًا من أركانه الخمس، ويأتي العمل الخيري في الشرع بالأمر والحض على عمله ومدح فاعله والتحذير من تجاهله وتأثيم تاركه في كثير من آيات القرآن، فقد ورد لفظ الخير ومعناه في 180 موضعًا من القرآن، منها على سبيل المثال، قوله تعالى:

- فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهَّ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.[2]
- وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ.[3]

(1) مقاصد الشريعة، الطاهر بن عاشور، ص 204.

(2) سورة المائدة: 48.

(3) سورة الأنبياء: 7.

- وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.[1]

وجاء الأمر في القرآن الكريم بالتعاون والتكافل والرحمة والإحسان والإنفاق والعطف والبذل والإطعام والكرم في عشرات الآيات منها:

- يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.[2]
- وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.[3]
- وتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.[4]
- إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.[5]
- وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا.[6]
- وَلا تَجعَل يَدَكَ مَغلولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبسُطها كُلَّ البَسطِ فَتَقعُدَ مَلومًا مَحسورًا.[7]
- وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ.[8]
- فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.[9]
- وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ.[10]

---

(1) سورة الحج: 77.
(2) سورة البقرة: 267.
(3) سورة آل عمران: 134.
(4) سورة المائدة: 2.
(5) سورة النحل: 128.
(6) سورة الإسراء: 26.
(7) سورة الإسراء: 29.
(8) سورة المنافقون: 10.
(9) سورة التغابن: 16.
(10) سورة المعارج: 24،25.

- في جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ، مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ.[1]
- وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا.[2]

وفي السنة النبوية، تواترت عن العمل الخيري عشرات الأحاديث الصحيحة، ليس فقط للحث عليه والتبشير بثوابه العظيم، وجعل الخيرية في الدنيا والمغفرة في الآخرة منوطة بالبذل والرحمة، لكن أيضًا للدعوة إلى تجويده وإحسانه وكتمه عن أعين الناس، والتحذير والنهي عن تركه عند المقدرة، منها:

- خير الناس أنفعهم للناس.[3]
- من لا يَرحم لا يُرحم.[4]
- ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.[5]
- الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار.[6]
- أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى.[7]
- مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.[8]
- من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له.[9]

---

(1) سورة المدثر: 40 – 44.
(2) سورة الإنسان: 8.
(3) رواه الطبراني، المعجم الأوسط: 5787.
(4) رواه مسلم، كتاب الفضائل: 2319.
(5) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح: 1924.
(6) صحيح البخاري: 5353.
(7) رواه البخاري، كتاب الأدب: 4998.
(8) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب: 2586.
(9) صحيح ابن حبان: 5419.

- ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان؛ فيقول أحدهما اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكًا تلفًا.[1]
- إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني، وأنا منهم.[2]
- ما من إمام يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلّة والمسكنة، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلّته وحاجته ومسكنته.[3]
- مَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كربةً من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة.[4]
- مَن يسَّر على مُعسرٍ يسَّر الله عليه، ومَن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه.[5]
- دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض.[6]
- روى أبو هريرة عن النبي، أن رجلًا رأى كلبًا يأكل الثرى من العطش؛ فأخذ خفه فجعل يغرف له به حتى أرواه، فشكر الله له، فأدخله الجنة.[7]
- سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، (منهم) ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم يمينه ما تنفق يساره.[8]

---

(1) مسلم: 1010.
(2) البخاري: 2354.
(3) صحيح الترمذي: 1332.
(4) مسلم: 6793.
(5) صحيح الترمذي: 1930.
(6) صحيح البخاري: 3318.
(7) البخاري: 173.
(8) مسلم: 1031.

- إذا قامت الساعةُ وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها.[1]
- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.[2]
- من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل.[3]

وورد عنه صلى الله عليه وسلم أن «إماطة الأذى عن الطريق صدقة».[4] فإذا كان أجر إماطة الأذى عن الطريق صدقة، فإن أجر إماطة الأذى عن القلوب ورفع الحاجة عن ظهور أهلها لا يعرفه إلا ربهم. وفي السيرة النبوية رأينا رحمته صلى الله عليه وسلم مع الكبار والصغار، ومع الرجال والنساء، ومع القريب والبعيد، ومع الصديق والعدو، بل إن رحمته تجاوزت البشر لتصل إلى الدواب والأنعام والطير.[5] وجاء في وصف كرمه وبذله صلى الله عليه وسلم «أنه كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر».[6]

الصحابة على الدرب

سار الصحابة على المنهج، فرأينا أبا بكر الصديق تصدق بكل ماله، وأخرج عمر بن الخطاب نصف ماله، وروى عروة أنه رأى أم المؤمنين عائشة «تتصدق بسبعين ألف في ليلة واحدة». ولُقبت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بـ (أم المساكين) لكثرة إطعامها الفقراء، ولُقب الصحابي عبد الرحمن بن صخر بـ (أبي هريرة) لرعايته قطة، وكان طلحة بن عبيد الله يُلقب بـ (الفياض) لكثرة سخائه، رُوي عنه أنه تصدق يومًا بمائة ألف ثم حبسه عن المسجد (تأخر في الخروج للذهاب إلى المسجد) ترقيعُ ثوبه (يخيطه لأنه قديم). وبكى علي بن أبي طالب يومًا، لأنه لم ينزل عنده ضيف ولا مسكين ليطعمه، ويخاف أن يكون ذلك لغضب من الله، وكان يقول كرم الله وجهه:

(1) صحيح الأدب المفرد: 371.
(2) صحيح البخاري: 3138.
(3) صحيح مسلم: 2199.
(4) صحيح الجامع: 8069.
(5) رحماء بينهم، راغب السرجاني، ص7.
(6) صحيح مسلم: 2312.

«مِن كَفَّارات الذُّنوب؛ إغاثَة الملهوف، والتَّنفِيس عن المَكرُوب». وجاء في حيلة الأولياء أن ابن عمر كان إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قرّبه لربه وتصدق به، وكان الصحابي مرثد بن عبد الله لا يذهب إلى الصلاة إلا ومعه ما يتصدق به.

من بعد الصحابة سار التابعون ومن بعدهم؛ فجاء أن إمام مصر الليث بن سعد كان ينفق كل سنة على الفقراء والمساكين أكثر من خمسين ألف دينار ولا يدخر منها شيئًا لنفسه، ويتصدق في كل يوم على ثلاثمائة مسكين، وورد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان يضع الحبوب على رؤوس الجبال لإطعام الطيور بعد أن شبع في عهده الفقراء، وحين سُئل عن هذا قال: «حتى لا يُقال إن طيرًا جاع في عهد عمر». ومن هذه النماذج الكثير مما لا تكفيه هنا السطور، ليس فقط لكثرة عددها، لكن أيضًا في عظيم قيمة ما قدمت من وجوه تبعث على العجب والدهشة.[1]

لم تتوقف نظرة الإسلام في العمل الخيري عند حد الإغاثة وتوفير مجرد الكفاف للملهوف، فحد الكفاية (Minimum Vital) هو الأساس الذي لا يمكن بحال التنازل عنه حتى لو تم تعطيل الأحكام الشرعية المعتادة ليعيش الناس؛ فهو الحق المقدس الذي يلتزم به كل المجتمع لتحقيق الكفالة والأمن والضمان المجتمعي من ناحية، وضمان كرامة المستحقين من ناحية أخرى، لكن نظرة الإسلام تعدت حد الكفاية بكثير، وهذا ما ظهر في قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لعماله: «**إذا أعطيتم فأغنوا**».[2] وهذه النظرة تأتي من فهمه للشرع الذي لا يأمر بتوفير الحاجات الأساسية للمحتاج، وإنما يهتم بإغنائه ورفاهيته كحق من حقوقه في الحياة.

ورد أن الليث بن سعد قال، كتب عمر بن عبد العزيز لعماله: «أن اقضوا عن الغارمين». فكتب إليه بعضهم: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والأثاث في بيته. فكتب إليهم عمر: «لا بد للرجل من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، وإن كان غارمًا

(1) من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ص195.
(2) الأموال، أبو عبيد القاسم، ص502.

فاقضوا عنه».[1] وإذا لم تحدث الكفاية ترتب عليها أحكام مُغايرة حسب حال البلد وطاقاته، من ذلك ما قاله الإمام ابن حزم الأندلسي (994 – 1064م) في كتابه المحلَّى: «إذا مات رجل جوعًا في بلد اعتبر أهله قتلَة، وأُخذت منهم دية القتيل، وللجائع عند الضرورة أن يُقاتل في سبيل حقه في الطعام الزائد عند غيره؛ فإن قُتِل فعلى قاتله القصاص، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله؛ لأنه منع حقًّا وهو طائفة باغية».

امتلأ التراث الإسلامي بذكر المئات من أوجه الخير، عملًا بالأثر القائل: «**اغرس بذور خيرك في كل أرض عرفتها، فما تعلم بأي أرض تنبت**»، منها ما جاء ذكره بالتصريح والتلميح في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، على سبيل المثال: إطعام الجائع، سقيا الماء، كسوة العريان، إيواء المشرد أو المنقطع أو المهاجر أو اللاجئ، كفالة اليتيم، رعاية الأرامل، تعهد المساكين، رعاية الأطفال، رعاية كبار السن، إيتاء ذوي القربى، الإحسان إلى الجيران، إكرام الضيف، رعاية ذوي الاحتياجات الخاصة، إدخال السرور على المحزونين، إعانة الضعفاء وأصحاب المصائب، إسعاف الجرحى ومداواة المرضى، القرض الحسن، مساعدة الغارمين، التيسير على المعسر، إعارة المتاع، قضاء الحوائج، إرشاد الضال، تأمين الخائف، تزويج اليتامى، إفطار الصائم، تحرير العبيد، تعليم الجاهل، نشر العلم، الإصلاح بين المتخاصمين، نصرة المظلوم، منع الضرر عن الناس، عيادة المريض، مواساة أهل الميت، الرحمة بالحيوان، غرس الأشجار، الكلمة الطيبة والابتسام في وجوه الناس.

الملاحظ من كل ذلك وغيره هو عمومية فعل الخير في الإسلام وشموله لكل ضعيف أيًّا كان، حتى لو كان غير طائع أو غير مسلم، وأعدها الإسلام عبادة لها أجر، كما قال الإمام ابن رجب الحنبلي: «**المشي في حقوق الآدميين صدقة**».[2]

(1) السابق، ص495.

(2) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ص266.

ربط المسلمون عملهم الخير بابتغاء الأجر من الله لا من البشر، ما جعل العمل الخيري يزدهر في حضارتهم كمًّا وكيفًا، ويستمر لقرون من الزمن في البذل والعطاء والبر، كما يقول العز بن عبد السلام: «**ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل**». ما انعكس على المجتمع ليكون في حالة ترابط، ولا يكون هناك استبعاد لفئة أو أفراد بمنعهم من أسباب الحياة؛ فتطمئن قلوبهم ويأمن من شرهم المجتمع؛ فمتى شَعَر الفقير والمسكين، والغارم، وابن السبيل أنَّه ليس هَمَلًا في مجتمعه، وأنَّ مجتمعه يكفل له حاجته، بل عندما يشعر طالب العلم أنَّ كفاية حاجته تكون في مصارف الزكاة، ويشعر طالب الزواج أنَّ كفاية حاجته منها، بلا مَنٍّ من أحدٍ ولا أذى، وحين يشعر المحتاج أنَّه لا يتلقَّى إحسانًا ولا معونة، ولكنَّه يتلقى حقًّا مقررًا له من قِبَلِ وحي ربِّ العالمين، ومِن ثَمَّ ينتفي عنصر اليد العليا، فالكلُّ يد واحدة، واليَد العليا هي يد الله، فأيُّ تكافلٍ اجتماعيٍّ يُمكن أن يكون بين أفراد هذا المجتمع.[1] وهذا ما تحدث عنه الإمام الشافعي في عبارته الفقهية البديعة: «**إن للفقراء أحقية استحقاق في المال، حتى صار بمنزلة المال المشترك بين صاحبه وبين الفقير**».

نلاحظ أيضًا أن مقاصد الشرع جعلت عون المحتاج أفضل عند الله من كثير من نوافل العبادات؛ فجاء في الأثر: "لُقمَةٌ في بطنِ جائعٍ أفضلُ من عِمارةِ ألفِ جامعٍ»، وكثيرًا ما ارتبطت الخيرية بالبذل والعطاء، كما جاء على ألسنة السلف وأقلام العلماء، من ذلك قول عبد الله بن المقفع: "لا خير في القول إلا مع العمل، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع النية، ولا في المال إلا مع الجود"، وقولهم: **"خير الناس من كف فكه، وفك كفه"**.

(1) التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية، محمد بن أحمد الصالح، ص 104.

الوقف في التراث الإسلامي

تفتخر الإنسانية بنظام الوقف الذي أسسته الحضارة الإسلامية، منذ قول النبي صلى الله عليه وسلم «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».[1] وتم تطبيقه من خلال وقف عمر بن الخطاب، وظهر بشكل مؤسسي في القرن السادس الهجري في الشام، فكان والي دمشق نور الدين الشهيد أول من أوقف من أراضي بيت المال لإطعام المساكين بعمل (التكايا)، وسار على نهجه صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام، واستمر الوقف مع الزمن وتشعب وتنوع العمل فيه، ليصبح نظامًا متكاملًا متعدد المجالات، ويصبح له هيئات ومؤسسات ووزارات، وما زال يتطور إلى اليوم.

يُعرف الوقف في الحضارة الإسلامية بأنه مال يُخرجه صاحبه من ملكه ويجعله على حكم ملك الله تعالى، ويخصص ربحه للإنفاق في وجوه البر الخاصة والمنافع العامة، ما يعني حبس العين عن أن تكون مملوكة لأحد من الناس ولا يكون لأي إنسان القدرة في التصرف بها ولو كان السلطان، والتصدق بريعها على جهات الخير في الحال أو في المآل.[2]

بنظرة عامة في السجل التاريخي لنظام الوقف، نلاحظ أنه من حيث فكرته المعنوية (الصدقة الجارية)، ومن حيث أصوله المادية (الأراضي والعقارات) يعد قاعدة صلبة من قواعد بناء مؤسسات المجتمع المدني العربي، هذا النظام يقول الكثير عن قلوب السابقين الرحيمة وعقولهم السديدة، وصفها قاسم أمين بقوله: لا مِراء في أن خير وجوه النفع للمسلمين إنشاء المدارس لنشر التعليم، ومعالجة المرضى ومساعدة الفقراء والبائسين، وما يشابه ذلك من الأعمال النافعة العمومية التي تحفظ حياة الأمم وتزيد في قوتها، وبهذا المعنى فهم القصد من الوقف أزمانًا طويلة، فالمساجد والتكايا والكتاتيب والمارستانات والمرتبات التي تُعطى إلى طلبة

(1) صحيح مسلم: 1631.

(2) الأوقاف والسياسة والمجتمع في مصر، إبراهيم البيومي غانم، ص64.

العلم الفقراء، نرى آثارها العديدة القائمة منتشرة في البلاد طولًا وعرضًا، تشهد لأجدادنا – أولئك الصالحين المحسنين المتبصرين – أنهم كانوا رجالًا يعملون بعقل ورؤية لإصلاح شؤون بلادهم ونفع أمتهم.[1]

تحدث الشيخ أحمد حسن الباقوري (وزير الأوقاف المصري الأسبق) عن الوقف وأهله في بيان له أمام مجلس الشعب المصري عام 1985، مبينًا مآثره في الحضارة الإسلامية فقال: «قد تأخذ أحدنا الدهشة وهو يستعرض حجج الواقفين ليرى القوم في نبل نفوسهم ويقظة ضمائرهم، وعلوِّ إنسانيتهم، بل سلطان دينهم عليهم، وهم يتخيَّرون الأغراض الشريفة التي يَقفون لها أموالهم، ويَرجون أن تُنفَق هذه الأموال في سبيل تحقيقها، وربما استَشرفَت النُّفوس إلى أمثلة مِن هذا البرِّ، فإلى هذه النفوس المُستشرِفة أسوق هذه الأمثلة: وقف الأواني المكسرة، وقف الكلاب الضالة (إطعامها والعناية بها)، وقف إعارة الذهب والحُلي في الأعراس، وقف الزوجات الغاضبات (بيوت لاستقبال الزوجات النافرات أو الغاضبات من بيوتهن، هذه البيوت حاضرة الطعام والشراب والخدمة حتى يأتوا الأزواج وتصفو نفوسهم)، وقف المرضى والغرباء، وقف علاج المريض، وقف مقابر الصدقة، وقف الحمامات العامة، وقف الطيور المهاجرة، وقف القطط التي لا مأوى لها، وقف بناء بيوت خاصة للفقراء، وقف المطاعم الشعبية المجانية (التكايا)، وقف بيوت لسكن المسافرين».

وقد جاء تفصيل كل ذلك وغيره عبر كتاب (من روائع حضارتنا) الذي تناول الكثير من مشروعات المؤسسات الإسلامية الوقفة منها: توفير الحليب والماء المذاب في السكر للأمهات الحوامل، وكانت بأمر صلاح الدين الأيوبي وتم عمل المشروع في قلعته بدمشق، كذلك وقف الزبادي (الأطباق) المكسورة، فإذا كسر أحد الخدم أو الأطفال في بيت ما، أطباق أو أواني تعرضهم لغضب رب البيت، فيذهبون إلى هذه المؤسسات ويستبدلونها بجديد غيرها، كذلك مشروعات علاج وإيواء الحيوانات وخاصة المُسنة، وعلاج وإطعام الطيور لمن لا يجد منها طعامًا.[2]

(1) الأعمال الكاملة: قاسم أمين، ص183.

(2) من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ص203.

العمل الخيري في التراث المصري

يلاحظ القارئ في التاريخ المصري وجود جذور عميقة القِدم للعمل الأهلي والخيري، من خلال النقوش الهيروغليفية والصور الموجودة على المعابد الفرعونية القديمة التي تصور المصريين القدماء وهم يتعاونون في الصيد والزراعة وشق الترع وبناء الجسور. ووثقت الرسومات القديمة مساعدة الفقراء خاصة في حفلات الأسر الملكية، وكانت المعابد تتلقى التبرعات من محاصيل الأرض ومنتجات المواشي، لتوزيعها على المحتاجين بمعرفة الكهنة. وكثرة البرديات التي توصي بالضعفاء، ومنها قصيدة (سنوحي) التي جاء فيها: «إن كنت لسانًا للمظلوم، وأذنًا صاغية لشكواه، فأنت حبيب ماعت، ولن يمزق شراع مركبك يومًا». ووجد منقوشًا على حجر في قبر أمنحتب: «**لم يوجد في عشيرتي بائس ولا في عهدي جائع، وعندما حلت سنوات القحط حرثت الأرض وضمنت الحياة لأهلها، وساويت في العطاء، وعندما عاد الخير لم أسترد ما أعطيت**».

وقبل وأثناء وبعد ازدهار الحضارة الإسلامية بمصر، رسخ لدى المصريين الاعتقاد بأن **رحمة الناس ببعضهم في الشدائد تهونها عليهم، وتأذن برحمة الله على أرضهم**. وتحول الاعتقاد إلى عمل، فرأينا انتشار السبيل في الشوارع (سقيا الماء الباردة للمارة)، والتكايا (إطعام الجائعين في أماكن مخصصة بالطرقات بشكل مجاني على مدار اليوم)، والمدارس المجانية التي توفر مع المعارف والعلوم، أماكن لنوم المغتربين (يمكن رؤية آثارها اليوم في مدارس ومساجد شارع المعز بالقاهرة)، وكثرة المكتبات العامة المجانية لطلاب العلم مثل مكتبة دار الحكمة، مكتبة المدرسة المحمودية، وانتشار الحمامات العامة النظيفة في الطرق، وانتشار المستشفيات العامة المجانية مثل بيمارستان قلاوون، الذي أسسه المنصور قلاوون عام 1284م ووهبه للجميع كصدقة بعد شفائه من مرض شديد.

وفي العصر الحديث يتجلى العمل التطوعي والأهلي المصري في بناء الجامعة المصرية (جامعة القاهرة حاليًّا) عام 1925، كأول جامعة مدنية في مصر، والمستشفى الخيري (مستشفى الدمرداش حاليًّا) عام 1931، بجهود تطوعية لا دخل فيها لمنطق الأرباح الشخصية. هذه الصحوة المصرية في تأسيس الجمعيات الخيرية، جعلت مفتي الديار المصرية آنذاك الإمام محمد عبده (1849-1905) يكتب معجبًا بها ومشجعًا لها قائلًا: «إن مما يُثلج به الصدور، وترتاح له النفوس، ويبعثنا على الثقة بحسن مستقبلنا، ما نراه من إقدام أبناء قطرنا على الأعمال الخيرية، وجدهم ونشاطهم في تأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها، وأخذهم بالوسائل الحقيقية التي تؤدي إلى ذلك، وإن سبقنا إليها سكان الممالك المتمدنة وبلغوا بها آمالهم من الثروة والقوة وكمال السطوة، وهي إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة، تختلف أشكالها وتتحد مقاصدها وتتعدد أماكنها وطرق سيرها، وتتفق غاياتها وفوائدها، فتكون على تنوع وظائفها بمنزلة بدن واحد ذي أعضاء مختلفة، يقوم كل عضو منه بما يعود على البدن كله بالصحة والقوة».[1]

(1) الأعمال الكاملة: الإمام محمد عبده، مجلد الكتابات التربوية والاجتماعية، ص5.

واقع المجتمع المدني العربي

صعب جدًّا أن تفكر بطريقة نبيلة
حينما يكون كل ما تفكر فيه هو لقمة عيشك.

روسو

يشير المجتمع المدني (القطاع غير الحكومي وغير الخاص أو القطاع الثالث) إلى مجموعة المؤسسات والجمعيات والاتحادات والروابط العمومية التي تعتمد على الأنشطة التطوعية، غير الحكومية وغير الهادفة للربح وتعمل في المجال العام بهدف خدمة الأفراد والمجتمع، وتحقيق أحزمة أمان اجتماعية للفئات الضعيفة والمهمشة خاصة الأقليات والمعوقين والفقراء والمرأة المعيلة والأطفال المشردين واللاجئين، عبر تنمية اجتماعية واقتصادية حقيقية. وهذه التنمية هي محاولة إيجابية ومتعمدة بواسطة شعب ما من أجل اللحاق بالمستوى الاقتصادي لمستويات شعوب أخرى سبقته إلى زيادة قدرتها الإنتاجية ورفع متوسط دخل أفرادها ورفاهيتهم، وتراعي مبادئ الشفافية والمساواة والمشاركة والمُساءلة.

التنمية بذلك عملية تراكمية مستمرة لتحسين مؤشرات الحياة المادية والمعنوية، بما يضمن جودة الحياة وتوفير الاحتياجات الأساسية للإنسان ككل، وتعطي المجتمع القدرة على النمو والتطور الشامل.[1] بهذا المفهوم تُعد التنمية أهم ركائز الإنقاذ والحماية من الوقوع في فخ (الدولة المتخلفة)، وهي الدولة التي تتصف بانخفاض معدلات الدخل بالنسبة لفرد من مجموع سُكانها، والتي تتوافر فيها موارد مُعطلة يمكن استغلالها بالمعرفة التكنولوجية السائدة في غيرها من الدول. كما يتأخر

(1) التنمية الثقافية المستدامة وبناء الإنسان، تحرير: سعيد المصري، ص92.

فيها المستوى الاقتصادي والاجتماعي للسكان من حيث ندرة رأس المال، سوء توزيعه، السكن غير الآدمي، انخفاض معدل الادخار، تركز النشاط الاقتصادي على الخدمات والريع، سيطرة رأس المال الأجنبي على القطاعات الاقتصادية الرئيسية.[1] من هنا تأتي أهمية المجتمع المدني كفاعل رئيسي في هذه التنمية.

عالميًّا، مرَّ تعريف ومعنى وفلسفة عمل المجتمع المدني بكثير من المراحل عبر قرون من خلال أفكار وآراء شيشرون، توما الإكويني، مارتن لوثر، مكيافيلي، توماس هوبز، روسو، جون لوك، هيغل، ماركس، جرامشي، توكفيل، آدم سميث، آدم فيرغسون، مونتسكيو، تيلور، باينيس، كانط، إميل دوركايم، تالكوت بارسونز، إدوارد شيلز، يوجن هابرماس، ماريون يونج، جيفري ألكسندر، رالف دارندورف، جريج ديس، حنة آرنت.. وغيرهم كثير، إلى أن وصل إلى الطريقة التي يعمل بها المجتمع المدني حاليًّا. ومع ذلك ما زال المجتمع المجتمع المدني يخضع لتطور مستمر على مستوى التعريف والفلسفة والفكرة، كذلك على مستوى طرق وآليات عمله التي تختلف من دولة إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر. إلا أن هناك قواعد متفق عليها أهمها: الإنسانية، العقلانية، الحرية، الشفافية، المحاسبة، العدالة، المساواة، التنظيم والعمل الجماعي، الاستقلالية في العمل عن الدولة. نتيجة الالتزام بهذه القواعد والمبادئ أحرز العمل المدني نجاحات كبيرة في دعم وتطوير سياسات الرفاه الاجتماعي (كما حدث في أمريكا)، التغلب على عملية إقصاء الفقراء (كما في فرنسا)، رفاهية مجتمعات اللاجئين ودمجهم في المجتمع (كما في ألمانيا).[2]

مصريًا، ظهرت الجمعيات الأهلية والخيرية بتنظيم يشبه النمط الأوروبي أو يحاول، بما فيها الجمعيات الخيرية الدينية الفئوية والجمعيات العلمية التي شكلت المرحلة الأولى للمجتمع المدني المصري مثل: الجمعية الخيرية اليونانية بالإسكندرية (1821م)، وجمعية معهد مصر للبحث في تاريخ الحضارة المصرية (1859م)،

(1) منظمة الشباب الاشتراكي، عبد الغفار شكر، ص155.

(2) المجتمع المدني، فرانك آدلوف، ص10.

وجمعية المعارف للتأليف والنشر (1868م)، والجمعية الجغرافية المصرية (1875م).[1]

المرحلة الثانية: بدأت مع الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بظهور الجمعيات الخيرية والرعائية مثل: جمعية العروة الوثقى (1885م)، جمعية الصعيد للتنمية والتربية القبطية (1891م)، جمعية المساعي المشكورة بالمنوفية (1892م)، الجمعية الخيرية الإسلامية (1896م)، وحصلوا بعد نشأتهم على تأييد شعبي كبير. ثم استمر تأسيس الجمعيات خاصة مع الاتصال المصري بأوروبا عبر البعثات العلمية، وظهور النخب الثقافية والتنويرية التي شكلت حركات التجديد والحركات الوطنية والتحررية والفكرية، وبفضل هذه النخبة بدأ وانتشر التعليم الوطني، وهو ما تُوِّج بإنشاء الجامعة الأهلية 1908م (جامعة القاهرة حاليًّا)، وإنشاء جمعية الهلال الأحمر المصري 1911م، وعدد من النقابات المهنية مثل نقابة المحامين 1916م.

المرحلة الثالثة: بدأت بعد ثورة 1919، بظهور اتحاد الصناعات 1922، ثم جاء دستور1923 ليقر حق المصريين في تأسيس الجمعيات الأهلية، فظهرت اتحادات العمال والطلبة.

المرحلة الرابعة: بدأت بعد ثورة 23 يوليو 1952، وتستمر لعقدين من تأميم كل ما سبق؛ حيث توقف العمل الأهلي تمامًا وتم السماح وإنشاء ما رأته الدولة مناسبًا.

المرحلة الخامسة: بدأت من منتصف السبعينيات لعقدين حتى منتصف التسعينيات؛ حيث سيطر نظام السوق وتوغلت سياسة الانفتاح، وبالتالي بدأت نسب الفقر تزداد في مصر، ما جعل منظمات المجتمع المدني تعود إلى الظهور بكثرة غير مسبوقة، ونشطت في مجالات الرعاية والمساعدات الاجتماعية.

(1) دور المجتمع المدني، إنجي محمد عبد الحميد، ص132.

المرحلة السادسة: بدأت من منتصف التسعينيات حتى أواخر الحقبة الأولى من القرن الجديد، وهي مرحلة ظهور المؤسسات والجمعيات الخيرية العملاقة التي أسسها رجال أعمال مصريين (مؤسسة ساويرس، مؤسسة محمد فريد خميس)، أو مؤسسات كبيرة بجهود تطوعية كبيرة (مؤسسة رسالة، جمعية صُناع الحياة، مؤسسة مجدي يعقوب، مستشفى سرطان الأطفال، بنك الطعام المصري، الأورمان، مصر الخير،.. إلخ). في هذه المرحلة أيضًا وصل الدعم الخارجي إلى المجتمع المدني في مصر، وتم افتتاح فروع ومقرات ومكاتب للمنظمات الإنسانية الدولية بالقاهرة.

المرحلة السابعة: من 2011 حتى اليوم، وهي مرحلة الانطلاق والتوسع في تأسيس الجمعيات والمؤسسات الخيرية والتنموية، وإطلاق المبادرات المجتمعية والأندية الثقافية والروابط الرياضية التي يعمل أغلبها بلا إطار قانوني، ساعدت مواقع التواصل الاجتماعي وجود هذه المشروعات عبر تسهيل النشأة والحشد والحركة.[1]

المُلاحظ أن العمل الأهلي العربي حين بدأ في القرن التاسع عشر لم يكن مُنشئًا لنظام جديد، وإنما هو امتداد طبيعي للتراث العربي والإسلامي الأصيل، خاصة لنظام الزكاة والصدقة الجارية والوقف الإسلامي ونظام العشور في المسيحية، كذلك بدأ متأثرًا منذ بداياته بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للمجتمع العربي في مساره التاريخي، وكذلك تأثر بالأحداث السياسية والعسكرية والبيئة العالمية.[2]

يمكننا في الحالة المصرية مشاهدة الطفرة التي حدثت في عمل المجتمع المدني من حيث العدد وملفات العمل والنشاط؛ فقد كان عدد الجمعيات الأهلية عام 1899، لا يزيد عن 65 جمعية، وبعد نصف قرن (أي في عام 1949) كان عددها 1301، وفي بداية التسعينيات اقترب العدد من 12 ألف جمعية، وفي عام 2002

(1) المجتمع المدني، عزت حجاوي، ص136.

(2) المنظمات الأهلية العربية، شهيدة الباز، ص35.

زاد بما يتجاوز 4 آلاف، فأصبح إجمالي عددها 16600 جمعية.[1] حتى وصل في 2023 إلى أكثر من 55 ألف جمعية خيرية، يرتكز عمل أغلبها في العاصمة القاهرة.

الأزمة تظهر للجميع

على مدار مواسم الخير المتتالية مثل رمضان، عيد الفطر، العشر الأوائل من ذي الحجة، عيد الأضحى، المولد النبوي، عاشوراء.. إلخ، يمتلئ المواطن المصري بإعلانات التبرعات عبر الفضائيات والإذاعات (حتى إذاعة القرآن الكريم العريقة تورطت في الأمر) والصحف والمنشورات التي تحاصره في كل مكان، من البيت والشارع حتى أماكن العمل. وليس الرديء في الأمر فقط هو عدم وجود تنسيق ما بين أصحاب هذه الإعلانات حتى لا تصبح بهذا التكرار والإزعاج الذي ينتقص من إنسانيتنا بتجاهلها، لكن المستفز كذلك هو أسلوب التشهير بأصحاب الحاجة في الإعلام بقصد أو بغير قصد، والأسوأ من هذا كله هو أن هذه الجمعيات تعمل منذ سنوات وتنفق الملايين في الدعايات والإعلانات وتتلقى أضعافهم، فحسب وزارة التضامن عام 2022 بلغت دخول الجمعيات الخيرية 6 مليارات و750 مليون جنيه مصري، إلا أن معدلات الفقر والمرض والأمية بعضها يزداد وبعضها ثابت في أحسن الأحوال، فقد شهدت معدلات الفقر ارتفاعًا ملحوظًا من 22 ٪ عام 2009 إلى 25 ٪ في 2011، ثم إلى 26.2 ٪ في 2013، ثم إلى 27.8 ٪ في 2015، ثم إلى 32.5 ٪ في 2017 – 2018، وذلك يوافق نتائج أحدث مسح للدخل والإنفاق في مصر، وهو الصادر عن الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء. بل إن بعض الإحصائيات التي خرجت من يونيسف وجامعة الدول العربية تتحدث عن نسب مرعبة ومرتفعة للفقر المدقع والفقر متعدد الأبعاد في 2022.[2]

يبدو أن مشكلة الأثر لمشروعات التبرعات وأوجه إنفاقها مشكلة عالمية، ما أكده عبد الرحمن ناجي (مدير التعلم والاستراتيجية في مؤسسة ساويرس للتنمية

(1) الدور التنموي والتربوي للجمعيات الأهلية والتعاونية في مصر، عبد الغفار شكر، ص25.

(2) التقرير العربي للفقر متعدد الأبعاد، 2017.

الاجتماعية) في أحد مقالاته حول فكرة (الإيثار الفّعال وأهمية عدم الاكتفاء بالنوايا الحسنة)، مشيرًا إلى أن إجمالي تبرعات المسلمين السنوية في العالم لبيوت الزكاة الرسمية فقط تُقدر بـ 550 مليار دولار سنويًّا، وطبقًا لبرنامج الغذاء العالمي يحتاج العالم إلى 40 مليار دولار سنويًّا حتى عام 2030 للقضاء تمامًا على مشكلة الفقر، وطبقًا لصندوق الأمم المتحدة للسكان يحتاج 115.5 مليار دولار خلال عشر سنوات (تقريبًا 12 مليار بالسنة) للقضاء على 99 ٪ من الوفيات خلال النفاس في 120 دولة ذات النسب الأعلى في هذه القضية، ليكون إجمالي التكاليف المطلوبة حاليًّا للقضايا السابقة تقريبًا 52 مليار دولار، وهو ما يقل عن 10 ٪ فقط من إجمالي التقديرات الرسمية للزكاة في بيوت الزكاة الرسمية وحدها من المسلمين وحدهم، ما يعني أن أقل من عُشر تلك الأموال سنويًّا قادر على حل مشكلتين من أهم التحديات التي تؤدي إلى وفاة آلاف البشر سنويًّا، ومع ذلك لا يوجد تأثير لهذه الملايين التي تم جمعها وإنفاقها من المسلمين، وأيضًا أضعافها من غير المسلمين عبر حملات التبرع الدينية والإنسانية، بينما الكوارث ما زالت تهدد الأرض كلها.

بالعودة إلى مصر، يوجد ما يزيد عن 55 ألف جمعية وآلاف الفرق التطوعية يُفترض أنهم يعملون في مجالات الإغاثة والتنمية والقضاء على مثلث الفقر والمرض والجهل، الذي ما زال يقوى ويتوسع ويتمدد طبقًا للإحصائيات الرسمية والدولية، فثلث الشعب المصري (حسب الجهاز المركزي (٪ 29.7 تحت خط الفقر، وربع الشعب المصري (25.8 ٪) أميون، لا يعرفون القراءة والكتابة وفقًا لتعداد عام 2017، وتتصدر مصر القائمة العالمية في انتشار بعض أمراض الأورام. تحدث هذه الكوارث بلا تأثير ملحوظ لهذه الجمعيات، مما يجعلنا أمام مشهد أنسب عنوان له (جعجعة بلا طحن)، أو أنها تعاني مشكلات كبيرة مسكوتًا عنها.

مشكلات المجتمع المدني في مصر

مع وجود هذه الآلاف من الجمعيات؛ لا يمكنك أن تعد على أصابع يدك أسماء عشر جمعيات مؤثرة بينهم، ما يحتم على إدارات المجتمع المدني بشكل عام وإدارات الجمعيات بشكل خاص، مراجعة أسباب ضعف تأثيرها، التي غالبًا ما ترجع إلى:

- حالة الاستبداد العامة التي وصلت إلى الجمعيات وعملها، ما جعلها لا تبدأ نشاط إلا بإذن، وإذا بدأت فعليها الاستئذان في كل حركة.
- استخدام رجال الأعمال للجمعيات الخيرية كمجرد واجهة اجتماعية لغسيل الأموال أو يكون القصد من تأسيسها مقتصرًا على الترويج لهم سياسيًّا وإعلاميًّا.
- عدم القدرة على إدارة التطوع في الجمعيات، ما أدى إلى حالة العجز عن جذب متطوعين، وإذا حصل جذبهم يتم استنزاف طاقاتهم، أو يتم السماح لهم بالنزول إلى العمل بلا تدريب أو تمكين أو حماية.
- عدم وجود أنظمة واضحة لمحاسبة أو مكافأة الأعضاء والمتطوعين.
- انعدام الرؤية من إدارة الجمعيات في الحصول على تمويل بطرق مبدعة يكفي أنشطتهم، مثل عمل مشروعات اقتصادية يتم تخصيص جزء كبير من أرباحها للأنشطة الخيرية.
- توقف عمل الجمعيات على دور (إطفاء الحرائق)، في تسكين الطوارئ وتوفير احتياجات الدواء والغذاء والسكن والكسوة، وعدم التفكير في دعم مشروعات تنموية تمنع المرض والجوع والفقر والعري، أو حتى تعمل في ملفات غيرها لا تقل أهمية عنها في دعم الفئات المهمشة.
- ضعف ثقافة التطوع بشكل عام في المجتمع.
- عدم تقدير أولويات المشكلات في اختيار ملفات العمل الخيري.
- التضييق السياسي والتشريعي والتجاهل الإعلامي لعمل الجمعيات الناشطة.
- الاستغراق في العلاقات الشخصية من إدارة الجمعيات والمتطوعين، ما يؤدي إلى تعليق العمل بالأشخاص لا بالقيمة.

- غياب التنسيق بين الجمعيات، أدى إلى تشجيع امتهان النصب وادعاء العوز والفقر للاستفادة من كل جمعية على حدة.
- فساد بعض إدارات الجمعيات الخيرية أدى إلى فقدان الثقة في هذه الجمعيات وفي العمل التطوعي المؤسسي بشكل عام.
- اعتماد أسلوب اقتصاد الكرتونة، الذي يقوم بصورة أساسية على التبرعات والصدقات من أهل الخير، تُضاف إليها تبرعات مقدمة من مؤسسات رسمية (مثل الجيش والشرطة ووزارات الأوقاف والتضامن الاجتماعي وبيت الزكاة التابع للأزهر الشريف وغيرها) وتوزيعها على الفقراء، ولا يؤدي ذلك في المدى القصير أو المتوسط أو الطويل إلى تغيير جوهري في مستوى معيشة هذه الفئات.[1]

بشكل عام، فإن منطق التنمية في عمل الجمعيات الغائب، إذا تم اعتماده يمكنه نقل العمل الخيري من فكرة التوزيع والمُحاصصة إلى فكرة التنمية البديلة والمستدامة، التي يُقصد بها تمكين الفقراء. هذه الفكرة قائمة في الأساس على الثقة بأن كل إنسان لديه قدرات كامنة يمكن تعزيزها وتوظيفها متى توافرت الفرصة، بحيث يمتلك الفقراء مستقبلهم ومواجهة أي عملية انقطاع في الإمداد والدعم لسبب أو لآخر، كما تشتمل على نظرة إنسانية إلى الفقراء، تؤكد على أن الفقر ليس قدرًا عليهم، وإنما له أسبابه التي يمكن إزالتها.[2]

هذه الأسباب وغيرها ونتائجها في ضعف كيانات العمل الخيري والأهلي لا تدعو إلى الإحباط بقدر ما تدعو إلى أهمية مراجعة المسؤولين بها فلسفتهم الإدارية وخططهم التنفيذية واستراتيجيتهم الإعلامية، ودعوة القوى الشعبية والسلطات بتبني سياسات أكثر رشدًا؛ فتعديل السياسة الصحية للدولة (مثلًا) هو الأولى والأفضل من جمع التبرعات لإقامة مستشفيات بهذا الشكل المستمر والمستفز في

(1) اقتصاد الكرتونة ومأزق التنمية في مصر، عبد الخالق فاروق، موقع الميادين.

(2) الموسوعة العربية للمجتمع المدني، أماني قنديل، ص100.

وسائل الإعلام، كل هذا حتى يعود إلى العمل التطوعي بريقه وتأثيره من جديد للحفاظ على ما تبقى من إنسانيتنا.

العلاقة غير المستقرة بين الدولة والمجتمع المدني

العجيب المتكرر في الأسباب السابقة أن أغلب الدول العربية تزداد بها مساحة وشدة مثلث الحاجة (الفقر، المرض، الجهل)، كما يشير الإطار الاستراتيجي العربي للقضاء على الفقر الصادر من جامعة الدول العربية عام 2019 الذي يؤكد أن 66 مليون شخص – أي ما يعادل 19.2 ٪ من العرب – يعانون الفقر متعدد الأبعاد، ويُصنف 116 مليون شخص – أي ما يعادل 40.6 ٪ من العرب – ضمن الفقراء.[1] ومع ضعف الدول والحكومات في تلبية الاحتياجات الأساسية، إلا أنها لا تُشجع بشكل كبير العمل الأهلي والخيري والتطوعي من خلال تسهيل وتيسير عمله في النشأة والنشاط والاستمرار، بل غالبًا ما تعرقل تأسيسه ووجوده وعمله وتضيق على العاملين به، بل وصل الأمر بدولة مثل تونس إلى منع وتحريم إنشاء الأوقاف العامة والخاصة الخيرية والأهلية والمشتركة.

ربما كان السبب في ذلك أنه إذا أعطت الدولة (الرخوة) الحرية للمجتمع المدني فإنها تخشى أنه سيكون قادرًا على تدريب وتعليم الشعب مبادئ الديمقراطية الحقيقية التي تقوم على مشاركة الجماهير في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، باعتبار أن المجتمع المدني هو الباب الكبير لتعلم هذه الممارسة والمبادئ، بالإضافة إلى الإدارة الرشيدة والشفافية والمحاسبة، وتنمية روح النقد والمُساءلة لصانعي القرار، وتداول الجلوس على كراسي الإدارة، والتدريب على قبول التعددية واستثمارها بشكل ينفع المجتمع ويعبر عن حياته ووعيه؛ فلا معنى لتعددية سياسية بلا تعددية اجتماعية حقيقية، ولا مجتمع أهلي ولا تعددية اجتماعية

(1) الإطار الاستراتيجي العربي للقضاء على الفقر، 2019.

حقيقيتان بلا وجود مجتمع حر وحي، يعرف كيف يعيش ويمارس ثقافة الحرية وكيف ينظم تدافعًا سلميًّا للمصالح الصغرى في هذا المجتمع.[1]

حتى إذا تم السماح بعمل المجتمع المدني؛ فإن احتكار السلطة العربية للحياة العامة باسم الدولة أدى إلى تمييع العمل العام عن طريق السيطرة على كل أنشطة المجتمع. حيث تعمل الحكومات على تأسيس بعض الجمعيات (غالبًا يقوم بها أفراد من خارج السلطة أو موظفون متقاعدون) تبدو في ظاهرها وكأنها في الخدمة العامة، بينما هي زوائد تابعة للسلطة تعيش على التمويل الرسمي، وخاضعة للرقابة والتوجيه في كل أعمالها. وقد تغض السلطة أيضًا طرفها عن جمعيات تقوم بدور كبير في المساعدة الاجتماعية في بعض الظروف الاقتصادية الصعبة أو الكوارث طالما لا تقترب من العمل السياسي أو حتى الحديث السلبي عنها، وإلى أن تتجاوز هذه الجمعيات الخطوط الحمراء (التي لا يعرفها إلا السلطة) تنقض عليها بأجنحة البطش بحجة حفظ أمن وسلامة البلاد وسيادة الدولة.[2]

الواقع يقول إنه لا تبدو الدولة القطرية العربية في معظم حالاتها قادرة على لعب دور الحاضنة للمجتمع المدني، وذلك لقصور يتعلق بظروف نشأتها من ناحية (يمكن مراجعة كتاب الدولة المستحيلة لـ وائل حلاق، للتعرف على إشكالية النشأة والتكوين التي ثبت نظريًا وعمليًا أنها بلا أخلاق ولا قيم)، وبالمتغيرات التي طرأت عبر مسيرتها، وفي فلسفة علاقتها ودورها مع المجتمع ككل، وهل الدولة (السلطة) من يقوم وينظم الخدمة العامة أم لا، وإذا سمحت للمجتمع المدني بالقيام بدور مستقل عنها (يجعله يستحق اسمه) هل تكون الدولة مستقرة أم سيؤدي إلى خلخلتها، وهل إذا حدث خلاف بينهما هل يكون الانتماء للمجتمع أم للسلطة؟، لذلك فالمجتمع المدني العربي يعاني حالة اللاحرية في التنظيم والسماح بالعمل في المطلق، إلا بخرائط وأجندة وسقف وملفات معينة تسمح بها الدولة الإقليمية،

(1) العمل الأهلي حياة الأمة: تجربة الإمام محمد عبده، مجدي سعيد، ص4.

(2) المجتمع المدني والدولة المعاصرة، سابق، ص69.

وهذه الخرائط قد تتغير من وقت إلى آخر حسب رؤية الدولة لا حسب حاجة المجتمع. من ذلك أيضًا القوانين واللوائح المنظمة لعمل المجتمع المدني في أغلب البلاد العربية التي تفرض رقابة مسبقة عليها، وتعطي الحق المطلق للحكومات في تسجيل إنشاء الجمعيات والمنظمات الأهلية، والرقابة عليها والتدخل الإداري في عملها وإلغائها وحلها بلا الرجوع إلى القضاء.[1]

تزداد حدة التضييق عندما يعمل المجتمع المدني في ملفات لها علاقة بالحقوق أو بسياسات الشفافية أو المطالبة بها، ببساطة لأن الشفافية تكشف الفساد العام الذي يؤثر في الفقراء بشكل مباشر؛ لأنه يزيد من كُلفة الخدمات العامة، ويهبط بجودتها وبنوعيتها ومستواها، ويقلص قدرة الفقراء في الحصول على الاحتياجات الأساسية للحياة مثل المياه والتعليم والرعاية الصحية، ويشوه علاقات الفقراء وثقتهم بالمسؤولين، ويؤثر بشكل غير مباشر عبر عرقلة النمو الاقتصادي وتكريس عدم المساواة وتقنين الظلم في توزيع الإنفاق العام. ومن وسائل عدة يقف الفساد عائقًا أمام تخفيف حدة الفقر؛ فالتجارب تقول إن الفقراء يدفعون نصيبًا من دخولهم على الرشوة أكثر من الأغنياء، ويعتمدون على الخدمات العامة أكثر من الأغنياء.[2] وبالجملة فإن كل هذه الممارسات إذا تمت مواجهاتها وتم القضاء على الفقر، سيخسر الفاسدون في السلطات العربية ورقة انتخابهم الكبيرة التي يلعبون بها في كل دورة انتخابية، وسيفقدون سبب وجودهم الأكبر في المشهد العام.

من هنا، أصبح نشاط المجتمع المدني خطرًا على الدول والأنظمة الفاسدة، وإن كان فيها المواطن يتجرع عذاب توفير احتياجاته الأساسية، في ظروف كهذه يكون الطبيعي ألا يفكر هذا المواطن في توفير احتياجات غيره، وإذا فعل ذلك فقد يُعرض نفسه لخطر الملاحقة، فأصبح الانكفاء على الذات والأسرة والقبيلة هو الحل وطبيعية الحياة. إلا أنه بعد ثورات الربيع العربي قررت بعض الأنظمة العربية إعطاء

(1) المجتمع المدني بعد الثورات، أماني قنديل، مجلة آفاق سياسية، القاهرة، العدد 13، 2014، ص74.

(2) الفقر في الوطن العربي، تحرير: أحمد السيد النجار، ص79.

دور للمجتمع المدني للعمل في غير المجالات السياسية أهمها المجالات الخيرية، التنموية، الثقافية، التعليمية، الفنية، الصحية، وكل ما هو متعلق بدعم الفقراء وذوي الاحتياجات الخاصة والمسنين ودعم المناطق والقرى الريفية والمناطق النائية والعشوائية ودعم المستشفيات والمدارس ومساعدة اللاجئين، بحيث يتم استيعاب وتنفيذ البرامج التي لم تعن بها الحكومات؛ فرأت هذه الأنظمة أن هذه البرامج تحتوي طاقة الفاعلين الاجتماعيين وتمرر الغضب على هيئة فاعليات اجتماعية غير مضرة للأمن العام.[1]

ثقافة السوق وطغيان الفردية

العمل التطوعي قبل أن يكون مُمارسة فردية هو في الأساس ثقافة وفكر عام، ولكي ينمو ويُسهم في التنمية لا بد من وجود ثقافة مجتمعية تُقدر التطوع وتحث عليه.[2] ومع عظيم الأسف أدت ثقافة السوق وانتشار القيم الرأسمالية إلى ترسيخ الخلاص الفردي، خاصة مع تحول وسائل الإعلام المختلفة إلى منابر تسويقية تعمل على نفسية المشاهد بشكل لا واعي، للترويج لمنتجات استهلاكية تدفع الخيال بقوة باتجاه رفاهية حياته الخاصة، ويبقى منشغلًا دائمًا بملاحقة الجديد المتحرك من سلع (الموضة). هنا يُعاد تعريف الإنسان على أنه مستهلك فقط، بينما تسقط كل معاني وقيم المشاركة العامة ويسقط معها أي معنى لوجود ترابط عام في مجتمع إنساني بمعناه الحقيقي، مع تأكيد هذه المنابر على أن الفرد ليس له علاقة بنفع غيره، فقط يهتم بنفسه ورغباتها.[3] حتى العمل ذو القيمة الأخلاقية العامة مثل التدريس والطب والعمل الديني، تم تسليعهم، وأصبح كل شيء قابل لاستخدامه وسيلة للتربح والترقي الخاص، مع توسع الشركات الاقتصادية العملاقة عابرة القارات التي جعلت المتعة الفردية هي القبلة، وأصبح السعي لاكتساب المال والجاه

(1) المجتمع المدني والدولة المعاصرة، أحمد شهاب، ص 86.
(2) التطوع وإدارة المتطوعين، هشام الروبي، ص17.
(3) رأسمالية الكوارث، أنتوني لوينشتاين، ص373.

والسلطة هو النجاح، أما العمل التطوعي فلا يأتي ذكره في مناخ يُرسخ لعبودية الذات والموضة والثروة والصورة.

يزداد الوضع سوءًا مع وجود ثقافة شعبية غريبة يتم استدعاؤها عند الحاجة إليها، من أقوالها: إللي يحتاجه البيت يُحرم على الجامع، حط راسك بين الرؤوس ونادي يا قطاع الرؤوس، القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود.. إلخ، استدعاء هذه الثقافة الرثة لا يناسب قيام مجتمع مدني حقيقي قائم على الإنسانية والعدالة وروح الخدمة العامة. فقط في المجتمعات التي تتجذر في ثقافتها روح الفعل الجماعي يمكن نشأة وازدهار تنظيمات اجتماعية فاعلة؛ لأنها تملك صفة أساسية وهي التوافر العام لفكرة التكافل والتضحية ومساعدة الآخرين.[1]

شيوع ثقافة العجز وقلة الحيلة

أصبح من المعلوم بالضرورة أن الأنظمة العربية السائدة (ليس فقط الأنظمة السياسية) هي أنظمة غالبة ومُغرِبه تحيل أفراد الشعب إلى كائنات عاجزة؛ فصار الشعب العربي مغلوبًا على أمره، مُستلبًا من حقوقه وممتلكاته المادية والمعنوية ومنجزاته ومؤسساته، ومُهددًا في صميم حياته وكيانه؛ لذلك فقد المجتمع سيطرته على موارده ومصيره بتهميشه والحد من مبادراته ومشاركته الاجتماعية من خلال المؤسسات والجمعيات والاتحادات والنقابات والأحزاب ومختلف الحركات المستقلة.[2]

وكان للأسرة العربية مشاركة في ترسيخ هذا الاستبداد في طرق تربيتها لأبنائها؛ فهي بشكل عام لا تسمح لطفلها سوى بمجال ضيق لتحقيق الاستقلالية الذاتية؛ فينشأ عند الطفل الشعور بالعجز والميل نحو الاتكالية والهروب من التحديات وصناعة أي تغيير، ويقتصر الشعور بالمسؤولية لديه على نفسه وعلى أسرته في

(1) إشكالية المجتمع المدني العربي (بتصرف)، صالح السنوسي، ص76.
(2) الاغتراب في الثقافة العربية، حليم بركات، ص94 – 96.

أحسن الأحوال، ويصبح المجتمع لديه مجرد فكرة مجردة.[1] ما جعل المجتمعات العربية تنتشر فيها ثقافة العجز والخوف والعزلة، التي تُولِّد فقدان روح الفعل الجماعي ثم فشل أو عدم فاعلية المبادرات العامة.

الطائفية والمذهبية وعرقلة المجتمع المدني

اعتماد البنية الاجتماعية العربية في الغالب على الطوائف والمذاهب والإثنيات والعصبيات القبلية والطبقية والجهوية، منعت وجود مجتمع مدني حقيقي، الذي يلزمه حياة مدنية لا تهيمن عليها الطائفية؛ فحتى لو ظهر مجتمع مدني في هذه الأجواء، سيكون مجرد أداة لتقوية عصبة مقابل عصبة أخرى، وسيكون إحدى وسائل تقوية العنصرية والفرقة، ما يعني أنه سيكون أداة في الصراع لا في تحسين حياة الناس، وهكذا يفقد صفته واسمه.

ومن عجائب التاريخ والجغرافيا وجود هذا التعصب في بلاد العرب، ليس فقط لأن الإسلام بنصوصه وتراثه يوحدهم، والعروبة بأدبياتها وتاريخها تجمع شتاتهم، لكن لأن التنوع هو ما صنع مجد العرب؛ فلم يكن التعصب والتطرف القومي دينهم، بل بفضل الانفتاح والاختلاط والتزاوج والهجرات أسهم الجميع في صنع الحضارة العربية، حتى كان لغير العرب دورهم الكبير والفذ، مثل البربر والفرس والأتراك والأكراد والنوبيين وبقية الطيف الواسع من المجموعات اللغوية، لكن التطرف القومي وعزوف النخب عن الاهتمام بالتنوع وقراءته والتعريف به، أدى إلى تضخم الأنا والتماهي مع اللامعقول، وحين يرى العربي نفسه في التنوع المدهش في بلده ويعمل على إشاعة هذه الثقافة، حتى يصبح غير العربي يرى نفسه في العربي الشريك، حينها نعرف كيف نهزم التطرف والإرهاب والطائفية والتسلط وكل أمراض مجتمعاتنا التي رزحت كثيرًا تحت هذه الأوبئة الفتاكة.[2]

(1) المجتمع العربي المعاصر، حليم بركات، ص222.

(2) اغتيال الهوية، باسم فرات، ص48.

التشكيك في نوايا العمل الأهلي

يعد خطاب التشكيك شائعًا في (نوايا) المجتمع الأهلي خاصة في دول العالم الثالث، ويعد أحد معوقات العمل العام واستمراره وتنميته والقيام بدوره المتوقع منه، ويزداد الأمر إذا كانت المؤسسات تعمل في ملفات لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالسياسة العامة مثل ملفات حقوق الإنسان والتعليم والتنمية الاجتماعية عمومًا.[1] ويزداد الأمر سوءًا في بيئة تتنافس فيها الكيانات على رضا المسؤولين لتتحرك الوشاية على مكاتبهم وتصل أخبار الفضائح إلى الجمهور، رغم أن أغلبها أوهام مؤلفة، لكنها في مجتمع سلبي تلقى ترحيبًا مع شيوع ثقافة العجز، كنوع من الدوافع النفسية العامة لـ اللاحركة.

إدارة العمل التطوعي

غالبًا ما يعتمد العمل في المؤسسات الخيرية العربية على النوايا الحسنة، وفي أحسن الأحوال على فكرة التجريب والتعلم من الخطأ واعتماد التجربة الخاصة بالمؤسسة، بلا التفكير في الاستفادة من تجارب عمل المؤسسات الأخرى في الداخل والخارج، والإصرار على إعادة اختراع العجلة. إضافة إلى عدم الاهتمام بتطبيق إدارة تطوعية علمية، بحيث تقوم بدراسة المشروعات والبرامج بشكل كاف، ودراسة جدواها بناءً على نظريات ونماذج قياس الأثر الاجتماعي (Social Impact) التي أثبتت كفاءتها، وتساعد في تجنب المؤسسة عمليات الهدر المادي والمعنوي والوقت في برامج عديمة أو ضعيفة الجدوى، في حين يمكنها ضخ نفس الجهد والتكلفة في برامج يمكنها صناعة تغيير حقيقي، مع مراجعة تصميم التعريف الخاص بالمؤسسة وتدقيق أهدافها ورسالتها، وتكون البرامج وإعلاناتها وطلب التبرعات والدعم يحدث بشكل مدروس، وتكون الوعود في الإعلانات تناسب قدرة المؤسسة على تحقيقها، ويكون الإعلان يجمع بين الاحترافية والمهنية ليتجنب إثارة مشاعر

(1) الدور السياسي الثقافي للقطاع الأهلي، أحمد ثابت، ص 8.

الغضب من الحالات المستحقة، واستهجان شرائح الجمهور والمتبرعين بسبب عدم مناسبة عرض بعض الصور أو المشاهد المعروضة أو تكرار الإعلانات في وقت قصير أو إظهارها في أماكن غير مناسبة.

يحدث هذا التصحيح عبر الاستفادة من مبادئ إدارة التطوع والمتطوعين، التي من خلالها يتم وضع برامج وخطط لا تكتفي بالإجابة عن سؤال كيف نعمل، بل تنتقل إلى أسئلة أكثر جودة مثل: لماذا نعمل، ولمن نعمل، ومع من نعمل، وأين نعمل، ومتى نعمل، كيف نستمر، ومتى علينا أن نتوقف؟.

بالإجابة على هذه الأسئلة يمكن جذب متبرعين بتمويل كاف، والتشبيك مع مؤسسات معنية ومهتمة بالتعاون، واستقدام متطوعين مناسبين للمساعدة في تنفيذ البرامج، وتدربهم ليتم التأكد من قيمهم ومهاراتهم في ميدان التنفيذ، وتشجيعهم على الاستمرار في العمل وتجويد المهام عبر منح بدل الانتقالات وبدل الوجبات والتكفل بتسكين المغتربين منهم، ومشاركتهم في وضع الخطط ولو على سبيل الاسترشاد بآرائهم، وتكريمهم بعد الانتهاء بالشكل المناسب والمتاح.

تبحث الإجابات أيضًا بشكل علمي عن الحالات المستحقة بعيدًا عن الأهواء والتحيزات، وأفضل الطرق لدعمهم، ومتابعة مدى استفاداتهم من هذا الدعم بعد فترة مناسبة لتقييمه، وحل مشكلات استدامة الاستفادة القصوى منه، وتأهيل هذه الحالات ما أمكن للاعتماد على أنفسهم والخروج من بؤرة الفقر. تشمل هذه الإدارة أيضًا بيان حقوق وواجبات المتطوع ومحاسبته وحمايته وتقديره ومكافئته، كذلك متابعة المتبرعين بما تم وسيتم بفضل تبرعاتهم (في السويد، بعد تبرع مواطن بالدم، تأتيه رسالة شكر عبر هاتفه فور تبرعه، كذلك تصله رسالة شكر بعد كل مرة يتم استخدام الدم الذي تبرع به)، كل ذلك يحدث في جو إيجابي يجعل المتطوع والمُستفيد والمتبرع يشعرون بالامتنان لهذا العمل الجاد والمُجدي للمجتمع.

ضرورة التشبيك بين المؤسسات

المتابع لأنشطة الجمعيات والمؤسسات الخيرية، خاصة في العالم العربي، يمكنه الملاحظة بسهولة تشابه البرامج التي يعملون بها لدرجة التطابق أحيانًا، ما يجعل ملفات وبرامج غيرها لا تقل أهمية في طي النسيان، وغالبًا ما تكون هذه البرامج الشائعة هي علاج أو إطعام الفقراء، بحكم تأثيرها على مشاعر الجماهير وشرائح المتبرعين، وكأنها تقدم ما يطلبه الجمهور، مع علمهم أن هناك مئات الملفات التي لا تقل أهمية مثل المشروعات المستدامة التي تقضي على الجوع والفقر والمرض والجهل، وتُنهي أو تقلل الحالات الفردية التي تحتاج إلى الطعام أو العلاج، كذلك ملفات ضرورية مثل الدعم الاجتماعي لأهالي وأطفال المسجونين، والدعم النفسي والعملي للسجناء السابقين، الدعم الثقافي لأطفال القرى النائية، الدعم المعرفي للمتسربين من التعليم، ومثل هذه المشروعات المهمة كثير، يكفي أن نعرف أن في لندن جمعية تعمل منذ سنوات في نشاط واحد فقط وهو حشد المتطوعين لتنفيذ برنامج (ساعة شاي) لزيارة المسنين الذين تجاوزوا 75 سنة، للحديث معهم بعد إعداد فنجان شاي لهم ومؤانستهم في وحدتهم

مع التشابه في البرامج، لا يوجد تشبيك بين هذه المؤسسات لأسباب سياسية وثقافية ونفسية متنوعة؛ فقدرة المجتمع المدني العربي على التعاون وتأسيس التحالفات والتوافقات وإدارة الاختلافات ضعيفة جدًّا، بسبب طغيان العمل الفردي والتنافس الحاد والاختلاف الأيديولوجي.[1] ما يجعل تأثير هذه المؤسسات على المستوى العام أضعف، كما يجعل فرص الفساد أكبر؛ لذلك ظهرت مؤخرًا في مصر كيانات تشبيك وتعاون مثل الاتحاد العام للجمعيات والمؤسسات الأهلية، والتحالف الوطني للعمل الأهلي التنموي (ظهرت قوته في الحشد والتعبئة للتبرعات أثناء الحرب على غزة: أكتوبر 2023)، إضافة إلى إطلاق معمل مصر لقياس الأثر الاجتماعي (Egypt Impact Lab)، والأخير مشروع مشترك بين مجتمع عبد اللطيف جميل لمكافحة الفقر ومؤسسة ساويرس للتنمية وبتمويلهم

(1) دليل التمكين القانوني للفقراء، محسن عوض وعلاء شلبي ومعتز بالله عثمان، ص216.

مع وزارة التخطيط والتنمية الاقتصادية الذي يعمل المعمل داخل مؤسساتها، وعربيًّا ظهرت الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، وما زالت فاعليتهم يُنتظر منها الكثير.

تأتي أهمية التشبيك ليس فقط لتيسيره إنجاز المهام بشكل أسرع وأكثر جودة، لكنه أيضًا يؤدي إلى وجود كيان وطني يشرف عليه، ويضمن الشفافية والنزاهة وكسب رضا المتطوعين والمتبرعين والداعمين والمتابعين له، كما ينتج أجندة موحدة لإنجاز المهام المطلوبة والمتابعة وتحديد الأولويات المتفق عليها لتنفيذها، كذلك صناعة مؤشرات موحدة لمعايير الإنجاز به.[1] ما يجعل العمل الأهلي على خط التنمية المستدامة بشكل أوثق.

استبعاد القيادات الشابة في عمل المؤسسات

غالبًا ما كانت النمطية والتكرار هو أسلوب كثير من الجمعيات والمؤسسات الأهلية، بسبب سياسية كبار السن الإدارية التي تتجاهل وجود الشباب معهم في التخطيط والتنسيق، وهذا الأمر شائع في الجمعيات الأهلية في دول العالم الثالث؛ حيث أكدت دراسة أجراها مركز خدمات التنمية على 1200 جمعية تبين أن 73 ٪ من أعضائها فوق 50 سنة، وأصغر أعضائها لا يقل عن 35 سنة.[2] وغالبًا ما يرجع الأمر إلى غياب الثقة في القدرات الإدارية للشباب والاقتصار على تكليفهم بمهام تنفيذية، مع شيوع التوريث الإداري لأفراد من العائلة أو العشيرة.

احتكار المدن والعواصم للمؤسسات الأهلية

يُلاحظ في المؤسسات الأهلية العربية أنها تنمو في تناسب طردي مع المستوى الاجتماعي والثقافي لمجتمعاتها؛ فيكثر وجودها في العواصم والمدن الكبرى أكثر من الريف الذي يحتاج أكثر من المدن إلى التنمية والرعاية والإغاثة والدعم، ثم

(1) الدور التنموي والتربوي للجمعيات الأهلية والتعاونية في مصر، سابق، ص209.

(2) دور المجتمع المدني، سابق، ص110.

إن قطاعات الريف في كل الدول هي الأكثر في المساحة والعدد، وبالتالي مُسببات العمل الخيري والأهلي بها أكبر وأشد. لهذا قد يسهم التوزيع غير المنضبط لوجود هذه المؤسسات وقلتها أو غيابها عن الريف في تكريس وزيادة التمايز وعدم التكافؤ بين الريف والمدينة، ما يزيد الهجرة من الأرياف والقرى إلى المراكز والمدن والعواصم، هنا تحدث الكارثة أو تزيدها، وهي الزيادة السكانية التي لا تتناسب مع البنية التحتية وفرص العمل في المدن؛ فتظهر العشوائيات على أحزمتها ثم تتوغل داخلها، إلى أن تنهار فيها فكرة المدينة وتدخل العناية المركزة، هنا بالكاد يكون للعمل التطوعي أثر أو تأثير.

طغيان التطوع الافتراضي

مع أن شبكات الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي قلصت المسافات بين أنحاء العالم، وزادت وسهلت التواصل والعلاقات بين أفراد وفئات بشكل لا يُستهان بتأثيره في المجتمعات، لدرجة قيام ثورات الربيع العربي معتمدة عليها، ويسرت هذه الشبكات ظهور عدد كبير من المبادرات الاجتماعية، وتعتمد عليها المؤسسات الخيرية بشكل أساسي في الحشد وجمع التبرعات وحملات المناصرة. ويمكن لأحدهم وهو في قرية نائية من جنوب العالم أن يجمع متطوعين ومناصرين وتبرعات لقضية ما من شماله وغربه وشرقه، لكن نتائج كل ذلك لا تبدو أنها تصب في قناة الفعل الجماعي المنظم والمؤثر والمستدام خاصة في عمل المجتمع المدني العربي.

على صعيد التواصل بين هذه الفئات، لم يُنتج استخدام المواقع الاجتماعية سوى ظواهر النضال الافتراضي وعمل الخير الافتراضي والمجتمع المدني الافتراضي، واقتصر الأمر غالبًا على تبادل الآراء والنصوص حول المجتمع المدني وفعل الخير. ومن أهم مظاهر ذلك أنه بين الحين والآخر ستجد أحدهم على أحد تطبيقات التواصل الاجتماعي يرسل رسالة خيرية تحتوي على أسماء أطباء وأماكن تكشف وتعالج المرضى الفقراء مجانًا مع بيان أرقام التواصل معهم، بلا أن يفكر المرسل الذي ينسخ ويلصق ويرسل في أن يتثبت ويتأكد من صحة هذه المعلومات أو

الأرقام، فمنذ سنوات يتم تداول هذه الرسائل وعند الاتصال بأرقام الهواتف الموضحة يتبين أن كلها خارج الخدمة أو أنها أرقام غير صحيحة أو وهمية، ومع ذلك يتم نشر الرسالة منذ سنوات إلى اليوم، ببساطة لأن المرسل يشعر بنوع من راحة الضمير في هذا الإرسال السهل، ليعوض حالة العجز وفقدان روح الفعل.

إنه الخير الافتراضي السريع الذي لا يكلف وقتًا ولا مالًا ولا جهدًا؛ لذلك فهو بلا جدوى ولا تأثير حقيقي، بالعكس يؤدي هذا التسرع في أن تقع هذه الرسالة لدى مريض يضع أمله في أي نور يأتي، تخيل كم الإحباط والحزن الذي قد تسببه مثل هذه الرسالة له ولأهله، إضافة إلى احتمالية وجود روابط مقرصنة أو ضارة تُرسل بدعوى عمل الخير، أو تداول أرقام هاتفية على أنها لفاعلي خير ويتبين أنها أرقام تخص أشخاص غير معنيين بالأمر تم وضع أرقامهم لإزعاجهم لسبب ما. مثل هذه الظاهرة تصنع أجيالًا تعتمد فعل الخير في مشاركة الأخبار والرسائل الخيرية عبر المواقع والتطبيقات، ثم تتكاسل في أي حركة إليه، **هذا النوع من عمل الخير الافتراضي السريع جعل المجتمع كله دالًّا على الخير.. لكنه ينتظر فاعله!**

الـلاجـئـون

هول الفواجع وضعف المُعين

أصعب ما يمكن أن يكتب عنه كاتب جرح ينزف
ولا يعرف أحد متى وكيف سيتوقف؟!

عندما يتهدد الناس بالقتل والتنكيل والفقر والأزمات والنزاعات والإهانة والكوارث البيئية وتغيب الفرص المستقبلية في أوطانهم، يكون الهروب منها هو الحل، حتى لو كان هروبًا إلى المجهول؛ فهذا المجهول لن يكون أسوأ من واقع قاتل، من هنا تظهر مشكلة اللجوء.

يُعرف اللاجئ وفقًا لاتفاقية جنيف لعام 1951، بأنه أي شخص يخشى أو يخاف التعرض للاضطهاد لأسباب تتعلق بالعرق أو الدين أو الجنسية أو الانتماء إلى مجموعة اجتماعية معينة أو الرأي السياسي، ويكون خارج القطر الذي يحمل جنسيته، وهو غير قادر على الاستفادة من حماية بلده، أو غير راغب بسبب هذا الخوف. وتُعرِّف المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين طالبي اللجوء بأنهم الأشخاص الذين غادروا بلدهم الأصلي، وسعوا إلى الحصول على الحماية الدولية، وتقدموا بطلبات للاعتراف بهم كلاجئين، وينتظرون قرارًا من الحكومة المضيفة.

تمتلئ بنود الاتفاقيات ودراسات اللجوء بعشرات التعريفات الأكاديمية للجوء وأهله، لكن تتفق جميعها على أن اللاجئ هو الإنسان الذي تم إكراهه على مغادرة بلده، هربًا من الحرب أو القتل أو العنف أيًّا كان، أو تعرضه للاضطهاد بسبب

عرقه، أو دينه، أو جنسيته، أو توجهاته السياسية. وفي أغلب الأحيان لا يتمكن اللاجئ من العودة إلى وطنه مرة أخرى، فتكون هجرته ومغادرته لبلده أبدية، ويمكن لعملية المغادرة التي غالبًا ما يرافقها أمل في حياة أفضل، أن تكون محفوفة بالمخاطر والخوف، حيث يقع الكثير من اللاجئين ضحايا للإتجار بالبشر وغيرها من أشكال الاستغلال، بينما تعتقل سلطات البلد الجديد البعض فور وصولهم، وما أن يبدأ هؤلاء بالاستقرار وبناء حياة جديدة حتى يواجه العديد منهم مشكلات العنصرية ورهاب الأجانب والتمييز.

في حضرة اللاجئ، نحن هنا أمام إنسان سُلب منه كل شيء يحبه، وتم إطلاق لقب (لاجئ) عليه، وهو لقب لا يفضله أي إنسان. تخيَّل كيف سيكون أجوف تم اختزاله في المعاناة والألم والاحتياج، **مرعب أن يتحول إنسان إلى مجرد لاجئ، مجرد حالة، هذا الرعب والألم لا يطفئهما اعتذار الإنسانية له إلى يوم القيامة**. ببساطة لأنه فقد الكل، ومن يفقد الكل؛ فبشكل ما فقد ذاته، وهويته وتاريخه، ومهما حقق من نجاحات خارج أرضه، تبقى في القلب غصة لا يعرف ألمها غيره، عبّر عنها الأديب الفلسطيني مريد البرغوثي بقوله: نجحت وحصلت على شهادة تخرّجي، وفشلتُ في العثور على حائط أعلِّق عليه شهادتي.[1]

الغربة: الوحشة الثقيلة ومنبع الإلهام بالألم

كانت الغربة بما تحمله من آلام الهجرة والرحيل والحنين والحزن واللوعة والمعاناة وعدم الانتماء والتشرد والانقطاع عن الوطن، وما زالت بثقلها ووحشتها وشدتها، ملهمة بألمها لكثير من أقلام الأدباء والكُتاب على مختلف لغاتهم وجنسياتهم وأديانهم وثقافتهم، لدرجة أن ظهر بسببها تصنيف أدبي خاص يُسمى (أدب المهجر) الذي يُعد من أهم وأقوى أنواع الأدب تأثيرًا في العالم، وكانت الهجرة كذلك السبب الأساسي في تكوين روابط أدبية مثل رابطة مسرح اللامعقول في

(1) رأيت رام الله، مريد البرغوثي، ص7.

باريس (من أدباء مهاجرين عالميين)، والرابطة القلمية والعصبة الأندلسية (من الأدباء العرب المهاجرين)، يفسر هذا التأثير الكاتب البولندي جوزيف كونراد بقوله: «من لم يعد له وطن، أصبحت الكتابة وطنًا له».

وظهرت وتظهر إلى اليوم أسماء كثيرة عالمية وعربية تكتب أدب المهجر، وفكر المهجر، وبوح المهجر، منها على سبيل المثال: خوسيه غولان، نيكولا كامنسكي، أويرباخ، جيمس جويس، رافائيل ألبرتو، صوفيا ماكلينين، أوجين أوغارت، بيتر بورتي، بول تسيلان (انتحر في منفاه)، آدلبير فون شاميسون، غياتري سبيفاك، عبدالرازق قرنة، حنيف قريشي، طارق علي، إدوارد سعيد، عبد الوهاب البياتي، الطاهر بن جلون، سامي تشاك، عبد الكبير الخطيبي، نينا براوي، جورج شحاته، صادق هدايت، عبد الكريم سروش، علي رحيمي، جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، إيليا أبو ماضي، أمين الريحاني، فؤاد التكرلي، نعمة الله الحاج، أمين معلوف، فاضل العزاوي، فؤاد رفقة، محمود درويش، مريد البرغوثي، تميم البرغوثي، عبد الرحمن منيف.

وصف منيف الغربة في كتابه (الكاتب والمنفى) بقوله: «أيًّا كان المنفى، فإنه على الأقل خلال فترة معينة، قد تطول، مكان قاس وموحش، ليس لأنه كذلك في الأصل أو الواقع، وإنما لأنه مكان غريب، ولأن الوافد الجديد، المنفيَّ، غير قادر على التكيف معه، خاصة أنه يعتبر إقامته فيه مؤقتة، كما يعتبره المواطنون الآخرون، مواطني البلد، زائدًا وثقيلًا»، ووصف الأديب السوري عارف حمزة، حسرة الرحيل فقال: «رأيت حياتنا وقد حزمناها في حقيبتين».

وتحدثت الكاتبة السورية سمر يزبك عن التشرذم النفسي للاجئ من خلال تجربتها فقالت: ذات يوم وأنا أمشي في الشارع وجدت نفسي في مكان مجهول، مع أني لا أبعد سوى شارع واحد عن بيتي في باريس، نسيت من أنا وإلى أين أتجه وفي أي مكان أعيش، أخذت أتلفت حولي بلا ذاكرة ولا حاضر ولا مستقبل، كان شيء ما في رأسي يتبخر، وصرت بعد ذلك أفقد الاتجاهات في طرقات باريس، فبات

هاجسي هو مرض النسيان عندي كفرد، هل هو منفصل عن فعل النسيان الجمعي في المنفى؟! ثم صار الهاجس يتحول تمزقًا وأنا أتابع صورتنا كسوريين أمام أنفسنا وأمام العالم أجمع، إن صور علاقتنا الإنسانية التي شوهتها الحرب كانت تأبى إخراجنا من ثنائية حادة الوجهين؛ فإما أن تكون امتدادًا لجلادنا، أو أن تنحصر في هيئة أشلاء مُقطَّعة ومجموعات بشرية محطمة ناجية من المجزرة، لكنها عالقة في مرارة العيش والنجاة، وكان يُراد لهذه الصورة أن تتحول وشمًا ملتصقًا بنا.[1]

صاغ الشاعر عدنان الصائغ، بؤس المغترب شعرًا بقوله:

أيها الغريب الذي
لم يجد لحظة مبهجة
كيف تغدو المناف
سجونًا بلا أسيجة.

وتعرض الشاعر نسيب عريضة لوصف لوعة الفراق عن الوطن فقال:

يا دهر قد طال البعاد عن الوطن
هل عودة تُرجى وقد فات الظعن
واجعل ضريحي من حجارة سود
عد بي إلى حمص ولو حشو الكفن.

ولام الشاعر تميم البرغوثي الأمة العربية لانتشار مخيمات اللجوء بقوله:

خيام كموج البحر تكسو الأراضيا
حواضرنا عادت بهن بواديا
خيام بغربي الفرات وشرقه
أعدن على الناس القرون الخواليا
فيا عربًا عادت لأول أمرها

(1) تسع عشرة امرأة، سمر يزبك، ص-11 12.

أمـــا كـــان عـــهـــد الجـــاهـــلـــيـــة كـــافـــيـــا.

وفي رثاء حال اللاجئين وعجز الشعوب العربية في نجدتهم، كتب الشاعر حذيفة العرجي:

عـجـزٌ جمـاعـيٌّ عـلى منـظـومـةٍ
مـن مـارقـينَ.. وأُمّـــةٍ مُتلاشية
إن كـانَ هـذا مـا يُـسـمّـى عيشةً
بـالله كيفَ يكـونُ شكـلُ الهاوية؟
لـو لم تكـن هـذي جَـهـنّـمُ يـا أبي
فلـمَ الجميعُ عـلى الجميعِ زبانية؟
هـا قـد تـدثـرنـا بـغـير ثـيـابـنـا
وثـيـابُ هـذا الـغـيرِ دومـاً عـارية
مـا هـكـذا كـنّـا نُـريـدُ حياتنا
لـكـنّـهـا كُـتـبـت عـلـيـنـا دامـيـة
قـابـلـتُ في المنـفـى زمـانـاً هـاربـاً
مـن صفحةِ الـتـاريـخِ.. رقَّ لما بيَه
قـلـتُ اخـتَـصرْ هـــذي الحـيـاة
فقالَ لي: عينٌ على الماضي، وعينٌ باكية
في هـــذه لا ديـــن إلا مـا يـرى
الـنـمـرودُ أو أتـبـاعـهُ والحـاشـيـة
مـا دامَ هـذا الـوضـعُ فـينـا قـائـماً
فـاقـرأ عـلى الـوطـنِ الكبيرِ الجاثية.

هذه الأهوال التي يعيشها اللاجئين، والتي تنقُلها وسائل الإعلام على مدار الساعة من سنوات، وحاول الأدباء والمؤلفين والمفكرين وصف شدتها، جعلت شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب، يشير إليها في إعلان الأزهر للسلام، خاصة مشاهد موجات صفوف اللاجئين من ديارهم إلى المجهول، فقال: هائمون على وجوههم في الصحراء، وفارون من أوطانهم إلى أوطانٍ أخرى نائية لا يدرون أيبلُغُونها أم يَحُول بينهم وبينها المَوت والهَلاك والغَرَق، والأشلاء والجُثَث المُلقَاة على شواطئ البِحار، مأساة إنسانيَّة بالِغة الحُزن، لا نَعْدُو الحَقِيقة لو قُلنا: إنَّ التَّاريخ لَم يَعْرِف لها مَثيلًا مِن قَبل.[1]

دول القهر: هنا ثروات الطبيعة ومصنع اللاجئين

عالميًّا، تشهد ظاهرة الهجرة والتهجير زيادة يصفها التقرير الإحصائي للأمم المتحدة بأنها في أعلى معدلاتها في التاريخ الحديث، وأصبحت أهم القضايا الاجتماعية والإنسانية في القرن الواحد والعشرين؛ حيث أصبحت دول العالم البالغ عددها 200 دولة، هي إما دولة منشأ أو عبور أو وجهة للمهاجرين.[2] ويعد الشرق الأوسط والقارة الأفريقية من أكبر مصدري اللاجئين في العالم، وكان وما زال الصراع العربي الإسرائيلي (فلسطين، سوريا، لبنان)، والاستبداد السياسي والنزاع المسلح خاصة في سوريا، العراق، ليبيا، اليمن، السودان، الصومال، جنوب أفريقيا. كذلك العنف الطائفي والنزاعات العرقية والقبلية والكوارث الطبيعية والأوبئة، بالإضافة إلى التدخل الغربي بسياسته الاقتصادية وترسانته العكسرية في دول الجنوب، كانوا أهم أسباب اللجوء بعد تسببهم في مآسٍ ملايين المقهورين والمعذبين والمظلومين في أوطانهم وضاقت عليهم الأرض، الذين نُقل عنهم مائة رواية ومائة كتاب وفيلم، امتلأت بالألم وصراخ الضحايا ولا من مجيب، أحدهم

(1) إعلان الأزهر العالمي للسلام، 28 إبريل 2017، موقع الإمام الطيب.

(2) تقرير الشباب العربي، ص270.

من فرط الجوع والعطش كان يلعق حذاء جلاده، يلعقه ليعيش، ربما يجد عليه نملة هاربة أو مختبئة، وكتب روايته بعد أن كُتب له عمر آخر بعنوان: مذاق النعل.[1]

بشكل مباشر، تسببت الحروب والصراعات المسلحة في العالم خلال العقد الأخير، في تشريد ما يزيد عن 97 مليون شخص حسب تقارير المفوضية الدولية لشؤون اللاجئين، منهم أكثر من 35 مليون لاجئ مُغادر لحدود بلده ومُسجل لدى المفوضية، بالإضافة إلى 62.5 مليون شخص شردتهم الحروب عبر النزوح داخل بلادهم، ويُعتقد أن هناك ملايين لم يشملهم العدد ولا الحصر. وأوضحت المفوضية في تقريرها السنوي أن عام 2022 شهد زيادة في أعداد النازحين واللاجئين بمقدار 19.1 مليون شخص عن العام الماضي، وهو ارتفاع سنوي غير مسبوق، وكانت حرب أوكرانيا هي العامل الأكبر في زيادة أعداد النازحين واللاجئين عام 2022؛ حيث قفزت أعداد اللاجئين الأوكران من 27.300 لاجئ عام 2021 إلى 6 ملايين لاجئ عام 2023، وهي الزيادة الأسرع في عمليات اللجوء والنزوح منذ الحرب العالمية الثانية.

وأشار التقرير السابق إلى أن الاتجاه التصاعدي في معدلات النزوح القسري لم يُظهر أي تراجع عام 2023 بسبب اندلاع الصراع في السودان، هذا الصراع أسفر عن موجات نزوح جديدة، ليرتفع إجمالي عدد النازحين واللاجئين في العالم حسب إحصاء مايو 2023 إلى 110 ملايين شخص. وطبقًا للإحصائيات العالمية يضطر 24 شخصًا في كل دقيقة إلى الفرار من منازلهم بسبب الاضطهاد أو العنف أو انتهاك حقوقهم الإنسانية، حتى خلال عملية الهجرة والنزوح، يلقى الكثير من هؤلاء حتفهم؛ فقد تم تسجيل غرق 5 آلاف لاجئ في البحر الأبيض المتوسط خلال عام 2016، ما يعني 14 شخصًا يموتون يوميًّا، غير من أوشك على الموت وتم إنقاذه بصعوبة وخاض تجربة كالموت، وهؤلاء بلغ عددهم (16206) شخص تم إنقاذهم من قبل خفر السواحل الإيطالية في عام واحد فقط 2017.

(1) حذاء فلليني، وحيد الطويلة، ص43.

بمناسبة البحر المتوسط، فهذا البحر يكثر ذكره في ملف اللاجئين باعتباره الطريق الأكثر ازدحامًا لعبورهم، خاصة من الدول العربية والأفريقية إلى أوروبا؛ ففي 2018 تم تسجيل أكثر من مليون ونصف (1.54416) لاجئ وصلوا إلى دول أوروبا عبر المتوسط خاصة ألمانيا، أكثرهم من السوريين فضلًا عن لاجئين من العراق وأفغانستان وإريتريا والصومال وغرب أفريقيا، وتشير التقارير الدولية إلى أنه في عام 2016 مات غرقًا (5794) شخصًا على الأقل خلال محاولتهم عبور المتوسط من ليبيا، بمعدّل حالة وفاة واحدة من كل 40 شخصًا قاموا بالمحاولة، وسجلت المفوضية أكثر من (2500) حالة ما بين وفاة وقتل وفقد للمهاجرين في البحر المتوسط حتى نهاية سبتمبر 2023، مقارنة بـ(1680) حالة في عام 2022.

الغريب أن كل الدول التي تُصدر اللاجئين إلى العالم هي دول غنية بالموارد، يمكنها بُحسن سياسة إدارتها وتوزيع عادل لثروتها جعل مجتمعاتها من أغنى مجتمعات الأرض؛ فمثلًا دولة أفغانستان التي صدرت 6 ملايين مُشرد، بينهم 2.2 مليون خارج بلدهم، يعيش أغلبهم حياة بائسة، وصفتها (منظمة إغاثة جوعى العالم الألمانية) في بيانها منتصف أغسطس 2023 بأنها (مأساوية)، وأكد البيان أنه برغم توقف حالة الحرب، ما زال هناك 17 مليون شخص مهددين بالجوع، ويعتمد 29 مليون شخص هناك على المساعدات الإنسانية، ويمكن رؤية بوؤس المعيشة في كل زاوية وشارع، في حين أن أفغانستان تقع فوق منجم ذهب يفوق احتياطي الذهب في كل من أستراليا وكندا وأمريكا اللاتينية مجتمعين، وحسب تقرير الجمعية الجيولوجية الأمريكية 2010، فإن أفغانستان لديها ما قيمته تريليونات الدولارات من الموارد الطبيعية.[1]

كذلك دولة الفلبين، التي هاجر منها 10 ملايين مواطن للعمل في وظائف ومهن في غاية البساطة، أغلبها في خدمة البيوت في العالم، تمتلك دولتهم موقعًا رائعًا وجمال طبيعة يؤهلها لتكون الوجهة السياحة الأهم عالميًّا، كما تعد الفلبين من

(1) رأسمالية الكوارث، أنتوني لوينشتاين، ص67.

أهم مكامن الذهب والنيكل والنحاس والبلاديوم والكروميت والفضة والفحم والجبس والكبريت، ولديها مكامن ضخمة من الطين والحجر الجيري والرخام والسيليكا والفوسفات، ثروات مهولة إذا رشدت سياستها تجعلها تستدعي العمالة الأجنبية للعمل لديها مع السكان المحليين بدلًا من لجوء أهلها. الأمر نفسه ينطبق على سوريا وليبيا والسودان وباقي دول أفريقيا في امتلاكهم الهائل لمكامن البترول والفوسفات والملح الصخري والحديد والكروم والذهب واليورانيوم والآثار التاريخية، إضافة إلى الطاقات البشرية الجبارة التي رأيناها في الحرب تشق الأرض وتهدّ الجبال، فيمكنها مع سلطة رشيدة أن تقوم بتنمية تُبهر التاريخ والزمن.

لكن مع استمرار الصراعات السياسية والعرقية، تم تجاهل التنمية واستنزاف الطاقات البشرية والمادية خاصة في النزاعات المسلحة، تدهورت الأوضاع في تلك الدول على مستوى الأمن والاقتصاد والاجتماع والتعليم والبنية التحتية، ما جعل الهجرة حتمية ومستمرة ومتزايدة، طلبًا لحياة أكثر إنسانية. لذلك دعت الأمم المتحدة مرارًا الأطراف المتحاربة كافة إلى وقف القتال والعودة إلى الحلول السياسية للحد من نزيف اللجوء، وفي كل مرة لم تكن هناك بوادر استجابات في الأفق، ولا يبدو أن الصراعات ستتوقف على المدى القريب؛ حيث ما زالت الأزمات تتعقد وتزداد لأسباب كثيرة أهمها تشابك الصراعات السياسية والمسلحة، مع زيادة التدخلات الخارجية التي تؤدي إلى تطويل أمد الصراع وتغييب الحل السياسي، كما حدث في تدخل الناتو في ليبيا 2011، والتدخل الروسي والإيراني في سوريا، والتدخل الإيراني في العراق واليمن.[1] وقبلها التدخل البريطاني والأمريكي في فلسطين، وحاليًّا التدخل الإقليمي والدولي في السودان والنيجر، والتدخل الأوروبي في أوكرانيا.

(1) أنماط تدفق اللاجئين في المنطقة العربية، هايدي عصمت كارس، ملحق مجلة السياسية الدولية، القاهرة، عدد يوليو 2016، ص12.

اللاجئون الفلسطينيون

الوطن هو الشيء الوحيد الذي نحمله معنا عندما نغادر.

محمود درويش

يوافق تاريخ كتابة هذه السطور 15 مايو 2023، الذكرى الـ 75 للنكبة العربية، قرن إلا ربع على ظهور أكبر ظلم جماعي ممتد على دولة فلسطين، كذلك يوافق مرور أكثر من 150 عامًا على تهجير الشعب الفلسطيني من أرضه (حيث نشأة أول مستوطنة إسرائيلية عام 1878)، وعدم السماح للاجئين الفلسطنيين بالعودة أو حتى الاعتراف بملكيتهم لبيوتهم. نفي وتهجير وتشريد 7 ملايين فلسطيني، أي ما يقرب من 70 ٪ من الشعب الفلسطيني في شتات الأرض، وعلى مدار عشرات السنوات تجرع أجيال من الأجداد إلى الأحفاد كل أنواع الأسى والمرار فيما يتعلق بهويتهم.. من يكونون، من أين هم، لماذا لا يعودون؟!

نشأت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، التي تعد أطول وأكبر مشكلة لجوء إنساني في التاريخ البشري، قبيل عام 1948؛ حيث وعد بلفور 1917، بتمكين اليهود من فلسطين بعد انتهاء الانتداب البريطاني عليها، ثم قيام دولة إسرائيل بعد الحرب الإسرائيلية العربية 1948، وتفاقمت الأزمة مع استمرار وتزايد أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وتمكينهم من الأراضي بمساعدة عدد من العصابات الصهيونية أشهرها الأرغون وليحي وعصابة الهاغاناه (تعني جيش الدفاع) الأكثر تنكيًلا وتنظيمًا، بدأت الهاغاناه عملها في فلسطين عام 1879 خلال العهد التركي، عندما بدأ اليهود بتأسيس أول مستعمرة لهم (بيتح تكفا)، وكان عملها يقتصر على حراستها.

كان من بين أعضائها النشطاء في هذا الوقت، مهاجر بولندي يعمل كراعي بقر ومزارع في قرية الشجرة بالجليل اسمه (دافيد بن غوريون).[1] ثم أخذت العصابة شكلًا منظمًا وأكثر تسليحًا عام 1947 بعد التوسع في عمل المستعمرات كميليشيات سرية صهيونية تحمي الشعب اليهودي من الثورة أو الاحتجاجات الفلسطينية خلال احتلال الأراضي التي سُيقام عليها هذه المستعمرات، في هذا الوقت المبكر كان لديها أكثر من 10 آلاف بندقية، 702 رشاش خفيف، 2666 رشاشًا آليًّا، 186رشاشًا متوسطًا، 672 مدفع هاون 2 بوصة، 92 مدفع هاون 3 بوصة، مع ذخيرة سلاح مهولة تم شراؤها أو سرقتها من القوات البريطانية المنسحبة من فلسطين.

ثم أسست الهاغاناه مصنعًا للسلاح خاصًّا بها بعدما ضمت 35 ألف عنصر تم تدريبهم، ما جعلها تتحول إلى جيش نظامي له زي عسكري، ثم تحولت المنظمة في إبريل 1948 إلى (قوات جيش الدفاع الإسرائيلي) بعد توحدها مع عصابات الأراغون وليحي رغم ما بينهما من الاختلافات الأيديولوجية؛ ليضم الكيان الجديد لاتحاد العصابات المسمى (جيش الدفاع الإسرائيلي) 12 لواءً مسلحًا بالمدفعية وقوات مدرعة وقوات بحرية وجوية في مرحلة التطوير، وعدد جنود يزيد بخمسة إلى عشرة آلاف عنصر عن مجموع قوات الجيوش العربية النظامية التي شاركت في الحرب الإسرائيلية 1948.

لاحقًا، أصبح جيش إسرائيل يقوم بتعبئة فرد من بين كل 10 أفراد يهود موجودين في فلسطين ضمن صفوفه.[2] هذا الجيش جعل من **إسرائيل آخر قوة استعمارية على وجه الأرض**، بتمويل ودعم الولايات المتحدة الأمريكية التي أخذت دور بريطانيا في مساندة الدولة العبرية، حتى إن إسرائيل لم تدخل حرب 1967 إلا بموافقة صريحة من أمريكا التي وجدت أن من صالحها تصفية حكم عبد الناصر آنذاك،

(1) النكبة، عارف العارف، جـ2، ص309.

(2) مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، بيني موريس، جـ1، ص41.

وعلى كلٍّ ليس بإمكان إسرائيل أن تشنَّ أي حرب أو تدخل أية مغامرة عسكرية إلا بموافقة الولايات المتحدة التي تمدها بالسلاح والدعم والمظلة الأمنية.[1]

ويبقى هذا هو الحال حتى وقتنا هذا، حيث دعمت أمريكا إسرائيل في عدوانها على قطاع غزة في 7 أكتوبر 2023، وأرسلت إليها تعزيزات عسكرية كبيرة مع حاملة طائرات ضخمة لتدك بها المدنيين، كذلك دعمت قرار إسرائيل بقطع المياه والكهرباء والغاز عن كل القطاع، وروج الإعلام الأميركي فقط الرواية الإسرائيلية التي تتحدث عن إرهاب الفلسطينيين وضرورة حماية إسرائيل نفسها، كذلك غضت أمريكا الطرف عن استخدام إسرائيل أسلحة محرمة دوليًا في جبهات هذه الحرب في غزة ولبنان بما يخالف القوانين الدولية والإنسانية. ومنذ نشأته رسم جيش الدفاع السياسة الأمنية أحادية الجانب للدولة الإسرائيلية بحيث تكون مهمته هي حماية المستوطنين اليهود فقط، ولم يكن يتحمل أية مسؤولية موازية لحماية السكان الأصليين.[2] ظهر هذا واضحًا بالصوت والصورة في قتل المستوطنين – بعد تسليحهم من وزير الأمن الإسرائيلي شخصيًا – للفلسطينيين في الضفة والقدس مع لامبالاة الجيش الإسرائيلي بما يحدث.

بتتبع تزايد عدد اليهود في فلسطين على حساب الفلسطينيين يمكن أن ندرك جريمة الاحتلال، سنجد أنهم كانوا عام 1800م لا يتجاوزون 5 آلاف شخص، وفي عام 1876 كانوا 14 ألف شخص، وفي عام 1882 بدأت الهجرة اليهودية من أوروبا بسبب اضطهادهم وظهور الحركة الصهيونية العالمية التي جعلت الهجرة تأخذ شكلًا منظمًا بشكل خفي، ليصل عددهم عام 1918 إلى ما يزيد عن 55 ألف شخص (8 ٪ من سكان فلسطين)، ثم قامت الدولة الإسرائيلية عام 1948 ليصبح عددهم 650 ألف شخص (31.7 ٪ من السكان)، ثم بدأ هؤلاء يشعرون بالقلق من ضياع الهوية اليهودية بين السكان العرب الذين يضمن لهم قرار الأمم

(1) اليد الخفية، عبد الوهاب المسيري، ص 263.

(2) إسرائيل وفلسطين، آفي شليم، ص80.

المتحدة العيش في منازلهم ولا يحق لأحد إخراجهم منها،[1] وهكذا بدأ سارق الدار ينزعج من صاحبها.

من هنا جاءت فكرة نقل السكان الأصليين، وتفريغ المدن من العرب وترتيب تهويدها؛ لتبدأ العصابات والحركات الصهيونية في العالم حشد وتنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين مثل المنظمة الصهيونية العالمية، الاتحاد الصهيوني الأمريكي، منظمة هاساداه، مجلس الاتحادات اليهودية، اللجنة اليهودية الأمريكية، منظمة بناي برت، منظمة إيباك، الصندوق القومي اليهودي، صندوق كيرين هايسود، منظمة النداء الصهيوني الموحد.[2] وتقوم العصابات الصهيونية في فلسطين بتصعيد عمليات الاستيلاء على الأراضي والبيوت الفلسطينية باستخدام السلاح وعمل المجازر الجماعية والترهيب للإخلاء.[3] واستهدفت هذه العصابات قتل المدنيين وتدمير بيوتهم والاستيلاء على ممتلكاتهم بما فيها الكتب، وإخلاء الأرض الفلسطينية من سكانها الشرعيين لكي توهم العالم بمقولتهم المزعومة: «أرض بلا شعب.. لشعب بلا أرض»، وأن «الفلسطينيون باعوا أراضيهم طواعية». بينما تشير أرقام أرشيف وزارة الحرب الإسرائيلية إلى أن 55 ٪ من مجموع حالات الهجرة كانت بفعل عمليات عسكرية صهيونية، 15 ٪ نتيجة عمليات منظمتي الأرغون وليحي الصهيونية المسلحة، 2 ٪ بالأمر المباشر، 1 ٪ بسبب الحرب النفسية والترويع والتهدي، ويشير الواقع أن أهل فلسطين يموتون دفاعًا عن أرضهم كل يوم، حتى العالقين خارج غزة عندما تحدث حربًا عليها، يتسارعون في طلب التسجيل والدخول ليكونوا مع أهلهم، أصبح واضحًا أن هؤلاء لم ولا يمكن أن يبيعوا الأرض، لكن باعتهم الخيانات العربية.

(1) فلسطين: تاريخ شخصي، كارل صبّاغ، ص386.

(2) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، جـ2، ص 330.

(3) معاناة اللاجئ الفلسطيني، محسن صالح، ص14.

هكذا بدأت التغريبة الفلسطينية أو مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، الذين توزعوا بعد هزيمة 1967 تباعًا على البلاد العربية مثل الأردن وسوريا ولبنان ومصر وليبيا والعراق والخليج العربي وأوروبا، وتوزعوا كذلك في الداخل على المدن والقرى الفلسطينية البعيدة، وحاليًّا تؤكد الإحصائيات الفلسطينية الرسمية الصادرة في نهاية 2022 أن عدد الشعب الفلسطيني 14.3 مليون نسمة، يعيش في الداخل الفلسطيني منهم 5.4 ملايين، وتؤكد هذه الإحصائيات على أن ما يقرب من 70 ٪ من إجمالي الشعب (لاجئون ونازحون ومهاجرون) منهم من هو مسجل كلاجئ ومنهم من يعيش بلا هُوية فلسطينية.[1]

نحن هنا نسجل وننقل ونكتب كلمات مثل (هجرة، تهجير، نزوح، لاجئين،..)، لكن مع كامل الأسف، الكلمات واللغة تظلم وصف ما جرى، فنحن نتحدث عن مأساة شعب كامل، مع كل فرد منهم حكايته بآلامها التي لا تسعها الكتب للتعبير عنها، أو كما تقول الأديبة رضوى عاشور في روايتها (الطنطورية): هل يمكن حكاية ما جرى في هذه الصفحات المعدودة؟!، كيف يحتمل كتاب صغير أو كبير آلاف الجثث، قدر الدم، كم الأنقاض، الفزع؟!

عن وضعهم القانوني، وفقًا للأونروا يتم تعريف اللاجئين الفلسطينيين بأنهم الأشخاص الذين كانوا يقيمون في فلسطين خلال الفترة ما بين يونيو 1946 حتى مايو 1948، والذين فقدوا بيوتهم ومورد رزقهم نتيجة حرب 1948، ووفقًا للأونروا أيضًا فإن ثلث اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لديها، أي ما يزيد عن 1.6 مليون لاجئ، يعيشون في 59 مخيمًا معترفًا به للاجئين في كل من الأردن ولبنان وسوريا وقطاع غزة والضفة الغربية.

يُعرف المخيم بأنه قطعة من الأرض تم وضعها تحت تصرف الوكالة من قبل الحكومة المضيفة بهدف إسكان اللاجئين الفلسطينيين، وتم بناء المنشآت بها للاعتناء بحاجاتهم، أما المناطق التي لم يتم تخصيصها لتلك الغاية فلا تعد مخيمات.

(1) موقع وفا: وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية.

ومع ذلك فإن للأونروا مدارس وعيادات صحية ومراكز توزيع معونات خارج هذه المخيمات التي يوجد بها عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين.

من المهم الإشارة إلى أن الأرض التي أُنشئت فوقها هذه المخيمات هي أرض حكومية أو أنها في معظم الحالات استأجرتها الحكومة المضيفة من أصحابها الأصليين، وهذا يعني أن اللاجئين (لا يملكون) الأرض التي بُنيت عليها بيوتهم، إلا أن لديهم حق (الانتفاع) بها للغايات السكنية فقط، وتتصف الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية في المخيمات عمومًا بالفقر؛ حيث الكثافة السكانية العالية وظروف الحياة المكبَّلة والبنية التحتية غير الملاءمة للانتفاع البشري؛ حيث يؤثر فيها بسهولة ظروف المناخ في الشتاء والصيف خاصة مع سوء أحوال الشوارع والصرف الصحي ومياه الشرب والكهرباء.

أصبح من المعلوم دوليًّا أن قضية اللاجئين الفلسطينيين هي حالة خاصة في القانون الدولي؛ حيث لا ينطبق عليهم أغلب الحقوق الخاصة بغيرهم من اللاجئين وبالأخص حق العودة، وهو ما نصَّت عليه المادة الأولى في اتفاقية 1951، وبناءً عليه لا يحق للاجئ الفلسطيني الحصول على حماية أو مساعدة من مفوضية اللاجئين؛ فهو فقط يتبع الأونروا وحصرًا في (سوريا، لبنان، الأردن، الضفة وغزة)، ما يجعل الفلسطينيين غير المُسجلين في الأونروا ومخيماتها والفلسطينيين في الدول التي لا تعتمد المخيمات لأي سبب، خارج نطاق أي دعم (فجوة الحماية)، فضلًا على من تم تهجيرهم قبل 1946 بفعل العصابات الصهيونية يدخلون أيضًا في هذه الفجوة.

عن عددهم في المخيمات والبلاد، سجلت وكالة الغوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) 5 ملايين و311.555 لاجئًا فلسطينيًّا، تتأرجح حقوقهم بشكل كبير حسب الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية في الدول التي يوجدون بها؛ فمثلًا في الأردن التي تستقبل أكثر من 2 مليون فلسطيني أغلبهم موزعون على 13 مخيمًا، تم منح كثير منهم الجنسية، لكن كان بعضهم عرضة للتضييق والتهجير خارج البلاد، كما في أحداث عام 1970.

لبنان، التي تستقبل أكثر من نصف مليون فلسطيني موزعين على 21 مخيم، يتم منعهم من الحصول على تصاريح العمل في أكثر من 70 وظيفة، ومعاملتهم معاملة الأجانب أو عديمي الجنسية، ويتم تهميشهم في المسكن واستبعادهم من الأنشطة الاجتماعية والثقافية، وأحيانًا يتم الحرب عليهم كما حدث في مخيم صبرا وشاتيلا (سبتمبر 1982)، وأحداث مخيم برج البراجنة (مايو 1985)، وأحداث مخيم نهر البارد (مايو 2007)،[1] وآخرها الأحداث الدامية في مخيم عين الحلوة (أغسطس2023). كذلك عانى الفلسطينيون في الكويت آثار الاحتلال العراقي، خاصة بعد موقف منظمة التحرير الداعم للعراق، ما أنتج هجرة 400 ألف فلسطيني من أصل 430 ألفًا من الكويت خلال وبعد الحرب، بعضهم هاجر إلى العراق، ثم هجروه مرة أخرى بعد الاحتلال الأمريكي. كذلك تم إجبار 30 ألف لاجئ فلسطيني كانوا في ليبيا على مغادرتها، بقرار القذافي عام 1994 بترحيلهم جميعًا بشكل فوري وقسري من الأراضي الليبية إلى المجهول، اعتراضًا على اتفاقية أريحا – غزة.[2]

(1) اللاجئون الفلسطينيون في المشرق العربي، آري كنودسن وساري حنفي، ص27.

(2) دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، محسن صالح، ص137.

فلسطينيو سوريا: الوجع المضاعف

في سوريا، أعلنت الدولة أنها تعامل الفلسطينيين معاملة تشبه معاملة المواطنين، وتستقبل أكثر من نصف مليون لاجئ فلسطيني (570 ألفًا) حتى بداية الحرب السورية، 48 ٪ منهم موزعون على 12 مخيمًا، أهمها مخيم اليرموك (يسكن فيه 16 ألف لاجئ فلسطيني)، مخيم حمص (22 ألف لاجئ)، مخيم قبر الست بجنوب دمشق (22 ألفًا)، مخيم النيرب في حلب (19 ألف لاجئ)، مخيم خان الشيخ (19 ألفًا)، مخيم جرمانا على طريق مطار دمشق (18500)، مخيم خان دنون بجنوب دمشق (9500)، مخيم درعا في جنوب سوريا (13 ألفًا)، مخيم حماة (8 آلاف). لكن مرت عليهم فترة عاملتهم الدولة معاملة العدو، كما حدث عام 1983 حيث معركة طرابلس؛ فتم التضييق عليهم والتنكيل بهم، وهو ما حدث مرة أخرى بعد الثورة السورية 2011، بسبب موقف الأطراف الفلسطينية منها، كما حدث في جرائم وحصار مخيم اليرموك (2013 2018–).

طالت الحرب السورية 2011، جملة هذه المخيمات بالحصار والتجويع والتدمير والخراب، وتهجير أكثر من 95 ٪ من سكانها إلى خارج سوريا وداخلها، حيث لجأ أكثر من 30 ألف منهم إلى لبنان، وقصد 10 آلاف تركيا، وما يزيد على 19 ألفًا إلى الأردن، ووصل أكثر من 3 آلاف إلى مصر التي فتحت فيها الأونروا مكتبًا مؤقتًا لمساعدة اللاجئين الفلسطينيين، بينما قُتل خلال الحرب السورية حتى عام 2022 ما يزيد عن 4150 فلسطينيًّا، بينهم 192 فلسطينيًّا ماتوا نتيجة الحصار والجوع، واختفاء 3076 آخرين.[1] وبعد تشريد من بقي على قيد الحياة ولجوئهم إلى الدول القريبة، غالبًا ما يكون لديهم مشكلات مع الجهات الرسمية خاصة خلال تجديد الإقامات، ومشكلات أخرى مع مؤسسات الدعم الإنساني باعتبارهم ليسوا سوريين، وليس لديهم وثائق رسمية معترف بها تثبت جنسيتهم الفلسطينية

(1) تقرير فلسطينيو سورية: تحت خط الحياة، 2022، ص8.

المستحقة للدعم، وبشكل عام، يتم التعامل مع اللاجئين الفلسطينيين بصورة عامة في كل الدول بشكل أمني وليس إنساني.

واقع النزوح الفلسطيني

يتجاوز عدد النازحين والمُبعدين في الداخل أكثر من 2 مليون شخص، موزعون ما بين الضفة الغربية (تحت الاحتلال) وقطاع غزة (تحت الحصار، ثلثا سكان غزة من اللاجئين والنازحين)، وهؤلاء المبعدين في الداخل (غير غزة) يتم التعرض لهم بهجمات مستمرة من الجيش الإسرائيلي إما بالاعتقال أو الإبعاد المتكرر (الترانسفير)، أو السجن الإداري أو التعذيب والتنكيل عبر قوات الأمن الفلسطينية التي تمارس سياسات التنسيق الأمني المُبرم بين السلطة الفلسطينية والمحتل الإسرائيلي طبقًا لرؤية إسرائيل لـ (فلسطين الجديدة)، جدير بالإشارة إلى أن «عملية خلق فلسطين الجديدة هذه، يشترك فيها طرفان: فلسطيني وإسرائيلي، فلا بد من حركة تحرر فلسطينية ذات شرعية تقوم بدور الوساطة بين الغازى والمغزو، وتوفق بين المفهومين المختلفين للوطن، فتزعم أن التعريفين لا يتناقضان. وستسلم إسرائيل السلطة لهذه الحركة أياً كان اسمها، فيكون تسليمها لها، استقلالاً، تُترك بعده الحركة لتعمل على تحقيق مصالح الدولة المستقلة الجديدة، بوطنية حقيقية وصادقة، لكنها لا تؤذى الاستعمار، بل يكاد أثرها السياسي يتطابق مع أثر الاحتلال. إن خلق الاستعمار لوطن ما، يخلق وطنية أليفة للاستعمار، مستأنسة كالحيوانات لطعامها ومائها، إلا أن طعامها وماءها هما عند سيدها الاستعماري، إن الوطن نفسه شكلاً من أشكال الاحتلال الأهلى، والاستقلال يصبح استمراراً للاستعمار وإكمالاً له».[1]

ومع أن غزة ثلثا سكانها نازحون من مدن الداخل الفلسطيني، إلا أننا رأينا نزوح أكثر من مليون ومائتي شخص (70 ٪ من السكان) في أثناء حرب إسرائيل عليها في أكتوبر 2023، وكان من ضمن هؤلاء النازحين أطفالي الثلاثة، كانت أمنيتهم

(1) الوطنية الأليفة، تميم البرغوثي، ص19.

الكبرى التي تمنوها مني (شربة ماء نظيفة!)، نزوحوا ولم يرحم المحتل نزوحهم بل واصل قصفه عليهم ما أدى إلى استشهاد العشرات منهم خلال سيرهم على الطرق بالإضافة إلى ما يقرب من 12 ألف شهيد و33 مصاب وجريح و قصف وتهدم 250 ألف وحدة سكانية خلال اليوم الأربعين من الحرب، بالإضافة لقصف المستشفى المعمداني بغزة التي كان يحتمي بها عدد كبير من النازحين الذين لم يجدوا مأوى لهم، ما أدى إلى ارتقاء أكثر من 500 شهيد، وبشكل مأسوي وهزلي اقتحم الجيش الإسرائيلي مستشفى الشفاء بلا مراعاة للمرضى والجرحى ما أدى إلى وفاة معظم مرضى العناية المركزة. أما عن اللاجئين في الدول القريبة جدًّا من فلسطين مثل مصر فلا يمكن أن يحلموا بالعودة إلى أرضهم ولو إلى غزة المُحررة من الصهاينة منذ عام 2005 إلى اليوم لأن تنسيق المعابر يحتاج إلى إذن إسرائيلي، وهو ما يترك غصة في قلب كل فلسطيني في الشتات لم ينس حقه في أرضه ووطنه.

يُعبر عن هذه الغصة الأديب الفلسطيني مريد البرغوثي بقوله: يستغرب كثير من أصدقائي في العالم هذا التعلق بالمكان الأول، وهذا الاهتمام بالعلاقات العائلية بين الفلسطينيين، بل إن بعضهم يسخر من هذه العاطفة، ويقارن بينها وبين ارتياحه لفكرة المغامرة والاكتشاف والتنقل الدائم والعيش في أماكن يختارها ويغيرها على هواه، بلا أدنى أسف على ترك العائلة أو ترك الوطن ذاته، ويذكرني بأن الدنيا أوسع وأجمل من قرانا وعائلاتنا، وأنا أشاركهم هذا الإحساس الجميل برحابة العالم.

أنا أيضًا مثلهم، أحب التنقل والأسفار والعيش في أماكن جديدة، لكن ما لا يتوقف عنده هؤلاء الأصدقاء، أنهم هم الذين يختارون ابتعادهم، ويقدمون جوازات سفرهم (المعترف بها من دول العالم كله)، ويركبون الطائرات والقطارات والسيارات والدراجات ويهبون إلى أماكن تتوفر فيها ثلاثة شروط لا يتوفر أي منها للفلسطيني:

- أولًا: إنهم يفضلونها ويختارون الذهاب إليها.
- ثانيًا: إنها ترحب بهم دائمًا.

- ثالثًا: وهو الأهم، إن بإمكانهم العودة إلى بلدهم في اللحظة التي يرغبونها، التي يقررونها هم بأنفسهم.

أما الفلسطيني الذي تم إجباره على اللجوء والهجرة والنفي من الوطن منذ النكبة عام 1948 أو منذ حرب حزيران/ يونيو 1967، يشقى في محاولة الحصول على وثيقة تعريف به على الحدود، يشقى في محاولة الحصول على جواز سفر من دولة أخرى؛ لأنه بلا دولة، ويُرغم على الخضوع لتحقيقات كافكاوية قبل منحه تأشيرة دخول إلى أي مكان في العالم، حتى الدول العربية ذاتها، **الفلسطيني ممنوع من دخول بلاده برًّا وبحرًا وجوًّا، حتى لو كان في تابوت.**[1]

كان هذا ما كتبه مريد البرغوثي (ابن مدينة رام الله) قبل سنوات من وفاته في الأردن ودفنه بعيدًا عن وطنه، ويبدو أن الأمر ما زال مستمرًّا إلى اليوم ليصنع قصص حياة مختلفة لكن يجمعها الألم، يحكي أحدهم أن فلسطينيًّا يحمل وثيقة سفر لاجئ، سافر إلى ألمانيا عبر باريس (ترانزيت) للعلاج، في باريس يكتشف طاقم الطائرة أنه مات؛ فينقل الجثمان (حسب خط التذكرة) إلى ألمانيا التي سمحت بدورها بدخوله لأنه يمتلك فيزا، لكنها رفضت دفنه كونه لا يمتلك إقامة. السعودية، حيث تسكن العائلة، رفضت استقباله كونه ليس مواطنًا، ومصر صاحبة وثيقة السفر رفضته؛ لأنه لا يحمل تأشيرة عودة، والجثمان في المستشفى إلى أن يجد قبرًا لا وطن!

أصبح من المعلوم للعالم أن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هي الأكبر، ليس فقط من حيث العدد الذي ينافس فيه اللجوء السوري والأوكراني، لكن من حيث السبب؛ فمشكلة اللاجئين بشكل عام قد تُحل بالإصلاح السياسي وإن بعدت مدته، إلا أنه في حكم الممكن، لكن سبب مشكلة اللجوء الفلسطيني هو الاحتلال المدعوم من القوى الغربية الكبرى التي أعطت إسرائيل الحماية والغطاء والرعاية لاستكماله منذ وعد بلفور 1917، وحتى الآن تزودها بالدعم العسكري والسياسي والمالي والشرعية الدولية، برغم اعتراف رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ناحوم

(1) ولدت هناك.. ولدت هنا، مريد البرغوثي، ص107.

غولدمان أن مطالبة الصهاينة بدولة يهودية كان يتعارض بشكل تام مع كل مبادئ القانون الدولي والتاريخ الحديث.[1] بالإضافة إلى أننا نتحدث عن احتلال مدعوم وقائم على الإحلال والإبعاد والتهجير القسري للفلسطينيين، ورفض حق العودة الذي أثبتت إسرائيل تعنتها فيه منذ البداية؛ فبعد مؤتمر لوزان (مايو 1949) أرسل الرئيس الأمريكي ترومان رسالة شديدة اللهجة إلى بن غوريون، يُعبر فيها عن القلق الأمريكي البالغ من مماطلة إسرائيل في السماح للفلسطينيين بالعودة إلى أرضهم.

ذكر ترومان في رسالته: «إن واشنطن طالبت إسرائيل بشكل متكرر، لكن بلا جدوى، بقبول مبدأ عودة جوهرية للاجئين والبدء الفوري في ذلك على مستوى معقول، وحكومة الولايات المتحدة لا ترى أن هذا السلوك للحكومة الإسرائيلية يتماشى مع المبادئ التي استند إليها تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل»؛ فجاء الرد الإسرائيلي على لسان بن غوريون، وأرسله شاريت قائلًا: «الحرب على إسرائيل هي ما أدى إلى النزوح الجماعي للعرب، ولا يمكن أن تعود عجلة التاريخ إلى الخلف، إسرائيل لا يمكنها أن تدفع بنفسها إلى الانتحار باسم الإنسانية، وأي إجراء ذي مغزى للعودة هو أمر غير قابل للتنفيذ».[2]

لم تكن هذه المرة الأولى التي يُعلن فيها بن غوريون أن السياسة الإسرائيلية لا علاقة لها بالقوانين الدولية وحقوق الإنسان؛ فقد أكدها قبل ذلك في 14 فبراير 1949 في خطبته بأول جلسة انعقدت في الكنيست، التي تم خلالها انتخاب وايزمان رئيسًا لإسرائيل وانتخاب دافيد بن غوريون رئيسًا للوزراء؛ حيث قال يومها في خطبته: إن مصير مدينة القدس لن تقرره لجنة التوفيق الدولية، فإن ذلك مقرر منذ ثلاثة آلاف سنة، عندما أُعلنت القدس عاصمة للدولة اليهودية.[3]

تكرر نفس الحديث بعد هزيمة يونيو 1967 في أعقاب انفجار ظاهرة اللاجئين والنازحين؛ حيث أكد الكنيست أن إسرائيل تعارض عودة اللاجئين والنازحين،

(1) القضية الفلسطينية، محسن محمد صالح، ص156.

(2) مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، بيني موريس، جـ2، ص282.

(3) النكبة، عارف العارف، جـ2، ص294.

والحد الأقصى الذي يمكن قبوله هو توطينهم في دول وأماكن إقامتهم الحالية أو تحسين الظروف المعيشية لهم في مخيمات اللجوء. وهو الأمر الذي كرره وزير خارجية إسرائيل أبا إيبان في مؤتمر السلام بالشرق الأوسط في أكتوبر 1968، كذلك تمت إعادة نفس الرفض عبر رابين وشارون وشامير في مايو 1989.[1]

إلى اليوم تُصر إسرائيل على هذا الحق المزعوم في الأرض، الذي قال عنه أحد أكبر المفكرين اليهود في التاريخ، وهو البروفيسور نورمان كانتور: «إن كل ما قيل عن وعد مقدس في فلسطين لليهود لم يثبت علميًّا، وهذا شيء ينتمي إلى عالم الأدب أكثر مما ينتمي إلى عالم الدين».[2] إلا أن إسرائيل مستمرة في ترديد هذه المزاعم، وتتابع احتلالها بقوة السلاح مع استمرار الجماعات الصهيونية المتطرفة والعصابات الإسرائيلية المسلحة في العربدة والتعرض لأصحاب الأرض وطردهم منها إلى اليوم، وأبسط مثال على ذلك وجود منظمة كاخ (כ»ך) ومنظمة لاهافا (להב»ה) المصنفتين عالميًّا، حتى بالقانون الإسرائيلي، كتنظيمات إرهابية محظورة النشاط داخل الكيان. لكن الواقع يقول إن جيش الاحتلال يترك لهم الشارع تمامًا لرفع الأعلام وضرب الفلسطينيين بالسلاح أحيانًا بمن فيهم ومعهم المتضامنون الأجانب، حتى الصحفيون لم يسلموا من التنكيل والسحل والقتل أحيانًا برصاص هذه العصابات أو بطلقات من أفراد جيش الاحتلال نفسه، كما حدث في اغتيال الإعلامية شيرين أبو عاقلة (مايو 2022)، ظهر خطر هذه العصابات بالصوت والصورة خلال حرب إسرائيل على غزة (أكتوبر 2023)، حيث أشرف وزير الأمن الإسرائيلي بنفسه (إيمتار بن غفير) على توزيع السلاح لهم، بعدها بأيام رأى العالم كيف تقتل هذه العصابات الفلسطينيين المدنيين من مسافة صفر، دون أن تحرك حكومات العالم ساكنًا، وعندما رأيت هذه الحكومات - خاصة الغربية - مشاهد المقاومة الفلسطينية وصوفها بالإرهاب وتبنوا رواية المحتل. ومع تخاذل

(1) فلسطين، عماد جاد، ص316.

(2) القدس، تحرير: عبد القادر ياسين، ص713.

الحكومات العربية، يثبت كل يوم يمر أن إسرائيل استطاعت احتلال كل العالم إلا فلسطين.. وحدها تُقام.

يتم إخلاء كل شوارع القدس لهذه العصابات والمستوطنين حصرًا خلال فاعليتهم العنصرية، كما يحدث بين الحين والآخر في ساحات المسجد الأقصى وحي الشيخ جراح بقوة السلاح، بالإضافة إلى سن قوانين إسرائيلية تفرض إخلاء البيوت والأراضي، بحيث تكون واجبة النفاذ على الفلسطينيين، مثل سلسلة التشريعات التي تم إطلاقها عام 1950، وهي قانون وضع اليد وقانون سلطة التدوير والتحسين وقانون أملاك الغائبين.

إذن قضية اللاجئين الفلسطينيين مستمرة، من حيث التهجير اليومي للفلسطيني من أرضه وإبعاده عنها بالنزوح الداخلي أو النفي خارج الحدود، وإذا رفض؛ فهناك تفويض مفتوح من الدولة الإسرائيلية إلى أفراد جيش الاحتلال بالقتل المباشر بحجة الاشتباه، أو اقتياده إلى المعتقلات الإسرائيلية المجهزة لاستيعاب مئات الآلاف من الفلسطينيين، بحسب الإحصاء الفلسطيني تم اعتقال ما يزيد عن مليون فلسطيني منذ 1967 إلى 2022، بينهم 50 ألف طفل، 150 ألف امرأة.[1]

يبدو أن الأمر كان مخططًا له منذ زمن، أن يبقى نزيف الهجرة الفلسطينية مستمرًّا في مقابل استقدام اليهود من كل دول العالم إلى فلسطين. يشهد بذلك تصريح قديم لمدير قسم الاستيطان في الصندوق القومي اليهودي، جاء فيه: «يجب أن يكون واضحًا فيما بيننا أنه لا مكان في هذا البلد لشعبين؛ فبعد أن يتم نقل العرب ستكون البلد واسعة بما يكفي لنا، والحل الوحيد هو أن تكون أرض إسرائيل أو على الأقل الجزء الغربي منها بلا عرب، ليس هناك حل آخر، فقط هو التفريغ الكامل للبلد من كل غير اليهود».[2]

---

(1) الأسرى الفلسطينيون، عبد الناصر فروانة، ص92.

(2) Nur Masalaha, The Explosion of the Palestinians, institute For Palestine studies, 1993, pp.131.

إجمالًا، مع أن قضية اللاجئين الفلسطينيين لا تُذكر كثيرًا حاليًّا، لمرور عشرات السنوات عليها وتحول الأضواء إلى قضايا ومآسي لاجئين غيرهم، إلا أنها تبقى السؤال الإجباري للإنسانية ولضمير العرب بشكل خاص، فهي قضية اللجوء الأولى للعرب، الذين تأخروا كثيرًا في نصرتها والوقوف معها، **ويُفترض أن ظهور قضايا للاجئين جُدد يُوجب تجديد دراستها وإعادة النضال من أجلها من البدايات الصحيحة، فمن تجاهل سؤاله الإجباري.. يصعب عليه النجاح فيما سواه**، خاصة أن اللاجئين الفلسطينيين لم ينسوا أرضهم، وما زالوا يحلمون بالعودة إليها ويحملون إلى اليوم مفاتيح ديارهم في متاعهم ومتعلقاتهم القديمة، «هذه المفاتيح ليست أسطورة، لو كانت أسطورة لصدئت».[1] ولكنها حتى الآن وبعد أكثر من 150 عامًا من تراجيديا التهجير واللجوء، ما زالت تلمع تحت شمس كل صباح.. المهم ألا ننسى.

أما بعد، فإن فلسطين ما زالت تحت الإحتلال وما زالت وحدها تُقاوم وتدفع الثمن وحدها، ووجب على كل عربي ومسلم وإنسان دفع الظلم عنها ما استطاع وبما استطاع، ووجب معرفة أن المقاومة هناك حق وضرورة، ووجبت المقاومة في كل مكان بمعرفة القضية وتغذية الذاكرة بالحقائق التي يحرص العدو على تغييبها أو تحريفها أو تزييفها لاستكمال جرائمهم، فلا يوجد إجرام بلا كذب يروج كأنه الحقيقة، محاولة معرفة ونشر الحقيقة في وقت كهذا مزعج للمجرمين، لا يقوم بها إلا من رابطوا على إنسانيتهم.

يقول الشاعر البهاء حسين: «الحياة حرب، وذاكرتك هي الجبهة». لذا فالذاكرة الفلسطينية والعربية مع المحتل هي ميدان كبير للمواجهة، يسع وينتظر الجميع المشاركة فيه، وهذه من أهم الكتب عن فلسطين التي يمكنها تغذية الذاكرة أو استعادتها:

---

(1) من مذكرات يوسف أبو اللوز (بتصرف)، صحيفة الخليج، الإمارات.

1. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر.
2. موسوعة مصر والقضية الفلسطينية، عادل حسن غنيم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر.
3. موسوعة مسألة فلسطين، هنري لورنس، المركز القومي للترجمة، مصر.
4. إسرائيل وفلسطين، آفي شليم، المركز القومي للترجمة، مصر.
5. السلام المستحيل، مارك ليفين، المركز القومي للترجمة، مصر.
6. فلسطين: تاريخ شخصي، كارل الصباغ، المركز القومي للترجمة، مصر.
7. الإنتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية، عبد الوهاب المسيري، الهيئة العامة للكتاب، مصر.
8. القضية الفلسطينية، محسن محمد صالح، مركز الإعلام العربي، مصر.
9. دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، محسن صالح، مركز الإعلام العربي، مصر.
10. الغرب والإسلام وفلسطين، محمود خليل النمورة، مركز الإعلام العربي، مصر.
11. أحمد ياسين: شهيد فلسطين، مجموع مفكرين، مركز الإعلام العربي، مصر.
12. دليل الفصائل الفلسطينية، عبد القادر ياسين، مركز الإعلام العربي، مصر.
13. الفكر اليهودي، عبد الحليم عويس، مركز الإعلام العربي، مصر.
14. فلسطين أولًا، جمال حمدان، دار الهلال، مصر.
15. الاستيطان الصليبي في فلسطين، يوشع براور، دار الشروق، مصر.
16. فقه الصراع على القدس وفلسطين، محمد عمارة، دار الشروق، مصر.
17. الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، روجيه جارودي، دار الشروق، مصر.

18. فلسطين أرض الرسالات السماوية، جارودي، ترجمة: قاسم أمين، دار الشروق، مصر.
19. المواجهة والسلام في الشرق الأوسط، طاهر شلش، دار الشروق، مصر.
20. الصهيونية والعنف، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر.
21. تاريخ الفكر الصهيوني، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر.
22. اليد الخفية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر.
23. رواية الطنطورية، رضوى عاشور، دار الشروق، مصر.
24. أزمة العروش، محمد حسنين هيكل، دار الشروق، مصر.
25. غزة: المقاومة والممانعة، سليم العوا، مكتبة الشروق الدولية، مصر.
26. إرهاب إسرائيل المقدس، ليفيا روكاش، مكتبة الشروق الدولية، مصر.
27. الأعمال الكاملة للشهيد فتحي الشقاقي، رفعت سيد أحمد، مركز يافا للدراسات، مصر.
28. مصر في مواجهة إسرائيل، عبد الرءوف أحمد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر.
29. فتح: من البندقية إلى السرداب، عبد القادر ياسين، الهيئة العامة للكتاب، مصر.
30. الصهاينة في مصر، عبد القادر ياسين، مركز يافا للدراسات، مصر.
31. مائة عام على وعد بلفور، ميسرة صلاح الدين، بيت الياسمين للنشر، مصر.
32. الأسرى الفلسطينيون، عبد الناصر فروانة، جامعة الدول العربية، مصر.
33. القضية الفلسطينية: مداخل للفهم، رجب الباسل، دار البشير، مصر.
34. إسرائيل من الداخل، ضياء الحاجري، الهيئة العامة للكتاب، مصر.
35. فلسطين وواجبات الأمة، راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ، مصر.
36. هولوكست غزة، مجدي كامل، دار الكتاب العربي، مصر.

37. القضية الفلسطينية، أكرم زعيتر، دار المعارف، مصر.
38. مصر والصراع العربي الإسرائيلي، حسن نافعة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.
39. الصراع العربي الإسرائيلي، بيدرو بريجر، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.
40. عيون في غزة، مادس جيلبرت، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.
41. فلسطين والفلسطينيون، سميح فرنسون، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.
42. العرب ومواجهة إسرائيل، مجموعة مؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.
43. اللاجئون الفلطسينيون وحق العودة، مجموعة مؤلفين، مركز دراسات الوحدة، لبنان.
44. مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي، أسامة الغزالي حرب، مركز دراسات الوحدة، لبنان.
45. المقاومة الشعبية الفلسطينية تحت الاحتلال، علاء العزة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
46. تاريخ فلسطين الحديث، عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان.
47. التاريخ المصور للشعب الفلسطيني قبل الشتات، وليد الخالدي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
48. قرى فلسطين التي دمّرتها إسرائيل، وليد الخالدي، مؤسسات الدراسات الفلسطينية، لبنان.
49. الفلسطينيون في سورية، وليد الخالدي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.

50. حركة مقاطعة فلسطين، عمرو سعد الدين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
51. صواريخ المقاومة في غزة: سلاح الردع، باسم قاسم، مركز الزيتونة للدراسات، لبنان.
52. الكفاح المسلح والبحث عن دولة، يزيد الصايغ، مؤسسات الدراسات الفلسطينية، لبنان.
53. الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال،غسان كنفاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
54. إسرائيل الكبرى والفلسطينيون، نور مصالحة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
55. التطهير الإثني في فلسطين، جيف سيمونز، مركزالعودة الفلسطيني، لندن.
56. التطهير العرقي في فلسطين، إيلان بابيه، مؤسسات الدراسات الفلسطينية، لبنان.
57. عشر خرافات عن إسرائيل، إيلان بابيه، دار فيرسو، لندن.
58. أكبر سجن في العالم، إيلان بابيه، الدار الأهلية، الأردن.
59. موسوعة النكبة، عارف العارف، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
60. تقسيم فلسطين، وليد الخالدي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
61. أطلس فلسطين، سلمان أبو ستة، مؤسسات الدراسات الفلسطينية، لبنان.
62. مجلة الدراسات الفلسطينية، فصلية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
63. دراسات في المجتمع الإسرائيلي، عادل مناع، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
64. نكبة وبقاء، عادل مناع، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
65. أعلام فلسطين، عادل مناع، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
66. حماس، خالد الحروب، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.

67. قطاع غزة، سارة روي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
68. دروب المنفي، فيصل حوراني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
69. حق العودة، رمضان بابدجي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لبنان.
70. كيف طرد الفلسطينيون من ديارهم، ميخائيل بالومب، دار الحمراء، لبنان.
71. مدائن فلسطين، نبيل خالد الآغا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان.
72. أوضاع اللاجئين الفلسطينين، محسن محمد صالح، مركز الزيتونة للدراسات، لبنان.
73. مدخل لقضية اللاجئين الفلسطينين، محسن محمد صالح، مركز الزيتونة للدراسات، لبنان.
74. السلطة الوطنية الفلسطينية، محسن محمد صالح، مركز الزيتونة للدراسات، لبنان.
75. حقوق اللاجئين الفلسطينيين، نجوى حساوي، مركز الزيتونة للدراسات، لبنان.
76. القدس والمقدسات، محسن محمد صالح، مركز الزيتونة للدراسات، لبنان.
77. الحصار، محسن محمد صالح، مركز الزيتونة للدراسات، لبنان.
78. أرض جوفاء: الهندسة المعمارية للإحتلال، إيال وايزمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان.
79. مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر المعاصر، لبنان.
80. اليوميات الفلسطينية، محسن صالح، مركز الزيتونة للدراسات، لبنان.
81. صبرا وشاتيلا المذبحة، صفاء زيتون، دار الفتى العربي، لبنان.
82. الثوريون لا يموتون أبدا، جورج مالبيرينو، دار الساقي، لبنان.
83. أن تكون فلسطينيا في لبنان، سامر مناع، دار نلسن، لبنان.

84. معنى النكبة، قسطنطين زريق، دار العلم للملايين، لبنان.
85. قصتنا مع اليهود، علي طنطاوي، دار ابن حزم، لبنان.
86. مصر وفلسطين، عواطف عبد الرحمن، عالم المعرفة، الكويت.
87. اختلاق إسرائيل القديمة، كيث وايتلام، عالم المعرفة، الكويت.
88. إشكالية الهوية في إسرائيل، رشاد الشامي، عالم المعرفة، الكويت.
89. مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، بيني موريس، عالم المعرفة، الكويت.
90. كيف ضاعت فلسطين،عيسى الماضي، مكتبة المعلا، الكويت.
91. فلسطين: التاريخ المصور، طارق السويدان، الإبداع، الكويت.
92. جغرافية الاستيطان ووهم الدولة، نافذ أبو حسنة، دار النمير، دمشق.
93. طريق العودة، سلمان أبو ستة، دار مؤسسة فلسطين للثقافة، دمشق.
94. المسألة اليهودية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.
95. فلسطين: القضية–الشعب– الحضارة، بيان نويهض الحوت، دار الاستقلال، فلسطين.
96. حق العودة فوق القوة، حماد صبح، الشام للدراسات والأبحاث، فلسطين.
97. تاريخ غزة، عارف العارف، مكتبة اليازجي، فلسطين.
98. اختراع الشعب اليهودي، شلومو ساند، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن.
99. مخيم اليرموك: عاصمة الشتات، مجد يعقوب، فضاءات للنشر، الأردن.
100. فلسطيني بلا هوية، صلاح خلف، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن.
101. جهاد شعب فلسطين، صالح أبو بصير، دار الفتح، الأردن.
102. ما بين الثورة والدبلوماسية، خير الدين عبد الرحمن، المركز العربي للأبحاث.
103. اللاجئون الفلسطينيون في المشرق العربي، آري كنودسن، المركز العربي للأبحاث.
104. شهداء فلسطين، عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان للنشر، الجزائر.

105. فلسطين قبل الضياع، واصف غبوش، رياض الريس للنشر، لندن.
106. المتضامنون مع فلسطين، مجدي سعيد، منشور عبر الإنترنت.
107. الأعمال الأدبية لـ (مريد البرغوثي، غسان كنفاني، محمود درويش، آل طوقان، معين بسيسو، أحمد دحبور، سميح القاسم،عبد الكريم الكرمي، راشد حسين).

اللاجئون السوريون

– أحبك بعدد ياسمين الشام.

– ما ضل بالشام ياسمين،

كم تحبني بعدد الرصاصات واللاجئين؟!

في 15 مارس 2023، كان قد مرّ على الحرب السورية 12 سنة وما زال يُسمع صوت رصاصتها إلى الآن، يومها أعلنت الأمم المتحدة عن تسجيل 13 مليون سوري اضطروا إلى الفرار خارج سوريا أو النزوح داخلها وعلى حدودها، لتحقق سوريا واحدة من أعلى معدلات اللجوء في التاريخ الإنساني بظروف لا إنسانية، لم ترحم فيها الحربُ والهجرةُ الأطفالَ والمرضى والعجائز، وسُجلت آلاف المشاهد والتجارب والجرائم المُدمية للقلوب التي لو وقفت كل الإنسانية تعتذر عنها إلى يوم القيامة لم يكن كافيًا ولا معوضًا عن مرارة الفقد وعظيم الألم والحسرة لذوي الملايين الذين ماتوا قتلًا أو حصارًا أو بردًا أو جوعًا أو مرضًا في وقت انشغل العالم برفاهيته وتفاهته.

حسب المفوضة الدولية لشؤون اللاجئين، تحتل سوريا المرتبة الأولى عالميًّا في توريد اللاجئين حتى مارس 2023؛ حيث اضطر أكثر من نصف الشعب السوري إلى مغادرة بيوتهم وأرضهم، بعدد 13 مليون لاجئ ونازح، بينهم6.2 ملايين نازح في الداخل السوري، 6.8ملايين سوري يعيشون لاجئين خارج البلاد، يتوزعون على 130 دولة، ما يعني أن سوريا وحدها صدرت ما يقرب من 53 ٪ من نسبة اللاجئين في العالم خلال الأعوام السابقة، تتبعها أفغانستان 2.7 مليون، وفي المرتبة الثالثة الصومال 1.1 مليون لاجئ.

شعب في قلب حصار وحرب وزلازل وفيضانات وقهر وبرد

تقول الأسطورة: «إن الوطن ليس فندقًا نتركه عندما تسوء الخدمة»، لكن ماذا إذا انعدمت الخدمات وتحول كل ما في الفندق والوطن إلى تهديد بالقتل والقمع والمرض والبرد والجوع والفقد؟! وتُعرف المؤسسات الدولية إن اللاجئ هو من اضطر إلى مغادرة بلده هربًا من الحرب أو النزاع المسلح أو عدم الأمن الصحي أو الاجتماعي. لكن ماذا لو وجد كل ذلك في بلد واحد؟!

منذ 2011 يعيش السوريون ويلات مستمرة ومعاناة متتالية، بدأت بالحرب التي طال أمدها أكثر من عقد من الزمان، كلفت حسب إحصاء المرصد السوري لحقوق الإنسان عام 2021، عدد قتلى وصل أكثر من 400 ألف شخص، منهم 117 ألف مدني، 22 ألف طفل، 14 ألف امرأة، 81 ألف رجل، 4.1 مليون مُصاب بينهم آلاف من إصابات البتر والإعاقات دائمة، 200 ألف مفقود.[1] إضافة إلى استنزاف البنى التحتية والخدمات العامة، وتهتك النظام الاجتماعي بسبب كثرة اللجوء وعدد القتلى، وعدم قدرة المستشفيات والمدارس على العمل بكامل طاقتها، خروج أكثر من 2 مليون و800 ألف طفل سوري من النظام التعليمي، كما لم يعد بالإمكان استخدام أكثر من 6 آلاف مدرسة، وانخفضت نسبة الالتحاق بالمدارس إلى 74 ٪.

إضافة إلى سقوط النظام الطبي المتكرر خاصة في أوقات الكوارث كما حدث في أزمة كورونا، وانهيار العملة المحلية ليكون الدولار الواحد يساوي أكثر من 10 آلاف ليرة سورية، وتغيير سياسة النظام الأمني ليكثر الاعتقال والقتل على الرأي، فضلًا عن الانقطاع المستمر للمياه والكهرباء وخدمات الإنترنت، وانتشار الطوابير وازدحامها للحصول على ربطة خبز، وأزمات نقص المازوت والمحروقات ووصول أسعارها بما لا يتناسب مع قدرة المواطن العادي، الذي يتراوح مرتبه أو دخله 150 ألف ليرة، أي ما يعادل 15 دولار أمريكيّ حسب سعر صرف السوق غير الرسمية، وأزمات مياه الري وتعدد موجات الجفاف، وموجات البرد القاسية

(1) سوريا في 10 سنوات، موقع قناة الحرة.

في الشتاء التي تؤدي إلى اقتلاع خيام اللجوء وغمرها بالمياه بما لا يسمح بوجود حياة طبيعية، وليصبح 20 ألف نازح من أصل 80 ألفًا كانوا يعيشون في المخيمات يعيشون تحت الأشجار بعد أن فقدوا المأوى، ما أدى إلى وفاة 15 طفلًا بالمخيمات بسبب البرد ونقص المساعدات الطبية في شتاء 2019.

ثم هزات الزلزال المدمر الذي حدث في فبراير 2023 في سوريا وتركيا، والذي بلغت قوته 7.8 درجات على مقياس ريختر، خلّف في سوريا وحدها 6000 قتيل، وإصابة أكثر من 11 ألفًا آخرين، فيما تشرّدت أكثر من 40 ألف عائلة ضمنها مليون شخص، وتضرر بيوت 92 ألف أسرة.[1] لينضموا إلى ضحايا الخراب الكبير الحاصل بسبب الحرب.

قبل الزلزال بأعوام، كان معهد الأمم المتحدة للبحث والتدريب قد نشر أطلسًا عام 2019 يبين مدى الدمار الذي لحق بالمحافظات والمدن السورية خلال الأعوام الثمانية الأولى للحرب في سوريا، يوضح الأطلس أن عدد المباني المدمرة بسبب الحرب في مدينة حلب وحدها بلغ 35 ألف و722 مبنى، وفي غوطة دمشق 34 ألف مبنى، وأكثر من 13 ألف مبنى مدمر في حمص، و12 ألفًا في الرقة، و10 آلاف في حماة، واستند الأطلس إلى تحليل صور الأقمار الصناعية، وعرض خرائط تبين توزُّع الدمار وكثافته في 16 مدينة ومنطقة سورية شهدت أكبر نسبة دمار، ثم جاءت فيضانات نهر الخابور ونهر العاصي في مارس 2023، التي أغرقت كثيرًا من المناطق المحيطة بما فيها الأراضي والبيوت المتضررة، وفي نهاية يوليو 2023، تصاعدت التحذيرات من تعرض 3500 مريض سرطان في الشمال السوري أكثرهم من الأطفال، إلى الموت بسبب عدم وجود مستشفيات كافية وعدم السماح لهم بمغادرة الحدود.

(1) وكالة الأنباء السورية الرسمية: سانا.

مع كل هذه الأسباب وغيرها يمكن إعادة تعريف الوطن كما عرّفه الإمام محمد عبده، بقوله: «الوطن أرضك التي تفتخر بالانتساب إليها، وتعلم حقك عليها كما علمها بحقها عليك، وتأمن فيها على نفسك وأهلك، فلا وطن مع الاستبداد، ولا وطن إلا مع الحرية، وإن وجدت الحرية فلا بد معها من الواجب والحق، فهما شعار الأوطان التي تُفتدى بالأموال والأبدان، وتُقدم على الأهل والخلان، ويبلغ حبها في النفوس الزكية مقام الوجد والهيمان، أما السكن الذي لا حق فيه للساكن ولا هو آمن على المال والروح، فغاية القول في تعريفه إنه مأوى العاجز، ومستقر من لا يجد إلى غيره سبيلًا».

لذلك كانت الهجرة من سوريا مليونية، متعددة الوجهة والوسيلة حتى لو كانت عبر زورق صغير وبحر هائج، وكانت الحكمة تقول يومها: **إذا رأيت أحدهم يغامر بالهجرة هو وأطفاله على زورق متهالك، فاعلم أنه قد هرب مما هو أسوأ من ذلك،** أو كما تقول الشاعرة وارسان شاير: «لا أحد يضع أطفاله في قارب هجرة، إلا لو كان البحر أكثر أمنًا من اليابسة». هكذا كان حال ملايين السوريين الذين غادروا بلدهم إلى بقاع الدنيا.

خريطة توزيع اللاجئين السوريين

تركيا: بحكم الجوار والقرب من سوريا، وبحكم وجود عدد كبير من النازحين السوريين على حدودها، كانت هي أول قائمة الدول الأكثر استضافة للاجئين السوريين حتى عام 2022، ويقدّر عددهم فيها بنحو 3 ملايين و741 ألفًا، يعيش 80 ٪ منهم في مدن إسطنبول وغازي عنتاب وهاتاي، 20 ٪ منهم يسكنون المخيمات التي تُعد بالعشرات خاصة في أورفه، عنتان، كلس، كهرمان مرعش، لواء إسكندرون، عثمانية، أديامان، أضنة، ماردين، ملاطية.

تقوم رئاسة إدارة الكوارث والطوارئ التركيّة التي انبثقت من الحكومة وتدعمها الأمم المتحدة ومجموعة من المنظمات غير الحكومية بإدارة المخيّمات وتنظيمها تحت اسم (مراكز الإقامة المؤقتة)، يقدمون فيها سلات غذائية، موائد إفطار في رمضان،

الخدمات العلاجية والدوائية، تأسيس ملتقيات ثقافية واجتماعية، تشجيع التدريب المهني، لكن مع اشتداد فصل الشتاء وسقوط المطر والثلج، تتطاير الخيام بسبب العواصف، كذلك مع شدة الحرارة في الصيف تكثر الزواحف والحشرات كما حدث في صيف 2023؛ لذا تكثر نداءات الاستغاثة هناك ما بين برد قاتل وزواحف خطرة، خاصة على الحدود بين تركيا وسوريا لصعوبة الوضع الأمني والصحي.[1]

ورغم حصول أكثر من 231 ألف سوري على الجنسية التركية حتى منتصف عام 2023، إلا أن الكثير من العقبات ما تزال تواجه اللاجئين السوريين في هذا البلد أبرزها: الأجور الزهيدة ومشكلات إدماج الطلبة السوريين في التعليم الحكومي، وحملات الكراهية التي تظهر من وقت إلى آخر ضدهم، وتهديد بعض السياسيين الأتراك، خاصة من المعارضة، بترحيلهم.

لبنان: يأتي لبنان في المرتبة الثانية في قائمة الدول المستضيفة للاجئين السوريين؛ حيث ذكرت الأمم المتحدة أن قرابة 1.5 مليون لاجئ سوري، معظمهم لا يملكون أوراقًا نظامية، يقيمون في لبنان، بينما تشير بيانات المفوضية(UNHCR) لعام 2022 إلى أن عدد السوريين المُسجلين لديها في لبنان يبلغ 900 ألف لاجئ، وقدرت الحكومة اللبنانية وجود 500 ألف آخرين يقيمون بصورة غير قانونية، ما يعني وجود ما يقرب من 2 مليون سوري، وهو أكبر من ربع سكان الشعب اللبناني، يعيش 40 ٪ منهم في مستودعات العمل أو ورش البناء أو يتوزعون على3100 مخيم عشوائي يرتكز معظمها في الشمال والبقاع وعكار؛ حيث تعيش هذه المخيمات حياة بائسة وتعاني انقطاع المياه والكهرباء وتقنينها بحيث تكون للطوارئ فقط.

إضافة إلى انتشار كبير للأوبئة والأمراض منها الكوليرا التي ما زالت تتوغل في المخيمات حتى وقت كتابة هذه السطور، مع ضعف وبطء كبير في الاستجابات الدولية، وأكدت التقارير التي تأتي من هناك أن 90 ٪ من الأسر السورية في لبنان

(1) استجابة منظمات المجتمع المدني لأزمات اللجوء السوري، مروة صبحي منتصر، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، العدد 207، 2017، ص94.

تعيش في فقر مدقع في ظل التردي الاقتصادي العام وانهيار سعر العملة اللبنانية، ومع عدم توفير عودة آمنة لهم، تظهر بين الحين والآخر حملات كراهية إعلامية تشتمل على اضطهاد صريح ومطالبة بالترحيل العام والقسري.

الأردن: كانت المملكة الهاشمية وما تزال بابًا مفتوحًا للاجئين سواءً من فلسطين أو العراق، وبعد الحرب السورية بقي الباب كذلك؛ حيث يحتل الأردن حاليًّا المرتبة الثالثة في عدد استقبال اللاجئين بنحو 1.3 مليون سوري، نصفهم يحمل صفة (لاجئ) حسب وزير الخارجية الأردني في 2022، ويعيش 20 ٪ منهم في المخيمات أبرزها الزعتري والأزرق، ويتوزع الباقون على محافظات عمان وإربد والمفرق.

مخيم الزعتري يعد ثالث أكبر مخيم لاجئين في العالم بعد مخيم كوتوبالونغ الواقع في كوكس بازار في بنغلاديش (يقيم فيه مليون شخص أغلبهم من لاجئي الروهينغا المسلمين)، ومخيم كاكوما في كينيا (يضم ما يقرب من نص مليون لاجئ سوداني وأفريقي)، وكثيرًا ما يأتي ذكر مخيم الزعتري في الإعلام بحكم وضعه الإنساني الصعب؛ حيث تم تأسيسه في نهاية يوليو 2012 على مساحة 5.3 كيلومتر مربع ليستوعب 60 ألف شخص، لكن عدد سكانه في العام الأول تجاوز 150 ألف شخص، يعيشون في كرفانات بديلة عن الخيام، وهي عبارة عن بيوت صغيرة من الصفيح المقوى والحديد، ويعانون صعوبة الأوضاع المعيشية وارتفاع أسعار السلع والمواد الغذائية وتراجع المساعدات الدولية، ما جعل 90 ٪ من سكان المخيم يقومون بالتكيف السلبي مع هذا الوضع بالحد من تناول الطعام، أو شراء الاحتياجات المنزلية عن طريق الدين الآجل من أجل استمرار حياتهم اليومية، مع العلم أن الحكومة الأردنية لا تسمح بالاندماج الكامل للاجئين وفقًا لمذكرة تفاهم بين الحكومة الأردنية ومفوضية شؤون اللاجئين.

في المقابل تشارك الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية بتمويل أغلبه من دول خليجية في دعم المخيمات، وتنضم إليها في التنظيم والدعم عدد كبير من الكيانات والجمعيات الإقليمية والدولية مثل: وكالة التعاون التقني، وكالة العون القانوني، مؤسسة كير،

مؤسسة كاريتاس، المنظمة اليابانية للطوارئ، مؤسسة نهر الأردن، فيلق الرحمة الدولي، منظمة العمل لمكافحة الجوع، مركز ضحايا، مجلس اللاجئين الدانماركي، مؤسسة النهوض الاجتماعي، اللجنة الكاثوليكية، هيئة الإغاثة الإسلامية، منظمة أطفال بلا حدود.

ما تم رصده أيضًا أن المخيمات السورية في الأردن يتم دعمها فقط بـ 10 ٪ من احتياجاتها الأساسية، ويعيش 80 ٪ من اللاجئين السوريين في الأردن تحت خط الفقر؛ حيث يعيش أغلبهم على أقل من 3 دنانير يوميًّا (4.2 دولار)، وهو تحت معدل خط الفقر الدولي المحدد بـ5.5 دولار يوميًّا، ما جعل المساعدات النقدية المقدمة من برنامج الغذاء العالمي تمثل شريان الحياة لعائلات اللاجئين خاصة المقيمين في مخيمي الزعتري والأزرق؛ حيث يقدم البرنامج مساعدات شهرية بقيمة 23 دينارًا (32 دولار) للفرد، في حين يتلقى اللاجئون المقيمون خارج المخيمات ممن يصنفون بأنهم ضعفاء مساعدة شهرية بقيمة 15 دينارًا (21 دولار) للفرد، لكن المحزن أنه خلال الشهور السابقة تم حرمان أكثر من 21 ألف لاجئ سوري من هذه المساعدات في أسوأ الأوقات على عائلات اللاجئين التي تكابد من أجل لقمة عيش، في حين فقد الكثير منهم وظائفهم بسبب جائحة كورونا وتوقف الأعمال التي يعملون بها، وعلَّل برنامج الغذاء العالمي هذا القرار بنقص التمويل.

مصر: لم ينس المصريون أن سوريا ومصر كانتا قبل فترة من الزمان دولة واحدة، بجيش ورئيس واحد، تحت اسم (الجمهورية العربية المتحدة) التي ما زال إلى اليوم علمها الأكبر موجودًا وبارزًا على مدخل برج القاهرة التاريخي، ما جعل مصر تحفظ صدارتها في قائمة الدول المُستقبلة للسوريين، حتى الذين فقدوا أوراقهم الثبوتية من السوريين يتم استقبالهم بعد توثيق وتوفيق أوضاعهم، ليبلغ عددهم في 2022 بمصر حسب المنظمة الدولية للهجرة 1.5 مليون سوري، يمارسون حياتهم بشكل طبيعي ويسير عليهم ما يسير على المصريين (إلا قليلًا)؛ ففي تصريح لها عام 2017، قالت وزارة الخارجية المصرية: «إن مصر عاملت السوريين بالشكل

الذي يحفظ لهم كرامتهم؛ حيث لم تُقم أي مخيّمات لجوء، وسمحت لهم بحريّة التنقّل في جميع أنحاء البلاد، كما سمحت لـ 44 ألف طالب سوري بالتسجيل في مرحلة التعليم ما قبل الجامعي».

العراق: فتحت العراق أرضها للاجئين السوريين منذ اليوم الأول للأزمة بحكم العلاقات السورية العراقية التاريخية؛ حيث يوجد في العراق حسب منظمة يونسيف 2022 ما يقارب من 260 ألف لاجئ وطالب لجوء سوري، أغلبهم يوجدون في إقليم كردستان العراق، يسكن المخيمات 95.745 شخصًا ويتسلم 27 ألفًا منهم معونات غذائية ونقدية منقذة للأرواح من برنامج الغذاء العالمي، بينما تقوم مفوضية اللاجئين بتوفير الكثير من الخدمات منها الدعم القانوني وخدمات التسجيل وتوزيع المعونات النقدية والدعم في التعليم، لكن ما زال 86 ٪ من ساكني المخيمات من اللاجئين (دهوك، أربيل، السليمانية، الأنبار) يعانون انعدام الأمن الغذائي، وتشتد مع الوقت مظاهر حدة ومخاطر الحماية في هذه المخيمات مثل عمالة الأطفال وتزويج القُصّر وسوء الوضع الصحي، ما جعل المكتسبات التي تحققت في السابق من قبيل بناء استقلالية اللاجئين بالعراق يتهددها الضياع بسبب شح الموارد والتبرعات وقلة فرص العمل، ما جعل 60 ٪ من أسر اللاجئين تقوم بتقليل المقادير الإجمالية لاستهلاك الغذاء، وأصبحت تعتمد على الديون التي أصبحت تتراكم، مع العلم أن ثلث هذه الأسر تقريبًا يعيش على المساعدات الإنسانية النقدية، كما أكدت يونسيف على تصاعد خطر حرمان الأطفال من التعليم النظامي.

تونس: تعد تونس من الدول الجاذبة للاجئين بحكم كونها دولة معبر رئيسية إلى أوروبا عبر المتوسط، ففي عام 2023 فقط وصل عدد اللاجئين وطالبي اللجوء في تونس إلى 9 آلاف و547 لاجئًا قادمين من نحو 45 دولة؛ ليكون عدد اللاجئين لديها ما يزيد عن 21 ألف لاجئ، وهو ما جعل الحدود التونسية مناطق ملتهبة ومواجهات مفتوحة بين اللاجئين والأمن التونسي، وفي النصف الأول من 2023 تجاوزت تونس ليبيا كنقطة انطلاق لقوارب الهجرة المتوجهة إلى إيطاليا،

حسب المفوضية فإنّ 69.599 شخصًا وصلوا إلى إيطاليا من بداية هذا العام إلى يوليو2023 عبر البحر الأبيض المتوسط، انطلق منهم من تونس 37.720، بينما انطلق 28.558 من ليبيا، والبقية من تركيا والجزائر، ما جعل الاتحاد الأوروبي يعلن في 16 يوليو 2023 عن توقيع شراكة واستراتيجية جديدة مع تونس وحزمة تمويل بقيمة مليار يورو، منها 105 ملايين يورو لإدارة الحدود والبحث والإنقاذ ومكافحة التهريب وإعادة اللاجئين.

منذ 2011 أصبحت تونس وجهة نهائية لمجموعات جديدة ومتنوعة من اللاجئين العرب والأفارقة ومعهم اللاجئين السوريين؛ حيث يُشكلون ربع عدد اللاجئين المسجلين في تونس، وصل عددهم 4 آلاف سوري.[1] وتبين أن أغلبهم يتبعون مسارات أقاربهم المعهودة ويستقرون في مجموعات وتكتلات سكانية، ويمكن أن يؤدي اعتمادهم المُفرط على الشبكات العائلية إلى حصرهم في أماكن نائية، ويتعين عليهم البقاء على قيد الحياة بالاعتماد على المساعدة الإنسانية القليلة أو دونها، ويشير مكتب المفوضية إلى أن طلبات اللجوء من السوريين وصلت إلى 6500، لكن كل السوريين الذين قدموا طلبات لجوء إلى المفوضيّة يحصلون على صفة طالب لجوء ولا يحصلون على حق اللجوء، ما أدى (حسب تقرير رصيف 22) إلى وضعيّة تهميش وإقصاء وصعوبات في الاندماج تظهر بشكل كبير عبر مشكلات التحاق الأطفال بالتعليم في المدارس التونسيّة، برغم أنّ القانون يسمح بتدريس أبناء اللاجئين وطالبي اللجوء لكن هناك مشكلات في التطبيق، لأنّ المدارس التونسيّة تستعمل اللغة الفرنسيّة، وهناك صعوبات مرتبطة بأداء بعض مديري هذه المدارس الذين يرفضون قبول أطفال اللاجئين بادعاء صعوبات التعليم عليهم. إضافة إلى أن النظرة الرسمية والشعبية للاجئين في تونس غالبًا ما تراهم مجرد ساعين إلى الهجرة غير النظامية إلى أوروبا، في الوقت الذي يُجرم القانون

(1) اللاجئون وطالبو اللجوء في تونس، unhcr.org

التونسي الهجرة غير النظامية، ما يجعل اللاجئين يفضلون الانعزال والانغلاق على أنفسهم خشية الإيقافات والتتبعات.

السوريون في الداخل السوري

يتوزّع نحو 7 ملايين نازح على 3 مناطق رئيسية في سوريا، وهي الشمال الشرقي والشمال الغربي ومناطق سيطرة النظام وسط وجنوبي البلاد، ويقدّر عدد النازحين في الشمال بنحو 2.8 مليون نازح،٪ 80 منهم نساء وأطفال، بينهم 46 ألفًا من ذوي الاحتياجات الخاصة، وحسب إحصائية لفريق منسقي الاستجابة في سوريا، بلغ عدد سكان المخيمات في الشمال نحو مليون و44 ألف نازح يعيشون في 1293 مخيمًا بينهم 282 مخيمًا عشوائيًّا لا يحصلون على أي دعم أو مساعدة إنسانية أممية. ويبلغ عدد المخيمات في شمال شرق سوريا 15 مخيمًا منها 6 في الحسكة التي تحتضن أكبر عدد من النازحين، وهي مخيمات الهول، العريشة، وروج، نوروز، سريه كانيه، واشو كاني، كما توجد 5 مخيمات في شمالي حلب وهي برخدان، سردم، العودة، عفرين، الشهبا.

يعيش أهالي المخيمات ظروفًا قاسية خاصة في فصل الشتاء تزامنًا مع هطول الثلوج التي تتسبب في صعوبات إضافية في ظل عدم توفر المحروقات والكهرباء ووسائل تدفئة بديلة، وتؤدي إلى إغلاق الطرق التي تصل عبرها المساعدات الإنسانية. وكشفت دراسة أجرتها منظمة الدفاع المدني السوري شملت 192 مخيمًا، أن فصل الشتاء 2022 خلف أضرارًا في 160 مخيمًا بنسبة 83 ٪، في حين لم تتخط نسبة عمليات الاستجابة الإنسانية 40 ٪ فقط من المخيمات المشمولة بالدراسة. وحسب الشبكة السورية لحقوق الإنسان فإن 167 شخصًا ماتوا بردًا منذ عام 2011، بينهم 77 طفل. ويعاني النازحون في مناطق سيطرة النظام سوء الواقع المعيشي في ظل انهيار سعر صرف الليرة السورية مقابل العملات الأجنبية، وانقطاع الكهرباء من 18 إلى 20 ساعة يوميًّا، إضافة إلى ارتفاع إيجار الشقق السكنية

وانعدام فرص العمل. وبشكل عام فإن الأمم المتحدة قدرت أن 90 ٪ من السكان في سوريا يعيشون تحت خط الفقر ويواجه 70 ٪ منهم نقصًا حادًّا في الغذاء.

السوريون في أوروبا

ألمانيا: منذ بداية الأزمة ودول القارة الأوروبية وخاصة ألمانيا، تتلقى آلاف من طلبات لجوء السوريين بمجرد وصولهم إلى هناك عبر رحلات أغلبها رحلات موت عبر المتوسط والمشي آلاف الكيلومترات بالأيام والأسابيع وأحيانًا بالشهور على الحدود، وأحيانًا يكون السفر في حاويات قمامة ومواد خطرة، أو بين عربات القطارات السريعة، معرضون أنفسهم لخطر السجن على يد حرس الحدود أو الضرب والقتل على أيدي المتعصبين ضد اللاجئين الذين يُعدون أسوأ من الجنود في معاملة المهاجرين، ثم يصلون إلى ألمانيا، التي أعلنت في 2021 عن تلقي 100 ألف و278 طلبًا للحصول على حق اللجوء من السوريين.

ومنذ بداية الحرب السورية إلى اليوم تُعد ألمانيا بوابة السوريين إلى أوروبا ووجهتهم الأولى، بسبب دعم السلطات الألمانية وترحيبها باللاجئين ومنحهم الجنسية بسهولة نسبية عن غيرها، وحسب المكتب الإحصائي الاتحادي الألماني (Destatik)في يوليو 2023، فإن عدد السوريين في ألمانيا بلغ 900 ألف سوري، وهو أعلى رقم لاجئين هناك منذ عام 2011، ويشير المكتب إلى أن عدد السوريين هناك لم يكن يتجاوز 30 ألفًا في عام 2009، وتوالت بعد ذلك طلبات الحصول على الجنسية من اللاجئين، وحصل عليها بالفعل ما يقرب من 50 ألف سوري حتى بداية 2023، خاصة في الولايات التي تُسهل منحها مثل ولاية راينلاند بفالتس؛ حيث حصل على الجنسية الألمانية بها 1534 سوري، ولاية بافاريا منحت 2033 شخصًا، ولاية تورينجيا منحت 250 شخصًا.

السويد: استقبلت السويد قرابة 191 ألف لاجئ سوري، وجاءت في الترتيب بعد ألمانيا كأكثر الدول الأوروبية طلبًا للجوء منذ 2011، وبلغت حركة الطلبات ذروتها عام 2015. وتعد الجالية السورية حاليًّا الأكبر في البلاد؛ حيث تبلغ 1.7 ٪

من سكان السويد. ووفق مكتب الإحصاء السويدي لعام 2018 قد حصل 189 ألف سوري على الجنسية أو الإقامة، وفي عام 2021 حصل على الجنسية 28 ألف سوري، وحقق كثير ممن وصلوا نجاحات في مختلف المجالات خلال فترة وجيزة من عيشهم واندماجهم مع المجتمع، لكن بعد زيارة وفد سويدي يتبع دائرة الهجرة السويدية إلى دمشق 2021 للاطلاع على الأوضاع هناك عن قرب، خرج بنتائج صدمت اللاجئين؛ إذ أفضى إلى اعتبار (دمشق آمنة)، ويمكن عودة أبناء المدينة النازحين إليها مجددًا.

كما أدت نتائج الانتخابات السويدية التي أجريت في سبتمبر 2022، إلى الصدمة الكبرى بوصول الأحزاب اليمينية إلى سدة الحكم في الدولة الإسكندنافية، وشاع القلق في صفوف اللاجئين السوريين وخاصة الذين لم يحصلوا على جنسية البلد في ظل اتفاق أحزاب اليمين على وضع سياسة جديدة اتجاه الهجرة واللاجئين، ويبدو أن الأمر قد بدأ بالفعل وإن كان في مرحلة الترغيب؛ حيث أعلنت الحكومة السويدية تشجيعها اللاجئين والمهاجرين للعودة إلى بلادهم، بتخصيص مكافأة مالية تصل إلى 4 آلاف دولار.

هولندا: يعيش في هولندا ما لا يقل عن 2 مليون مهاجر من جنسيات مختلفة، إضافة إلى أبنائهم الذين وُلدوا هناك وأصبحوا هولنديين، وما زالت هولندا تستقبل آلاف من طلبات اللجوء كل عام من دول عدة تأتي سوريا في أولها؛ حيث أعلنت الوكالة المركزية لاستقبال طالبي اللجوء في هولندا أنها تلقت 285 ألف طالب لجوء خلال الفترة من عام 2014 حتى 2022. وبلغ عدد الذين حصلوا على تصاريح إقامة نحو 215 ألف شخص، وكان نصيب السوريين أكثر من نصفهم. ووفقًا للإحصاء الهولندي، فإن نحو 37.8 ٪ فقط من اللاجئين السوريين في هولندا في سن العمل القانوني وقادرون على كسب لقمة العيش، في حين يعتمد 62.5 ٪ منهم على رعاية الدولة.

أيرلندا الشمالية: تتعامل أيرلندا الشمالية بحرص في ملف اللاجئين تحت شعار (البلد ممتلئة)، صحيح أنها توطِّن اللاجئين لكن الأمر ليس سهلًا ولا سريعًا؛ ففي 2015 وطَّنت 3775 مهاجرًا معظمهم سوريون منذ تأسيس برنامج حماية اللاجئين في أيرلندا، كما يتم إجراء مقابلات شديدة ودقيقة معهم، ولا يخضعون لنظام الدعم المباشر. وفي عام 2019 قامت بإعادة توطين 2900 سوري آخرين قادمين من لبنان والأردن، ومع ذلك يتسم وضع اللاجئين هناك بالسوء حسب بريدج مكفرسون (متحدثة مركز المرأة في مدينة ديري الأيرلندية) التي أكدت أن العائلات اللاجئة تواجه تحديات صعبة ورعاية صحية مزرية، وأن كثيرًا من الخدمات غير متوافرة لهم إلا في العاصمة بلفاست.

سياسة الأبواب المغلقة

في يوليو 2023 تم بث تقارير إعلامية كثيرة حول وضع اللاجئين على الحدود بين بولندا وبيلاروسيا، أكدت أن اللاجئين تصلهم رسائل نصية عبر الهاتف بلغات عدة منها العربية نصها «لا تقتربوا، وإلا ستُعرَّضون للسجن، عودوا إلى دياركم». وكانت منظمة أطباء بلا حدود أشارت إلى أن 21 شخصًا على الأقل لقوا حتفهم في أثناء محاولة عبور الحدود من بيلاروسيا إلى بولندا عام 2021، وما زال اللاجئون هناك في مواجهة البرد القارس بلا طعام أو مياه أو مأوى أو ثياب دافئة أو إمكانية الحصول على الرعاية الصحية، وفي ظل استمرار السياسات الأوروبية هناك وتقييد إمكانية وصول المنظمات الإنسانية لتقديم الدعم، ما يعرض عدد أكبر منهم للموت جوعًا أو عطشًا أو بردًا أو مرضًا نظرًا لهذه الظروف القاسية.

كذلك تحدثت الأخبار والوثائقيات المصورة حول تعرض السلطات اليونانية لتهم كثيرة منها إجبار اللاجئين عبر البحر والواصلين إلى مياهها الإقليمية بالعودة إلى المياه التركية، وارتكاب خفر السواحل اليوناني انتهاكات بحق طالبي اللجوء، تصل إلى حد التعرض لهم بالضرب والتعذيب والقتل العمد في البحر، واستخدام عصابات دولية مُستأجرة لحماية الحدود والسواحل من اقتراب اللاجئين إليها.

وعلى الرغم من فتح كثير من الدول العربية أبوابها للسوريين تضامنًا مع أزمتهم الإنسانية وحفاظًا على حياتهم، فإن هناك دولًا أغلقت أبوابها تمامًا في وجوههم، وبعض البلاد التي فتحت أبوابها تعمل على طردهم بوسائل لا إنسانية مثل تعقيد إجراءات الإقامة أو المغالاة في أسعار الخدمات العامة عليهم، ونسي هؤلاء أن سوريا التي يمنعون عنها الحياة ويغلقون أبوابهم عن أهلها قد احتضنت:

- اللاجئين من الشركس 1860.
- اللاجئين من الشيشان 1864.
- اللاجئين من الأرمن 1914.
- اللاجئين من فلسطين 1948.
- اللاجئين من فلسطين 1967.
- اللاجئين من الكويت 1990.
- اللاجئين من لبنان 1996.
- اللاجئين من العراق 2003.
- اللاجئين من لبنان 2006.

يكتب التاريخ هذا لسوريا التي صنعت الجميل والمنح، وستقرأ الأجيال ردود فعل بعض العرب بعد أن وقعت سوريا في المحن، ستقرأ أن سوريا لم تغلق بابها يومًا بوجه نازح أو لاجئ أو مظلوم، وأن سوريا لم تطلب يومًا تأشيرة دخول من عربي يريد الزيارة أو الإقامة أو السياحة أو المرور، وأن سوريا لم تنصب أبدًا خيمة لنازح أو مشرد أو طريد من بلد، بل كانت الأحياء والشوارع ساحة لوصل شمل الوافدين واللاجئين من الخليج إلى المحيط، وسيكتب التاريخ كذلك أن السوري عندما احتاج مأوًى طرده بعض العرب من حدود أرضه، أو بعد دخولها تعرض للتضييق والترحيل، لكن لا بأس.. **بقي في الدنيا كثير من المجتمعات بها خزائن خير.. تثبت أن العالم ما زال يستحق لقب (إنساني)، وإن كان فيه مجتمعات يسود بها أشباه بشر.**

اللاجئون اليمنيون

من كان مثلي غريب الدار ما له مقر
فما عليه إن بكى وأبكى الحجر والشجر.

الشاعر اليمني مظفر الإيرياني

لم يلتئم جرح الأزمة السورية التي بدأت في 2011، ليظهر جرح كبير في اليمن الذي يعد (حتى قبل أزمته) أفقر دول منطقة الجزيرة العربية، ومع ذلك كان اليمن من أكبر الدول العربية المستضيفة للاجئين؛ فعلى الرغم من النزاع السياسي المستمر قبل 2014 استقبل 137 ألف لاجئ وطالب لجوء من السودان وإثيوبيا وغيرها، وكان ثاني أكبر الدول المُستقبلة للاجئين الصوماليين في العالم وفقًا لمفوضية شؤون اللاجئين، بحكم وقوعه على مفترق طرق جغرافي للهجرة والتحركات العابرة من القرن الأفريقي وما وراءه، إضافة إلى أن اليمن الدولة الوحيدة في شبه الجزيرة العربية المُوقعة على اتفاقية اللاجئين لعام 1951، لكن وضع هؤلاء اللاجئين الأفارقة وغيرهم تغير هناك بسبب تحول نسبة كبيرة من اليمنيين إلى لاجئين.

بعد سيطرة الحوثيين على السلطة عام 2014، قلقت دول إقليمية بحكم تقارب جماعة الحوثي مع إيران؛ فبدأت الحرب على اليمن بتدخل الخليج العربي بقيادة السعودية 2015، ومع استمراره للسنة التاسعة، تدهورت الأوضاع الاقتصادية والأمنية والاجتماعية والصحية، ليسجل اليمن واحدة من أسوأ الكوارث الإنسانية في العالم، خاصة مع كثرة القتلى الذين زاد عددهم عن 377 ألف شخص قُتلوا بشكل مباشر وغير مباشر منذ اندلاع الحرب حتى نهاية 2022، بينهم 11 ألف طفل.

وفقًا لبيان الأمم المتحدة 2022، يواجه أكثر من 20 مليون يمني خطر الجوع بنسبة 9.7 ٪ من سُكان اليمن، بينهم 1.3 مليون امرأة حامل ومرضع لديهن سوء تغذية حاد، وعدد 160 ألف يمني على حافة خطر الموت جوعًا.[1] ما يُفسر تفشي ظاهرة بيع الآباء لأطفالهم في اليمن مقابل ثمن زهيد لإطعام باقي أسرهم، وأصبح نحو 23.4 مليون يمني (73 ٪ من السكان) يعتمدون على المساعدات الإنسانية لتلبية احتياجاتهم الأساسية.[2] وعلى الرغم من عودة حوالي 1.3 مليون نازح إلى ديارهم من أصل 4 ملايين يمني نزحوا منذ اندلاع الحرب، ما يزال أغلبهم عُرضة للخطر إلى اليوم، ما يجعل اختيار الهجرة واللجوء هو قرار الكثير منهم.

اللاجئون اليمنيون بين قارتين

بدأت موجات اللجوء والنزوح اليمني تظهر على الخريطة في 2015؛ حيث سجلت المفوضية نزوح أكثر من 4.3 مليون يمني داخليًّا حتى شهر مارس 2022، اضطر الكثير منهم بعد ذلك إلى اللجوء خارج اليمن خاصة إلى القرن الأفريقي عبر مضيق عدن، ووصل إلى السعودية 39 ألف، وإلى سلطنة عمان 51 ألف، أغلبهم لهم صلات عائلية في السلطنة التي أغلقت حدودها مع اليمن لاحقًا انتهاجًا لسياسة السعودية التي فعلت قبلها الشيء نفسه بسبب الأحداث الأمنية، واضطر بعضهم إلى القيام برحلات شاقة إلى جيبوتي ووصلها 15 ألف يمني لتبنيها سياسة الباب المفتوح.

كذلك إلى الصومال اتجه 7.5 آلاف يمني على متن قوارب صيد صغيرة، ولجأ إلى إثيوبيا 4 آلاف شخص يعيش معظمهم في مناطق بعيدة في ضواحي العاصمة أديس أبابا، بينما تمكن 14 ألف يمني من الوصول إلى الأردن (منطقة الجبيهة شمالي العاصمة الأردنية عمّان)، وإلى مصر ما يقرب 500 ألف يمني، مسجل منهم

(1) Week Eight: Yemen Institute for Migration Studies Lebanese American University

(2) واقع النزوح في اليمن، uromedmonitor.org

كلاجئ 10 آلاف فقط (حسب السفير اليمني بالقاهرة) ويعيش معظمهم حول أو في أحياء فيصل والدقي ومنطقة أرض اللواء بالقاهرة.[1]

ظن العديد من اللاجئين اليمنيين، وخاصة أولئك الذين فروا إلى مصر والأردن في بدايات الصراع، أن الأمر لن يستغرق سوى أسابيع أو أشهر ثم تنتهي الحرب ويعودون إلى ديارهم، لكن ظروفهم المعيشية تدهورت مع استمرار الصراع؛ فاضطروا إلى التسجيل لدى المفوضية للحصول على مساعدات وتقنين أوضاعهم، ورغم تسجيل اللاجئين اليمنيين في المنظمات الدولية، إلا أن الكثير منهم يؤكد على عدم تكافؤ الفرص في الوصول إلى الخدمات المكفولة بموجب القانون الإنساني والاتفاقية الخاصة بوضع اللاجئين، ورغم حصول اليمنيين على بطاقات اللجوء الصادرة عن المفوضية يؤكدون أن نسبة إعادة توطينهم ما تزال منخفضة مقارنة بغيرهم من اللاجئين من بلاد أخرى، كما رفضت الولايات المتحدة ودول أوروبية استقبال اللاجئين اليمنيين أو إدراجهم في الحصص المخصصة لإعادة التوطين.

بالطبع كانت هجرة اليمنيين من أرضهم بسبب الحرب حافظة لحياتهم، لكن اللجوء والهجرة لم يوفر لهم حياة إنسانية كما ظنوا؛ فأغلبهم ما زال يعاني محدودية الوصول إلى الخدمات الأساسية ومصادر كسب الرزق، والمأوى، والخدمات الصحية والتعليمية. إضافة إلى حالة من عدم اليقين بشأن تحديد وضع اللجوء لهم وإمكانية إعادة توطينهم، كذلك يواجهون صعوبة في إصدار تصاريح الإقامة، ويتزايد التخوف لدى الكثير منهم من الترحيل، خاصة مع ظهور حالات سوء معاملة من قِبل المفوضية وحملات الكراهية التي تخرج من وقت إلى آخر من الدول المضيفة، والتعرض إلى العنصرية، ما أدى إلى صعوبة التكيف مع الهجرة.

(1) منسيون في الغربة: اللاجئون اليمنيون، sanaacenter.org

اللاجئون السودانيون

في زمن الكوارث لا يصبح الرعب طبقيًّا
تحمله الوجوه الخشنة والمتعبة فقط
ولكن تحمله وجوه أكثر البشر.

الأديب السوداني أميرتاج السر

كانت ما تزال قضايا وهموم اللاجئين في سوريا واليمن وغيرها مشتعلة ومنتشرة في وسائل الإعلام، إلى أن زادت اشتعالًا بتفجير قضايا اللاجئين من السودان بعد النزاع المسلح بين الجيش السوداني وقوات الدعم السريع شبه العسكرية في إبريل 2023، في وقت كان قبله السودان يعاني أعلى مستويات الاحتياجات الإنسانية منذ عقود، ولم يكن تعافى من آثار الحروب الأهلية المتكررة التي استمرت لما يقارب 70 سنة، ولم توقفها الإطاحة بالرئيس عمر البشير في 2019.

السودان.. حرب لا تنتهي

السودان، هذه الدولة التي تسبح على بحيرات جوفية هائلة للبترول، كان إنتاج النفط في جنوبها فقط يصل إلى نصف مليون برميل يوميًّا بمخزون تعدى إلى أربعة مليارات برميل، مع امتداد هذه البحيرات في الشمال، ومع ذلك لا يظهر أثر هذه الثروة البترولية المهولة وغيرها من المعادن والثروات الطبيعية على حياة المواطن السوداني بسبب الحروب الأهلية المتتابعة، واستمرار زعامات السودان في ممارسة ترف الخلافات والمماحكات السياسية العبثية، بينما الشعب الذي امتن الله عليه بالأرض الشاسعة الخصبة وبالغابات والثروة الحيوانية ووفرة المياه والنفط،

يعاني مرارات الجوع والحرمان على مستوى طبقاته الدنيا والمتوسطة.[1] فقد تسببت الحرب الأهلية الأولى في السودان التي امتدت من عام 1955 إلى 1972م بعد قيام حركات التمرد والمطالبة بفصل الجنوب عن الشمال، في وقوع ما يقرب من نصف مليون قتيل وتشريد مئات الآلاف خلال 17 سنة حرب.

لم تبرد الحرب الأولى حتى قامت الحرب الأهلية السودانية الثانية عام 1983 واستمرت حتى 2005م، وتعد من أطول وأعنف النزاعات المسلحة في العالم؛ حيث راح ضحيتها 2 مليون قتيل، وشردت 4 ملايين ما بين لاجئ ونازح خلال 22 سنة، انتهى الصراع بها رسميًّا مع توقيع اتفاقية نيفاشا للسلام في يناير 2005، واقتُسمت السلطة والثروة بين حكومة رئيس السودان عمر البشير في الشمال وبين قائد قوات الحركة الشعبية لتحرير السودان جون قرنق في الجنوب.

الحرب السودانية في الجنوب

بعد انفصال الشمال عن الجنوب، حدثت انشقاقات ومحاولة انقلاب في سلطة دولة الجنوب، ما أدى إلى نزاع مسلح شرس بدأ في ديسمبر 2013 واستمر حتى سبتمبر 2018. راح ضحيته ما يقرب من 400 ألف قتيل وما يزيد عن 2 مليون مشرد ما بين نازح ولاجئ، يُضاف إلى هذه الحروب أيضًا حروب جنوب كردفان والنيل الأزرق وجبال النوبة التي سُميت بالحرب الأهلية السودانية الثالثة في 2011.

أزمة دارفور

تزامن مع نهايات الحرب الأهلية السودانية الثانية اندلاع أزمة دارفور2003، هذا الإقليم الذي يقع غرب السودان، ويشتمل على مساحة تُقدر بـ 20 ٪ من مساحة الدولة، ما يعني أن مساحته تزيد عن مساحة دولة العراق وتقترب من مساحة دولة فرنسا كاملة، وهو إقليم يتمتع بطاقات بشرية وثروات طبيعية هائلة،

(1) السودان وأهل السودان، يوسف الشريف، ص43 – 56.

كان حتى القرن الـ 17 سلطنة عظيمة تُسمى (سلطنة الفور) يُرسل منها كسوة الكعبة المشرفة حتى عهد السلطان علي دينار، ويتم من خلاله تأمين قوافل الحجاج القادمة من أفريقيا، انتهى عهد السلطنة بعد توغل الاحتلال البريطاني والطموح الفرنسي في ثروات أفريقيا مع مقاومة علي دينار لهم، فتم التخلص منه عبر وحدة خيّالة أوروبية مكونة من 100 مُسلح تُسمى ((Huddlestonحيث قتلوه في معكسره في جوبو، بعدها وقعت دارفور ضمن نطاق أفريقيا الاستوائية الفرنسية في عام 1919.[1]

يحتوي دارفور موارد ضخمة من البترول واليورانيوم والنحاس والذهب، لكنها كالعادة ليست لشعبها الذي يسكن الإقليم وقت الأزمة في 2003، بتعداد يقترب من 5 ملايين نسمة (10ملايين حاليًّا)، يعمل أغلبهم في الزراعة والرعي، وليس بينهم فوارق ثقافية ولا لغوية ولا دينية ولا عرقية تستدعي أي نزاع كبير برغم نظام القبائل الاجتماعي الحاكم، لكن شدة الفقر وغياب الدولة في التنمية جعلهم متحاربين.

مع الكتلة السكانية التي تزداد بشكل كبير وسريع والمساحة الجغرافية الهائلة في دارفور، إلا أن الإقليم كان غائبًا عن خطط التطوير ومستبعدًا في التمثيل السياسي والإداري منذ استقلال السودان عن مصر عام 1956؛ حيث انخفض التمثيل السياسي والإداري من 23 ٪ إلى صفر، واستمر الصفر ثابتًا منذ 1956 إلى اليوم، كذلك تم نسيان أو تجاهل الإقليم من سياسة الدولة في التنمية والرعاية العامة، واستمر هذا التجاهل بسبب إرهاق ميزانية الدولة في حرب الشمال والجنوب؛ فلا مشروعات تنموية زراعية ولا صناعية رغم كثرة الموارد والأيدي العاملة؛ ما أدى إلى تدهور الزراعة بشكل كبير، مع عدم وجود بنية تحتية للكهرباء والصرف الصحي، وعدم وجود مدرسة أهلية واحدة في الإقليم رغم عدد سكانه المهول.

(1) تاريخ السودان الحديث، روبرت أو.كولينز، ص329.

كذلك لا وجود للمستشفيات والخدمات العامة، وتم تهميش الإقليم عن العاصمة بعدم تمهيد الطرق بينهما، مع فرض الضرائب على أهل الإقليم. أدى كل ذلك وغيره إلى تفشي البطالة وانتشار الفقر وزيادة معدلات النهب والسرقة، وبسبب ندرة المياه وقلة الأمطار وما ترتب عليها من جفاف وقحط وتناقص في إنتاج المحاصيل الزراعية الغذائية، كان الجو ملائمًا لقيام النزاع المسلح الذي بدأ بتعارك بسيط بين أفراد من قبيلة عربية سودانية وقبيلة سودانية أخرى من أصول أفريقية؛ لأن القبيلة الأولى اضطرت إلى تغيير منطقة الرعي بسبب شدة الجفاف في مناطقها المعتادة وتحولت إلى المناطق الزراعية، فكانت الماشية تضر بالزراعة، فقامت القبيلة الثانية التي تعمل بالزراعة بالتعارك مع القبيلة التي تعمل بالرعي، ولأن النظام السياسي أضعف حكم القبائل الإداري الذي كان يفض هذه النزاعات بلا وضع بديل آخر؛ فاستدعت القبائل السلاح وتكونت الميليشيات.

دخل السلاح الخفيف والثقيل من الدول المجاورة بكثرة؛ فبعض التقارير تحدثت عن دخول نصف مليون قطعة سلاح إلى الإقليم في هذا الوقت، وتدخل الجيش السوداني والشرطة في مقابل حركتين مسلحتين متمردتين على النظام السياسي، وتدخلت دول أوروبية وإقليمية على خط السلاح؛ فبدأت الحرب في فبراير 2003، حرب كانت مخبأة تحت رماد غياب التنمية والعدالة الاجتماعية والسياسية وابتلاع المركز لحق الهامش في الحياة، حرب تنبأ بها علماء الاجتماع بتأكيدهم على أن **وجود الجماعات المُستبعدة أو التي تشعر أنها مُستبعدة يشكل خطرًا يهدد بتقويض وحدة الدولة.**[1]

بدأت الحرب ولم تنته تمامًا إلى اليوم، بل يُخشى من تأزم الأمر وتوحُّش النزاع في دارفور بعد دخول قوات الدعم السريع الإقليم والسيطرة عليه منذ بداية أغسطس 2023، ما يعني سلاحًا أكثر في يد القبائل المتناحرة. تجاوزت أزمة دارفور 20 سنة

(1) الاستبعاد الاجتماعي، تحرير مجموعة مؤلفين، ص23.

راح ضحيتها 300 ألف شخص، وما يزيد عن 2 مليون لاجئ ونازح.[1] شهدوا آلاف الجرائم وانتهاكات حقوق الإنسان، ما اضطرهم إلى الفرار بشكل جماعي إلى الدول المجاورة مثل ليبيا وأوغندا وكينيا وإثيوبيا ومصر، إضافة إلى تهجير أعداد كبيرة من السكان من بيوتهم قسريًّا إلى مناطق أخرى داخل الحدود السودانية.

شعب تحت دوائر الانقلاب والسيول والحروب

في عام 2019 جلبت الإطاحة بالرئيس عمر البشير التفاؤل بأن البلاد ستعود إلى الحكم المدني، ومع ذلك فقد أدى الانقلاب العسكري الذي وقع بعد ذلك بعامين إلى حل الحكومة المدنية الانتقالية، ما أثار اضطرابات سياسية واقتصادية، إضافة إلى سوء الأحوال الجوية التي أدت إلى الفيضانات والجفاف، فأثرت على حياة مئات الآلاف من الأشخاص في جميع أنحاء البلاد، وتسببت في تلف المحاصيل ونفوق الماشية وتعقيد الأمور على العائلات من أجل وضع لقمة على المائدة، ما اضطر أكثر من 860 ألف سوداني إلى اللجوء.

منتصف إبريل 2023 كان بداية النزاع المسلح داخل الجيش السوداني، الذي أدى إلى انفجار الوضع الإنساني مرة أخرى مع ندرة الموارد والاحتياجات الأساسية والغذاء والدواء، هذا مع مواجهة البلاد مستويات قياسية من الأمطار والسيول التي أغرقت البيوت وسوتها بالأرض في بعض الولايات، وتأثر بها 900 ألف شخص على الأقل بشكل مباشر، ووضعت 7.7 مليون شخص في أزمة إنسانية، ما جعل مؤسسات ووكالات الإغاثة المحلية والعالمية تتحرك إلى هناك لتقديم المساعدة، إلى أن اشتدت الاشتباكات المسلحة فقيدت عملهم، وتعرضت إمدادات المساعدات للنهب، وعدّ المسؤول الأممي السودان من المناطق الأكثر صعوبة على العاملين في المجال الإنساني، مؤكدًا أنه لا يمكن العمل في ظل استمرار القتال بين الطرفين. في هذا الوقت فرّ حوالي 200 ألف سوداني خارج البلد ونزح 700 ألف داخل حدودها.

(1) مشكلة دارفور، زكي البحيري، ص87.

كانت جميع الدول المجاورة التي طالتها تأثيرات هذه الحالة الطارئة تستضيف بالأصل أعدادًا كبيرة من اللاجئين الأفارقة في ظل مستويات متضائلة من التمويل الإنساني، خاصة دول مثل تشاد وجنوب السودان (الأقل نموًّا في العالم) كانت تصارع مشكلات الجوع وانعدام الأمن والآثار المترتبة عن تغير المناخ؛ ما جعل الأمم المتحدة تجدد مرارًا وتكرارًا دعوتها الجيش السوداني وقوات الدعم السريع لوقف فوري لإطلاق النار والسماح بإيصال المساعدات الإنسانية إلى المتضررين من الحرب، لكن كالعادة.. بلا جدوى.

تواصلت الاشتباكات لشهور وزادت الحياة قسوة في السودان مع انقطاع الكهرباء وتوقف المستشفيات، وزيادة أسعار الغذاء بأشكال مخيفة بسبب ندرتها، حتى أسعار مياه الشرب أصبحت في غير المتناول بسبب قلتها في بعض المدن مثل مدينة الأُبيّض، ما دفع بعض السكان إلى شراء براميل مياه غير صالحة للشرب وهم مجبورون ومضطرون بسبب غلاء المياه المهول في أرض النيل؛ حيث وصل حد تسعير برميل المياه الواحد بنحو 3 آلاف جنيه سوداني، أو ما يعادل 6 دولار، فتوالت موجات الهروب من السودان مجددًا.

عن عدد اللاجئين السودانيين بعد الأزمة الأخيرة، قال منسق الشؤون الإنسانية في الأمم المتحدة مارتن غريفث، في بيان له يوم 15 يوليو 2023: إن النزاع أدى إلى فرار أكثر من 3 ملايين شخص من مناطقهم إلى داخل البلاد وخارجها، مشيرًا إلى أن نصف الفارين من الأطفال. استقبلت مصر منهم ما يزيد عن 200 ألف شخص حسب المفوضية في أغسطس 2023، ليكون عدد اللاجئين القدامى والجدد بمصر بعد النزاع 4 ملايين سوداني، بينما توجه 90 ألف سوداني إلى تشاد؛ حيث يتم إيواء الغالبية العظمى منهم في مخيّمات مؤقّتة في شرق البلاد بالقرب من الحدود مع السودان، يُشكل النساء والأطفال بينهم نسبة 90 ٪، وتوجهت أعداد كبيرة إلى جنوب السودان وجمهورية أفريقيا الوسطى وإثيوبيا ومخيمات الصومال، ثم بدأت طلبات اللجوء تتوالى على أوروبا.

كان من المُلاحظ أن السودانيين الذين وصلوا إلى مصر قد دخلوها عبر تأشيرة سياحية، ومشكلتها أنها مؤقتة بمدة قصيرة، ولا تمنحهم الحق في الحصول على المساعدات الدولية الخاصة باللاجئين، وفي ظل غياب دعم أممي يسهل الإجراءات، فإن الجالية السودانية الكبيرة في مصر، التي هاجرت إليها بسبب الاضطرابات في عدة موجات سابقة، هبَّت لتقديم العون إلى الواصلين حديثًا إلى مصر؛ فظهرت بكثرة المدارس السودانية للإيواء والتعليم، وتكونت المبادرات الشعبية السودانية والمصرية للاستقبال والدعم.

اللاجئون العراقيون

كل ما حولي عراء قاحل
أنا مُعدم من كل أنواع الوطن
خانني الكل وما خان فؤادي الأمل.

الشاعر العراقي أحمد مطر

امتلك العراق ثروات نفطية هائلة جعلته من أغنى دول المنطقة العربية التي كان يقصدها العرب للسفر والعمل، ويجمعون فيها أموالًا طائلة في سنوات قليلة لا يستطيعون جمعها في ضعف عدد هذه السنوات في بلادهم، إلا أن العراق في السنوات الأخيرة أصبح يتصدر الدول المُصدرة للاجئين في العالم بسبب الحصار السياسي والاقتصادي (1990 – 2003)، وعدم الاستقرار السياسي والأمني، خاصة بعد 1982 بسبب حملات الاعتقال المكثفة وعمليات القتل خارج القانون التي قام بها الرئيس صدام حسين على المعارضين، من بينها عملية إعدام في يوم واحد لـ 450 للمخالفين لآرائه داخل حزب البعث، بينهم أساتذة جامعات وضباط جيش ومحامين وقضاة وصحفيين ورجال دين.[1] إضافة إلى الغزو الأمريكي للعراق في 2003، وما تبعه من انهيار المنظومة الأمنية وانتشار القتل والخطف على يد الجماعات المسلحة والقوات الأمريكية والدولية وقوات الأمن العراقية والحراسات الخاصة، كذلك بسبب أحداث العنف الطائفي 2006، وتوسع عمليات تنظيم الدولة (داعش) في العراق. أدى كل ذلك وغيره إلى هدر الموارد وانتشار الجوع والمرض والفقر، حسب أوكسفام 2007 لم يستطع 70 ٪ من

(1) دليل الاستبداد والمستبدين، بروس بيوند دو وألستير سميث، ص80.

العراقيين الحصول على ماء شرب آمن، ويعيش 43 ٪ منهم على أقل من واحد دولار يوميًّا، وارتفعت معدلات سوء التغذية إلى 28 ٪؛ مما ألجأ العراقيين إلى الهجرة.[1]

أعلن الهلال الأحمر العراقي ومفوضية اللاجئين أن هناك 4.2 مليون مُشرد عراقي بينهم 2 مليون غادروا إلى دول مجاورة مثل لبنان والأردن وتركيا وإيران وسوريا ومصر حتى عام 2007.[2] بينما وصل عدد كبير منهم إلى الدول الأوروبية؛ حيث يوجد 135 ألف لاجئ عراقي في السويد، وعدد مماثل في هولندا، جميعهم وصلوا بعد عام 2003، وفي بلجيكا والدنمارك يوجد 30 ألف لاجئ عراقي، وفي فرنسا 56 ألف، وتشير الحكومة الألمانية إلى أن أعداد العراقيين المقيمين وطالبي اللجوء لديها نحو 250 ألف، ما جعل العراق في هذه الفترة يحتل المرتبة الثالثة في أعداد اللاجئين بعد أفغانستان وفلسطين.

الغريب أن أغلب العراقيين الذين ذهبوا إلى هذه الدول وغيرها بما فيها البلاد العربية أقاموا فيها بلا تصريح رسمي، وكان يُنظَر إليهم باعتبارهم أشخاصًا غير قانونيين، الأمر الذي انعكس على الحد من الحماية القانونية المتاحة لهم؛ فمثلًا في حالة تركيا التي وقَّعت على اتفاقية اللاجئين عام 1951 لا تمنح صفة اللاجئ إلى الأشخاص القادمين إليها من دول خارج الاتحاد الأوروبي، وبذلك لا يُسمَح للعراقيين المكوث في تركيا إلا لمدة محدودة حتى يحصلوا على اللجوء في بلد ثالثة، أما لبنان والأردن فلم يوقعا على اتفاقية اللاجئين، في حين انضمت إيران إلى الاتفاقية مع تحفظها على أربع مواد بما فيها المادة 26 التي تسمح بحرية الحركة للاجئين. ومصر دولة موقّعة على الاتفاقية لكنَّها مع ذلك ترفض منح اللاجئين الحق في العمل بشكل طبيعي باعتبارهم (أجانب)، وتحد أيضًا من حصولهم على الخدمات التي تقدمها الدولة للمواطنين، إضافة إلى ذلك ازدادت صعوبة دخول

(1) وضع اللاجئين العراقيين في سورية، amnesty.org

(2) الوضع القانوني للاجئين العراقيين، محمد عباس محسن، Fmreview.org

العراقيين إلى مصر لدرجة كبيرة، إذ تشترط مصر على اللاجئين الخضوع لمقابلة شخصية في السفارات المصرية، حتى هذه المقابلة لا تتم إلا في عمّان أو دمشق.[1]

بقي العراقيون بالخارج في هذا الوضع يغمرهم الخوف من الاعتقال أو الاحتجاز أو الترحيل إلى العراق، وعادة ما يكون الرجال أكثر عرضة لخطر الاعتقال، وهذا ما يدفعهم إلى التواري عن أنظار السلطات، ونتيجة ذلك تجد النساء أنفسهن ملزمات بتولي أمور الحصول على المساعدات، ما يزيد من خطر تعرضهن للتحرش والاستغلال عند خروجهن إلى الشارع وفي مراكز المساعدات، ولا سبيل لهن للوصول إلى الشرطة أو السلطات المعنية إلا في حالات نادرة؛ نظرًا لأنهن يفتقرن لصفة الإقامة القانونية في البلاد. حتى من حصلوا على شيء من الصفة القانونية للإقامة، ما زالوا يرسلون أطفالهم للعمل عوضًا عن أنفسهم خوفًا من الاعتقال، نتيجة ذلك يُحرم الأطفال من التعليم المدرسي ويصبحون أكثر عرضة للوقوع ضحايا للإساءة والاستغلال. وتؤكد منظمة العفو الدولية في تقرير لها استند إلى دراسة أوضاع اللاجئين العراقيين في سوريا والأردن، أن هؤلاء اللاجئين يعيشون أوضاعًا مزرية ويتهددهم مزيد من الفقر وأن المعاملة الدولية لهم تسوء.

لذلك يضطر اللاجئون إلى القيام بهجرة خطرة إلى أوروبا عبر الطرق البرية والغابات، والأنهار والبحار التي غرق فيها الكثير، وكذلك مات الكثير بسبب الجوع والعطش بعد أن تاهوا في الغابات، والبعض يواجهون قوات عسكرية على الحدود اليونانية تبطش بالمهاجرين وتقوم بإرجاعهم إلى تركيا، أو تكون الهجرة عبر البحر؛ حيث يركب المهاجرون القوارب المطاطية ويكون حجمها 6 أمتار، يستوي عليها من 50 إلى 60 شخصًا، ولا تتحمل القوارب كل هذا العدد الكبير فتنتهي الرحلة بالغرق، وهي التجربة التي تتكرر كثيرًا، أشهرها غرق القارب العراقي في بحر إيجه في أكتوبر 2018، والذي راح ضحيته 15 مهاجرًا غير المفقودين، بينهم عائلات كاملة، تم دفن موتاهم لاحقًا في مقبرة الغرباء باليونان.

(1) أزمة اللاجئين العراقيين في أميركا، موقع صحيفة عمون.

إجمالًا، الأوضاع الصعبة التي يعيشها اللاجئون العراقيون ناتجة عن عوامل أساسية، أهمها أن العديد من الأسر العراقية في المهجر تعاني الفقر والخوف ما اضطرهم إلى تشغيل الأطفال الصغار وأحيانًا كثيرة يعودون إلى بلدهم، وعلى الرغم من التحسن النسبي الملحوظ الذي شهده العراق مؤخرًا على الصعيد الأمني؛ فإن الأمن والاستقرار لم يستتبا هناك ليستقبل البلد من جديد هؤلاء اللاجئين؛ لذلك يتم تشديد آليات الإكراه ويرتفع عدد حالات العودة القسرية التي تمارسها بعض الدول الأوروبية بحق اللاجئين العراقيين. وما بين تشديد الإجراءات التي تتخذها ضدهم من قبيل الحرمان من المساعدات المالية وإصدار قرارات الترحيل الإجباري.. كثير من المعاناة، في الوقت الذي يرزح النازحون داخل العراق تحت وطأة الفقر، وتعاني المناطق التي تستضيفهم مثل بغداد ضغوطًا شديدة على المرافق والخدمات الأساسية.

اللاجئون الليبيون

لا أظنّ أن إنسانًا يستطيع أن يدّعي أنه عاش الحياة
ما لم يجرب فَقْد الحياة، ثم استعادة الحياة.

الأديب الليبي إبراهيم الكوني

حتى عام 2000، كانت ليبيا كما العراق مقصدًا لكثير من العرب للعمل والهجرة؛ بسبب الكرم الكبير الذي عُرف عن هذه الدولة وضيافتها السخية التي دعمتها ثروتها النفطية، مرت على ليبيا فترات كانت تسمح بمرور حدودها للمهاجرين العرب بلا جواز سفر. لكنها عانت الاضطرابات السياسية بعد موجات الربيع العربي عام 2011، التي أدت إلى الإطاحة بالرئيس القذافي ومقتله، ثم جاء نظام سياسي جديد سرعان ما انقسم على نفسه، وظهرت حكومتان وبرلمانان في الشرق والغرب 2014، ثم انهارت المنظومة الأمنية والاقتصادية وغاب القانون وتم الإفلات من العقاب، إضافة إلى تدمير البنية التحتية، خاصة بعد انتشار وسيطرة تنظيم الدولة (داعش).

بعد انتهاء أزمة داعش، ظهر الانقسام السياسي مرة ثانية مع نزاع مسلح امتد من إبريل 2019 إلى يونيو 2020؛ حيث اندلع القتال في العاصمة طرابلس وحولها بين الميليشيات التابعة لحكومة الوفاق الوطني المعترف بها دوليًّا، التي تدعمها الأمم المتحدة ويقودها رئيس الوزراء فايز السراج ومقرها طرابلس من طرف، والجيش الوطني الليبي المعلن ذاتيًّا بقيادة اللواء خليفة حفتر من الطرف الآخر، مع تدخل إقليمي عسكري وسياسي متعدد ومباشر، ومنذ أن اكتسبت قوات حكومة الوفاق المزيد من السيطرة ودفعت الجيش إلى خارج العاصمة في يونيو 2020، انتقلت

الأعمال العدائية المسلحة إلى وسط ليبيا، وتحمل المدنيون وطأة القتال، ما أدى إلى سقوط مئات القتلى والجرحى ونزوح أكثر من400 ألف شخص.

كان الجانبان مسؤولين عن الانتهاكات الجسيمة للقانون الإنساني الدولي وجرائم الحرب التي حدثت، وعلى الرغم من حظر الأسلحة المفروض من قبل مجلس الأمن عام 2011، فإن التدخل الخارجي دعم الأطراف المتنافسة من خلال عمليات نقل الأسلحة غير المشروعة والدعم العسكري المباشر؛ ما جعل الخسائر في البنية التحتية والخدمات مهولة، مع عدد ضخم من خسائر الأرواح قدَّرته منظمة التضامن لحقوق الإنسان الليبية في 2018 بـ 3719 شخص ما بين قتيل وجريح.

رغم التحسن النسبي للأوضاع الأمنية في ليبيا بعد 2019، إلا أن الأمم المتحدة أشارت إلى أن أعداد النازحين بها وصل إلى 125 ألف شخص، ومع ذلك فبين وقت وآخر تظهر اشتباكات مسلحة آخرها ما حدث منتصف أغسطس 2023، بعد القبض على آمر اللواء 444، العقيد محمود حمزة في مطار معيتيقة، من قبل قوة الردع والشرطة القضائية، ما أدى إلى تجدد الاشتباكات في العاصمة، وحدوث حرب شوارع امتدت لأيام بين عناصر اللواء 444 قتال التابع لوزارة الدفاع من جهة، وقوة الردع والشرطة القضائية التابعتين لوزارة الداخلية من جهة أخرى، وتوالى سقوط قتلى وجرحى. بعدها بأيام أعلن الأمين العام للهلال الأحمر الليبي عن تعرضه لمحاولة اغتيال، ونهب وتخريب مكتب الأمانة في بنغازي. بعدها بأيام حدث إعصار دانيال في منتصف سبتمبر 2023، تبعه فيضانات وسيول مدمرة أودت بحياة أكثر من 6 آلاف قتيل في مدينة درنة ومدن شرق ليبيا، وأخفت الفيضانات أحياء كاملة تضم آلاف المواطنين داخل البحر، ما أدى إلى نزوح أكثر من 43 ألف عائلة من مدينة درنة وحدها، ليزيد هذا العدد في الأيام اللاحقة على مستوى النزوح والقتلى، بحسب بيانات رسمية ليبية.

تسببت هذه الأوضاع غير المستقرة إلى زيادة أعداد اللاجئين الليبيين ونزوحهم داخليًّا وخارجيًّا، حتى وصل عددهم 2 مليون في سبتمبر 2018، وهذا العدد كبير بالنسبة لإجمالي عدد السكان في هذا الوقت. وعن هجرتهم خارج البلاد فلم تكن سهلة برغم أن ليبيا من المرافئ المعروفة لإرسال المهاجرين العرب والأفارقة إلى أوروبا، بسبب تنفيذ الاتحاد الأوروبي سلسلة من الإجراءات منذ عام 2016 لسد مسارات الهجرة من ليبيا عبر البحر المتوسط من خلال عدة آليات، منها: تعزيز قدرات خفر السواحل الليبي على اعتراض اللاجئين والمهاجرين وإعادتهم إلى بلدهم، رفض السماح للأشخاص الذين تم إنقاذهم في أعالي البحار بالنزول في أوروبا، تجريم عمل المنظمات غير الحكومية التي تعمل على إنقاذهم،عقد صفقات مع السلطات المحلية والميليشيات لمنع المهاجرين من مغادرة ليبيا. ساعد ذلك عدم وجود قانون لجوء أو إجراءات للتعامل مع اللاجئين في ليبيا تحدد حقوقهم؛ حيث إنها لم توقع على اتفاقية اللاجئين 1951 ولا على البروتوكول الملحق بها عام 1967، فلم يكن أمام الخائفين والفارين من الاضطهاد آلية رسمية لطلب الحماية.[1]

تركت سياسات غلق الأبواب هذه مئات الآلاف من السكان والنازحين وأسرهم يعانون في ليبيا، ويتم اعتراض اللاجئين والمهاجرين الذين يحاولون المغادرة عن طريق القوارب في البحر من قبل خفر السواحل الليبي المدعوم من الاتحاد الأوروبي، ثم إعادتهم قسرًا إلى ليبيا؛ حيث يتم احتجازهم إلى أجل غير مسمى في مراكز الاحتجاز في ظروف مروعة، ويواجهون خطر التعرض للانتهاكات بشكل يومي.[2] في حين أن الأوضاع الصحية والمعيشية تسوء في الداخل؛ حيث يعيش معظم الليبيين في فقر مدقع، والعديد منهم يعاني سوء التغذية وأمراض مزمنة مثل السرطان وأمراض القلب والسكر، وتضاعفت لديهم نسب البطالة؛ فكانت

(1) الحرمان من الحق في طلب اللجوء، hrw.org

(2) حلقة الانتهاكات بحق اللاجئين والمهاجرين في ليبيا، amnesty.org

الهجرة للدول العربية هي الطريق الوحيد للحياة، فتوزعوا على تونس التي ترتبط مع ليبيا بحدود برية مشتركة تمتد على نحو 500 كيلومتر.

يوجد على طول هذه الحدود معبران حدوديان هما رأس الجدير ومعبر ذهبية، ما جعل تونس الوجهة الأولى لهم. وعن عددهم هناك، أعلن وزير الخارجية التونسي منجي الحامدي في مؤتمر صحفي في 30 يوليو 2017 عن مليون ليبي يوجدون في دولته، وأكد أن الوضع الاقتصادي في البلاد هشّ، ولا يمكن تحمل مئات الآلاف من اللاجئين ينضافون إلى أكثر من مليون ليبي موجودين في تونس، وقال نصًا: اقتصادنا لا يمكن أن يتحمل أكثر من هذا.

استقبلت مصر حوالي 317 ألف ليبي، وهاجر إلى تشاد حوالي 200 ألف، بينما استقبلت الجزائر حوالي 100 ألف، ومالي حوالي 50 ألف، وبعد وقت ومحاولات متكررة نجح كثير من الليبيين في الهجرة والوصول إلى دول أوروبية، مثل: إيطاليا (100 ألف)، اليونان (50 ألف)، ألمانيا (20 ألف)، فرنسا (10 آلاف)، السويد (5 آلاف)، وإلى اليوم ما زالت محاولات الهروب مستمرة بحثًا عن حياة.

اللاجئون الأفارقة

زمن مُروع في الوجود الإنساني، عندما يشمل الإكراه أن
يغير إنسان جغرافيته واجتماعه.

الروائي التنزاني عبد الرازق قرنة

تعد مشكلة اللاجئين في أفريقيا إحدى مشكلات القارة الرئيسية والعامة، يؤكد ذلك تزايد أعداد اللاجئين من أغلب دول هذه القارة بشكل سريع؛ فكان عددهم عام 2003 حوالي 3.5 مليون لاجئ، ومع بداية 2020 تتحدث الإحصائيات عن 8 ملايين لاجئ. وبرغم أن سكان أفريقيا لا يمثّلون سوى 12 ٪ من تعداد السكان العالمي، فإنهم يشاركون بنسبة 32 ٪ من لاجئي العالم، وهناك 8 دول أفريقية يزيد عدد لاجئي كلّ دولة منها في الخارج على 100 ألف لاجئ. ومع نهاية 2013 أشارت تقديرات مركز رصد النزوح الداخلي (IDMC) أن هناك 12.5 مليون نازح في 21 دولة في أقاليم جنوب الصحراء، وهذا يمثل أكثر من ثلث المجموع العالمي للنازحين، أكثرهم يعيشون في نيجيريا والكونغو والسودان، وخلال عام 2014 كان هناك أربع دول لديهم أكثر من مليون لاجئ ونازح وهم الكونغو، نيجيريا، شمال السودان، الصومال.[1]

ترتبط مشكلة اللاجئين في أفريقيا بشكل عام بالفقر؛ فمن بين 53 دولة أفريقية توجد 23 دولة من أكثر الدول فقرًا، وأكثر من 60 ٪ من بين 800 مليون أفريقي يعيشون تحت خط الفقر المعتمد عالميًّا. وترتبط مشكلة الفقر متعدد الأبعاد ومتجاوز الأجيال بمشكلة الفساد السياسي للأنظمة ومحاولات التمرد عليها، وبدلًا من

(1) قضية اللجوء والنزوح في أفريقيا والدور المصري، مركز الأهرام للدراسات، القاهرة، ص15.

احتواء الدولة الأفريقية لغضب الشعوب بعمل إصلاحات سياسية واقتصادية، غالبًا ما يكون الحل الأمني والتدخل العسكري الغاشم هو اختيارها في مواجهة أي تمرد، الذي يؤدي إلى تأجيج الصراع والتدخل الأجنبي، وتحوله إلى حرب أهلية تلعب فيها الميليشيات المسلحة لعبة القوى مع جيش نظامي، وتقوى هي مع تكرار المواجهات ومرور الزمن فتتفاقم الأمور، وهو ما حدث في كل من ليبيريا وسيراليون وكوت ديفوار والكونغو ومالي والسودان والصومال وغينيا بيساو وأنجولا وبورندي وتشاد ومنطقة كازامانس بالسنغال وأوغندا والنيجر ونيجيريا.

في أثناء كتابة هذه السطور تم الإعلان عن الانقلاب العسكري في الغابون (نهاية أغسطس 2023)، ويبدو أن هذه الاستراتيجيات لن تتوقف في المستقبل القريب، بسبب انسداد الأفق السياسي وتعطل قنوات الحوار وسهولة تزوير الانتخابات؛ فيكون الحل هو التوجه بالطعن في السيادة السياسية عبر الانقلابات العسكرية أو تنظيم حملات انفصالية مسلحة مثل الحرب الإريترية المطولة للاستقلال عن إثيوبيا التي انتهت بقيام دولة إريتريا عام 1993.[1]

سواء كانت هذه الصراعات والحروب سياسية أو عرقية تنشب بين الدولة وجماعات لغوية أو عرقية أو دينية، إلا أنها تقوى وتشتد وتستمر بسبب سوء إدارة الاختلافات الطبقية والأيديولوجية مع انتشار وزيادة الفقر المدقع والجفاف وموجات الأوبئة المستمرة والمتتالية، ما يؤدي إلى فرار ملايين اللاجئين إلى دول الجوار أو إجبارهم على الانتقال إلى أماكن أخرى تقل فيها حدّة الصراع وشدة الحياة داخل الدولة نفسها؛ لذلك فدمار هذه الدول وتأجج ظاهرة اللاجئين والنازحين في أفريقيا مرتبطان بأزمات عدم الاندماج الوطني وانعدام العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة والسلطة، وهي أزمة الواقع القديمة التي تعيشها العديد من دول القارة منذ الاستقلال، التي أخفقت أنظمة الحكم الأفريقية المتعاقبة في التعامل معها، فمثلًا:

(1) أفريقيا: السلم والنزاع، ديفيد ج. فرانسيس، ص124.

- **رواندا**: يتكون سكان رواندا (مدينة الألف تل باللغة المحلية) من شريحتين هما قبيلة التوتسي (الطبقة العليا) التي تمثل 14 ٪ من عدد السكان، والهوتو (عامة الشعب الفقراء) تمثل 84 ٪، إلى جانب شريحة أصغر هي مجموعة التوا التي تمثل 1 ٪. خلال الحرب العالمية الأولى، فقدت ألمانيا سيطرتها على رواندا كمستعمرة، ووُضعت رواندا تحت الإدارة البلجيكية بعد الحرب، وانتهجت بلجيكا هناك سياسة التمييز العنصري بين التوتسي والهوتو بإصدار هُويات شخصية على أسس عرقية، وفي أواخر الخمسينيات خلال موجة إنهاء الاستعمار الكبيرة زادت حالات التوتر في رواندا؛ حيث كانت السلطة السياسية من نصيب الهوتو التي تمثل الأغلبية مكسبًا لها من بلجيكا، بينما قاومت بعض شرائح قبائل التوتسي عملية التحول السياسي وفقدان مزاياها المكتسبة تاريخيًّا واقتصاديًّا، وبدأ الصراع السياسي لعدة سنوات ليتحول لاحقًا إلى حرب أهلية مسلحة امتدت من عام 1990 حتى 1994، شهدت هذه الفترة ثورات وجرائم حرب ومذابح وإبادات جماعية، أدت إلى وجود ضحايا تتجاوز 800 ألف قتيل (أغلبهم من التوتسي) وتشريد 3 ملايين لاجئ.
- **الكونغو الديمقراطية**: تُعد من أغنى البلاد بالثروات المعدنية، إضافة إلى أنها ثاني أكبر دولة أفريقية من حيث المساحة، وعلى الرغم من ذلك فهي من أكثر البلاد فقرًا في العالم، ويعود ذلك بشكل أساسي إلى النزاعات التي مزقت البلاد وأنهكتها خلال الأعوام العشرين الماضية؛ حيث اقتلعت الحرب حوالي 2.5 مليون لاجئ من وطنهم، وأُجبروا على الإقامة في معسكرات اللاجئين في الدول المحيطة.[1]
- **أنجولا**: في نفس العام التي استقلت فيه أنجولا عن البرتغال عام 1975، بدأت حدة الانقسامات السياسية والاجتماعية تتوسع بهدف السعي إلى السلطة، حتى تطورت إلى حرب أهلية في هذا العام لتستمر حتى 2002، بين الجبهة الشعبية

(1) موقع الهيئة الدولية للصليب الأحمر، icrc.org

للتحرير والاتحاد الوطني للاستقلال (يونيتا)، 27 سنة حرب، تسببت في وقوع ما يقرب من مليون قتيل، وتشريد ما بين 3 إلى 5 ملايين لاجئ ونازح.

- **الصومال**: مع خلفية الاستعمار الغربي في الإقليم (فرنسا، إيطاليا، بريطانيا)، تأسس النظام الاجتماعي في الصومال على أسس عرقية وطبقية ولغوية وعشائرية، لذا ظهر الانقسام القبلي في التنافس على الأرض والموارد والسلطة، ثم ظهر الصراع المسلح والحروب القبلية والاضطهاد العرقي من العشائر الأكبر ضد الأصغر وعلى الأقليات بشكل عام، أبرز هذه الصراعات حرب العصابات التي نشبت بين حكومة بري وبين الحركة الوطنية الصومالية المدعومة من قبيلة إسحاق، وأدت إلى مقتل ما يقارب 60 ألف شخص في الفترة من 1988 حتى 1991م، وغيرها من نزاعات ما زالت مستمرة إلى اليوم مع غياب وجود حكومة فاعلة منذ عام 1991، حيث يتم استهداف الناس على هُويتهم ولغتهم ولونهم، ما أدى إلى موجات متوالية من اللجوء والهجرة من الصومال شارك فيها أكثر من مليون إنسان.
- **جمهورية أفريقيا الوسطى**: في عام 2014 تسببت الغارات والهجمات التي شنها المتمردون هناك في فرار 5 آلاف مواطن ومعهم قادة المجتمع والمزارعون والتجار وموظفو الخدمة المدنية، قصدوا الكاميرون والدول المجاورة، واستقر أغلبهم في مخيم غادو للاجئين على بعد 30 دقيقة بالسيارة من الحدود، وهو بالفعل كان موطنًا لأكثر من 26 ألف لاجئ من جمهورية أفريقيا الوسطى ممن فروا بعد أحداث عنف سابقة.[1]

من المهم الإشارة إلى أنه ليس الفقر والأنظمة الفاسدة وحركات التمرد، وحتى الحروب الأهلية فقط هم أسباب خراب القارة الأفريقية، لكن يأتي معهم سبب آخر رئيسي وربما سابق في بعض الحالات، وهو السياسة الاقتصادية الأوروبية في أفريقيا التي يرجع تاريخها إلى القرون الأربعة السابقة على الاحتلال الغربي لها (1445م

(1) مجموعة الأمم المتحدة للتنمية المستدامة، unsdg.un.org

حتى 1870م)، كان من أهم سماتها اعتماد أوروبا القارة الأفريقية كمصدر لتجارة العبيد؛ فالأفريقي لم يبع في أسواق الرقيق إلا عندما تم نقله إلى مجتمع عمل فيه وتم التعامل معه كعبد أو جندي مأجور؛ فكان يُشحن الرقيق من دول أفريقيا إلى كل أنحاء العالم باعتبارهم ملكية أوروبية، بعض الإحصائيات تتحدث عن وصول 10 ملايين على الأقل (بعض الإحصائيات تتحدث عن أضعاف هذا الرقم) من الرقيق الأفارقة إلى الأمريكتين وجزر الأطلنطي وأوروبا في فترة زمنية قصيرة، وزاد الأمر وتوسع خلال سنوات الاحتلال الأوروبي لأغلب دول القارة التي امتدت لما يقرب مائتي سنة، ما بين 1870م إلى 2011م.[1]

وفي كتابها الرحلة تحدثت الأديبة الراحلة رضوى عاشور عن الأمر فقالت: «سيدة الآلام.. أفريقيا النازفة عبر مئات السنين، أربعون مليونًا من أبنائها شُحنوا في السفن، هم البضاعة وهم الحمولة، عند هذه القلاع على شواطئها الغربية يختمون، تكدس السفن بهم إلى وجهتها، ففي عالم جديد يبدؤون أيامهم فيه على خشبة المزاد العلني، بيع وشراء.. مال وبضاعة، تتحرك الآلة تبتلع وتنتج، آلة تبتلع الأرض وتدور».[2]

بالطبع لم يقتصر الاستغلال الأوروبي لأفريقيا على تجارة الرقيق، بل تعدى لنهب ثرواتها بالجملة والعمل على إفقارها، ما أكده البلجيكي ميشيل كولون بقوله: إن حضارة الغرب مجرد حضارة لصوص؛ فإسبانيا وفرنسا أصبحتا ثريتين في القرن الـ17، لأنهما سرقتا الذهب والفضة من أمريكا اللاتينية بذبح الهنود بلا تحمل عقوبات، وأصبحت فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة في هذا الثراء الفاحش بفضل العبودية وسرقة البشر من أفريقيا بلا أي مقابل، وبالمثل بلجيكا وهولندا ثريتان جدًّا منذ القرن الـ19 من خلال سرقة المواد الخام من أفريقيا وآسيا بلا مقابل، على مدى 5 قرون قامت مجتمعاتنا الغربية بنهب ثروات العالم الثالث،

(1) أوروبا والتخلف في أفريقيا، والتر رودني، ص121.

(2) الرحلة، رضوى عاشور، ص11.

ويمكننا أن نرسم جداول لكل البلدان الأفريقية الفقيرة ونوضح من نهبها وكيف، باختصار شديد نحن (أو بالأحرى بعضنا) لصوص ولهذا السبب صرنا دولًا ثرية على حساب دول أخرى.[1]

بعد استقلال أفريقيا من الاحتلال الأوروبي التقليدي، خاصة الاحتلال البريطاني ثم الفرنسي الذي كان يسيطرعلى أغلب دول القارة، واجهت أفريقيا الاحتلال الاقتصادي الحديث الذي لم يقل خطورة عن سابقه، عبر سياسات الاقتصاد العالمي والبنك الدولي وعمليات جباية الديون التي كان لها تأثير خطير في تقويض ثروات أفريقيا وجعلها تحت رحمة دول الشمال وفي خدمتها وحدها. يأتي ذلك عبر ألاعيب الهيكلة الاقتصادية وإغراق دول الجنوب بالديون، في ظل تواطؤ الحكومات المحلية وفسادها، وتحول الأنظمة الحاكمة إلى مجرد أنظمة كومبرادورية (سماسرة) لدول الشمال وشركاتها الكبرى وموافقتهم بلا تردد على أوامر وشروط الشمال التي تسحق حق مواطنيهم في العيش الكريم لأجيال طويلة.[2] فيحدث أن تكون الشعوب تحت لا رحمة القروض ذات الفوائد العالية والمتراكمة، وخططها الوهمية لإعادة هيكلتها، ومضاعفة قيمتها مع الزمن.

أدت الممارسات السابقة إلى جعل المجتمعات الأفريقية تحت وصاية المؤسسات الدولية وقرارتها غير الإنسانية مثل قرارات دولرة سعر العملة المحلية (التعويم) وعدم المبالاة بدولرة الأجور ورفعها، وفصل البنوك المركزية عن برلمانات الدول، وإعادة تدوير الأموال القذرة نحو خدمة الدين، وخفض أسعار الخدمات وتكاليف الأعمال. ليصب كل ذلك في مصلحة الدول الغربية وشركاتها عابرة الحدود التي تنقل مصانعها إلى الدول رخيصة العمالة لتقليل تكلفة الإنتاج وتحقيق أقصى إمكانية للربح، فمثلًا تكلفة إنتاج دستة ملابس من القمصان في أحد مصانع بنجلاديش تبلغ من 36 إلى 40 دولار، يتم بيع القميص الواحد بحوالي 22 دولار

(1) michelcollon.info

(2) إثيوبيا: التوسع وتأسيس الدولة، داليا سعد الدين، ص188.

في الأسواق العالمية، مع كل هذه الأرباح يتقاضى العامل في هذه المصانع نحو 20 دولار شهرياً، وهو ما يقل 50 مرة عن أجر عامل في مصانع أمريكا الشمالية.

كذلك كانت وما تزال من الأوامر إجبار دول الجنوب على تصدير بعض المواد الأولية النادرة إليها بحجة سداد الديون، وتشترط المؤسسات العالمية السعر المنخفض لها، ما يجعل دول الجنوب تتنافس في تصدير مواردها بأفضل العروض، وبذلك تستفيد الدول الدائنة بأقل سعر لتلك الموارد النفيسة.

في حالة الصومال مثلًا، يتعمد المجتمع الدولي تبرير صور مجاعة الصومال إلى أسباب مناخية وأخرى داخلية بسبب الحروب الأهلية فقط، ويطمس حقيقة تدخلات صندوق النقد الدولي والدول الدائنة في تحويل الصومال من بلد مكتفٍ ذاتيًّا في بداية السبعينيات إلى بلد يسوده الجفاف والتصحر وتنهش فيه المجاعة وتستمر فيه الحرب الأهلية؛ ففي سبيل خدمة ديون الصومال، فرض البنك الدولي على الحكومة الصومالية برنامج تقشف شديد للغاية، وأجبرت الدولة على الاعتماد على الحبوب الأجنبية وعلى تحرير سعر العملة، ما أدى إلى ارتفاع أسعار الوقود والأسمدة ومدخلات الزراعة، فانهار القطاع الزراعي الذي يعمل به أكثر من 50 ٪ من سكان الصومال، وبالضرورة انهار النشاط الحيواني ثم تدمر اقتصاد البلد بالجملة، ثم فلتحدث الانقلابات ولتظهر حركات التمرد المسلحة. هنا تختار الدول الكبرى ومؤسساتها من القادة المحتملين والجدد أيهم أقرب إلى سياستها وتدعمه، وإلى أن تتبين اتجاهاتهم نحوها تسهِّل عمليات إدخال السلاح التي غالبًا ما تكون بواسطة إسرائيل، ولتستمر الحرب حتى لو راح ضحيتها آلاف القتلى وتشريد ملايين اللاجئين.[1]

مارست أوروبا هذا الابتزاز على كل الدول الأفريقية تقريبًا، بما فيها مصر عبر إغراقها بالديون وابتزازها بثروتها البترولية حتى آثارها التاريخية، ففي عام 1879 تم تفكيك مسلة كليوباترا من محطة الرمل بالإسكندرية لإهدائها للولايات المتحدة

(1) عولمة الفقر، ميشيل تشودوفيسكي، ص54 – 100.

الأمريكية، وهي موجودة الآن في سنترال بارك بأمريكا، تم عمل الشيء نفسه مع مسلة مصرية إلى بريطانيا، وأخرى إلى فرنسا، وأخرى إلى إيطاليا، غالبًا ما كان يتم ذلك وقت استحقاق الديون الخارجية المتراكمة تسكينًا وإرضاء بثروة لا تُقدر بثمن وتاريخ كبير لدول الاقتصاديات الكبرى، وكان صوت الإعلام يتمنطق بفلسفة «عادي.. عندنا كتير، دعوهم يحتفظوا ويحتفلوا بتراثنا الإنساني».

ليستمر الأمر إلى أن وصل عدد القطع الأثرية المُسافرة إلى أكثر من مليون قطعة في أقل تقدير، منهم على سبيل المثال:

100 ألف قطعة أثرية في المتحف البريطاني.

80 ألف قطعة في متحف برلين الجديد، ألمانيا.

50 ألف قطعة في متحف اللوفر، فرنسا.

45 ألف قطعة في المتحف الفنون الجميلة، أميركا.

45 ألف قطعة في متحف كيسلى، أميركا.

42 ألف قطعة في متحف جامعة بنسلفانيا، أميركا.

40 ألف قطعة في المتحف الأشمولي، بريطانيا.

32 ألف قطعة في متحف تورينو، إيطاليا.

30 ألف قطعة في المعهد الشرقي، أمريكا.

26 ألف قطعة في متحف المتروبوليتان، أميركا.

25 ألف قطعة في متحف أونتاريو الملكي، كندا.

17 ألف قطعة في متحف هيرست، أميركا.

16 ألف قطعة في متحف فيتزوليم، بريطانيا.

16 ألف قطعة في متحف ليفربول، بريطانيا.

16 ألف قطعة في متحف مانشستر، بريطانيا.

14 ألف قطعة في المتحف الأثرى الوطني، إيطاليا.

12 ألف قطعة في متحف فيينا، النمسا.

هذا فقط بعض المعروض والمعروف حول العالم، سافر أغلبها هدايا ذهاب بلا عودة، وما خفي أعظم وأكثر من الأعداد المُعلنة.

تتعدد الأسباب والنتيجة واحدة، وضع ملتهب ومُعقد وغير إنساني في هذه البلاد جعل توافد اللاجئين الأفارقة كثيفًا ومستمرًّا على البلاد المجاورة؛ فلجأ الآلاف منهم إلى النيجر التي سجلت دخول 36 ألف شخص خلال عام 2022 بمعدل 2500 لاجئ أسبوعيًّا، أغلبهم من نيجيريا ومالي وبوركينا فاسو، لينضموا إلى 580 ألف لاجئ، بينهم 360 ألف نازح محلي نيجيري، في بلد تعاني عمليات النهب المتزايدة ومصادرة الممتلكات من قُطاع الطرق المسلحين، خاصة في ولايتي كاتسينا وسوكوتو في شمال غرب البلاد، زاد وضعهم سوءًا بعد عملية الانقلاب على الرئيس النيجيري في أغسطس 2023، وتوالي التهديدات بالتدخلات العسكرية الخارجية الإقليمية والأوروبية لاستعادة الشرعية في البلاد.

قبل عام 2015 كان اليمن يستضيف أكثر من مليون لاجئ أفريقي معظمهم من الصوماليين يليهم الإثيوبيون فالإريتريون وغيرهم؛ حيث كان أغلبهم يقيمون ويعملون في مدن اليمن، بينما يعيش بعضهم في مخيمات للاجئين تحت إشراف الأمم المتحدة، لكن الظروف تغيرت بعد ذلك بسبب تفاقم الأزمة السياسية والاقتصادية بعد الحرب على اليمن، وزاد تدهور أحوال المهاجرين واللاجئين الأفارقة وقلة حيلتهم هناك، وهكذا لم يعد اليمن مكانًا آمنًا لهم ولا الحدود السعودية قابلة للتسلل منها إلى مدنها القريبة، كما أن الأوضاع السيئة وغير الآمنة داخل دولهم تجعل التفكير في الرجوع إليها شبه مستحيل، خاصة مع زيادة تعقيد أوضاع القارة الأفريقية بتزايد التدخل الأوروبي المباشر وغير المباشر بعد الحرب الروسية الأوكرانية للتنافس على القوى داخل أفريقيا بعد انشغال روسيا بالحرب، لهذا كان قرار أغلب اللاجئين الأفارقة هو الهجرة إلى أوروبا، ولتكن ما تكون العاقبة.

لذلك ولغيره أكدت كثير من الدراسات أن اللاجئين المنحدرين من أفريقيا يواجهون خطورة أكبر في التعرض إلى القتل أو العنف أو الاستغلال والاغتصاب،

ما جعلهم يتعرضون لصدمات نفسية أكبر من غيرهم من لاجئي العالم، وأكدت الدراسة التي أجراها معهد الأبحاث الجنائية في ولاية سكسونيا الألمانية أن الاختبارات النفسية أظهرت أن طالبي اللجوء المنحدرين من وسط أفريقيا على وجه الخصوص يعانون اضطراب التوتر التالي للصدمة النفسية، بنسبة أكبر من غيرهم.[1]

حتى بعد وصولهم إلى مجتمعات ودول جديدة؛ فإن الاندماج الاجتماعي لهم في الدول العربية وغيرها من دول العالم يكون أصعب من غيرهم بسبب عوامل اللغة واللون، فتمثل اللغة العائق الأكبر أمامهم في المدارس الحكومية داخل الوطن العربي ويصعّب دمجهم بها. في مصر على سبيل المثال، تقدم الحكومة المنح الدراسية لمن يتحدث العربية فقط، أما باقي الجنسيات الأخرى التي لا تتحدث العربية يصعب دمجهم فيها، وهنا يجب عليهم اللجوء إلى السفارات التابعين لها أو إلى المفوضية الدولية، ومن هنا تظهر الأزمات.[2]

وفي تونس، يعاني اللاجئون الأفارقة ظروفًا معيشية صعبة مع غياب الحلول بشأن إدماجهم أو إعادة ترحيلهم إلى بلادهم، وحذرت منظمات حقوقية تونسية ودولية من تصاعد الاعتداءات العنصرية تجاههم آخرها في يوليو2023. وفي الدول العربية بشكل عام يواجه الأفارقة أشكالًا عنصرية أقلها الأجور المتدنية وأبشعها الاستغلال الجنسي، مرورًا بعدم إصدار رخص العمل والمضايقات العنصرية بالشوارع.

(1) اللاجئون الأفارقة أكثر عرضة للصدمات من العرب، موقع دويتشه فيله.

(2) اللاجئون الأفارقة في مصر، أسماء السيد، موقع إندبندنت عربية.

اللاجئون الروهينغا

مجتمعات القمع هي المجتمعات التي تضع هدفها
أنه لا بد من أن يتغير شيء ما في الإنسان
لضمان انصياعه التام والدائم.

ممدوح عدوان

تقع دولة ميانمار (براهماديش أو بورما) في الجنوب الشرقي لقارة آسيا، دولة خلابة سحرت خيال الأدباء مثل روديارد كيبلينغ وجورج أورويل، يحدها من الشمال الصين والهند، ومن الجنوب تايلاند والمحيط الهندي وبحر أندامان، ومن الغرب خليج البنغال وبنغلاديش، ويبلغ عدد سكانها أكثر من 55 مليون نسمة. تُقدَّر نسبة المسلمين فيها ٪ 20 من مجموع السكان (8 ملايين مسلم)، دخل الإسلام هذه الدولة عن طريق ولاية أراكان ضمن جمهورية بورما (تضم أكبر تجمّع لأهل هذا البلد) في القرن الأول الهجري عن طريق الصحابي الجليل وقّاص بن مالك رضي الله عنه، وهناك مؤرخون يؤكدون أنّ الإسلام وصلها في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد في القرن السابع الميلادي عن طريق التجار العرب، حيث أُعجب أهل بورما بأخلاقهم فدانوا بدينهم. اشتغل أهلها بالزراعة في البدء، ثم هيمنوا على التجارة واستوطنوا كثيرًا من البقاع، حتى أصبحت بعد ذلك دولة إسلامية حكمها 48 ملكًا مسلمًا على التوالي ما بين عامي 14301784 –م، وكانت لهم عملات نقدية تتضمن شعارات إسلامية مثل كلمة التوحيد.

كانت بورما في عهد سابق تُسمى بـ (سلة أرز آسيا)، لكن عقود الحكم العسكري التي بدأت في 1962، وسوء الإدارة الاقتصادية والاجتماعية من الأنظمة المتعاقبة حولتها إلى دولة منبوذة وفقيرة؛ لتقع اليوم ضمن أسوأ الدول المنهكة والمُنتهكة لحقوق الإنسان في العالم، وأصبحت مصدرًا لعدم الاستقرار والعداء وسط جنوب شرقي آسيا، ويُشكل نموها في تجارة المخدرات وعلاقتها العسكرية مع كوريا الشمالية تهديدًا للأمن العالمي.[1] كذلك تعد أزمة بورما في تهجير السكان من جماعة الروهينغا (أقلية مسلمة يعيشون في ولاية راخين الشمالية) من كبرى جرائم الإبادة الجماعية والتطهير العرقي في العصر الحديث.

بدأت قصص المأساة مع استيلاء العسكريين الفاشيين على الحكم في بورما بعد الانقلاب العسكري بواسطة الجنرال نيوين المتعصب عام 1962م، تعرض مسلمو أراكان لكل أنواع الظلم والاضطهاد من القتل والتهجير والتشريد والتضييق الاقتصادي والاجتماعي ومصادرة أراضيهم، بل مصادرة هُويتهم الوطنية بزعم مشابهتهم للبنغاليين في الدين واللغة والشكل.

إضافة إلى تدمير الآثار الإسلامية من مساجد ومدارس تاريخية، وما بقي منها يُمنع من الترميم أو إعادة البناء، ويمنع تشييد أي أبنية جديدة لها علاقة بالدين والملة من مساجد ومدارس ومكتبات ودور أيتام وغيرها، بعض المباني وقعت بالفعل على رؤوس الناس بسبب مرور الزمن ولا مجال إلى الإصلاح أو الترميم. والمدارس الإسلامية تُمنع من التطوير أو الاعتراف الحكومي والمصادقة على شهاداتها أو اعتماد خريجيها، ولا تسمح الحكومة بطباعة الكتب الدينية وإصدار المطبوعات الإسلامية إلا بعد إجازتها من الجهات الحكومية، وهذا أمر صعب للغاية.

كذلك يتعرّض كبار رجال الدين إلى الامتهان والضرب، ويتم إرغامهم على العمل في معسكرات الاعتقال، ويُمنع المسلمون من أداء فريضة الحجّ باستثناء قلة من الأفراد الذين تعرفهم الحكومة وترضى عن سلوكهم، وإجبار الفتيات المسلمات

(1) خيارات صعبة: مذكرات هيلاري كلنتون، ص114.

على الزواج من البوذيين. كل ذلك في محاولات من السلطات لـ (برمنة) الثقافة الإسلامية وتذويب المسلمين في المجتمع البوذي البورمي قسراً.[1]استتبع ذلك التهجير الجماعي من قرى المسلمين وأراضيهم الزراعية، وتوطين البوذيين فيها لتصبح قرى نموذجية تُبنى بأموال وأيدي المسلمين جبرًا، كذلك يتم استخدامهم في شق طرق كبيرة وبناء ثكنات عسكرية بلا أي تعويض أو أجور، ومن يرفض فمصيره الموت في المعتقلات التي لا تعرف الرحمة، كان معنى الرحمة الوحيد المتاح هناك هو السماح بمغادرة البلد أو الطرد منها، **وبسبب ما لا يُطاق من الألم، كان الطريق الوحيد للحياة هو الموافقة على الخروج من الوطن.**

في عام 1962 عقب الانقلاب العسكري، تم طرد أكثر من 300 ألف شخص إلى بنغلاديش، وفي عام 1978 طُرد أكثر من 500 ألف شخص في أوضاع قاسية، مات منهم قرابة 40 ألف من الشيوخ والنساء والأطفال حسب إحصائية وكالة غوث اللاجئين، وفي عام 1988 تم طرد أكثر من 150 ألف شخص بسبب بناء القرى النموذجية للبوذيين في محاولة التغيير الديموغرافي، وفي عام 1991 تم طرد قرابة 500 ألف شخص، وذلك عقب إلغاء نتائج الانتخابات العامة التي فازت فيها المعارضة بأغلبية ساحقة، انتقامًا من المسلمين؛ لأنهم صوتوا مع عامة أهل البلاد لصالح الحزب الوطني الديمقراطي المعارض.[2]

بسبب كل ما سبق وغيره مما خفى، تعد جماعة الروهينغا من أكثر الجماعات المضطهدة في العالم؛ حيث تم التنكيل بهم من جانب قوات الشرطة، ويجبرون على العمل القسري بلا أجر، ويتم سجنهم لأتفه الأسباب حتى بلا أسباب، وتُمارس عليهم كافة أنواع الإهانة والأذى والجرائم حتى المذابح الجماعية؛ فبين عامي 1996 إلى 2005 قام البورميون في ولاية راخين الشمالية بحرق ما يقرب من 3000 قرية من قرى الروهينغا وغيرهم من الأقليات، وتم تهجيرهم وبناء معسكرات الجيش

(1) المسلمون في بورما تاريخ من الاضطهاد، موقع قصة الإسلام.

(2) مسلمون ولكن على الهامش، تقرير صحيفة الرأي الكويتية.

في أرضهم، وليست لهم أي حقوق مدنية أو قانونية وممنوعون من المواطنة، ولا تشملهم الخدمات التعليمية والصحية، وممنوعون من الزواج أو السفر بلا إذن، وليس لهم حق تملك الأراضي أو العقارات أو أية ملكيات أخرى، ومن يحاول منهم الهرب من تلك الظروف البشعة ينتهي به الأمر في معسكرات اللاجئين لعقود؛ حيث يعيشون بشكل غير إنساني في مناطق نائية على ضفاف الشواطئ التايلاندية أو البنغلاديشية أو الإندونيسية، ويتخذون من القوارب منازل لهم.

هذه الظروف أنتجت **أكثر من مليون مشرد في ميانمار الشرقية** بلا أمل في العودة إلى أرضهم، وتوزعوا ما بين الداخل ومخيمات بنغلاديش، بينما تمكن الكثير من الفرار إلى ماليزيا والسعودية. لكن الأغلبية ما زالوا محاصرين داخل البلاد، وتنفي الدولة الاعتراف بوجود هؤلاء المشردين أصلًا، وتمنع محاولات الأمم المتحدة والهيئات الإنسانية من الوصول إليهم. وتؤكد منظمة هيومان رايتس ووتش أن هناك 70 ألف طفل من الروهينغا تم تجنيدهم في الجيش قصرًا، تم خطفهم من مدارسهم وتأهيلهم في الجيش ليكونوا وحوشًا قبل أن يخوضوا حربًا على أهلهم، وذكرت منظمة يونيسف أن 1800 طفل هربوا من ميانمار بلا آبائهم أو أحد من أسرهم في بداية الأحداث، وأشار مراقبون أن عدد هؤلاء الأطفال وصل إلى 6 آلاف طفل بعد فترة، ومع تزايد أحداث العنف في ميانمار، أشارت المفوضية الدولية لشؤون اللاجئين في تقريرها عام 2022 إلى أن أكثر من 3500 من الروهينغا (اليائسين) ماتوا في أثناء محاولاتهم عبور البحر عام 2020 مقارنة بـ 700 في عام 2021؛ حيث أبحرت معظم القوارب من ميانمار وبنغلاديش؛ مما يسلط الضوء على الشعور المتزايد باليأس لدى الروهينغا في هذين البلدين.[1]

حتى بعد لجوء 800 ألف لاجئ من الروهينغا إلى بنغلاديش وتسكينهم في المخيمات في وقت قصير للغاية وسط قلة الدعم الدولي، ذكرت رئيسة وزراء بنغلاديش الشيخة حسينة أن السلطات في ميانمار كانت تضع الألغام الأرضية خلفهم على الحدود

(1) دعوة لوضع استجابة إقليمية لحماية اللاجئين الروهينغا، موقع الأمم المتحدة.

بين البلدين، لمنع اللاجئين من العودة وعدم خروج غيرهم بعد ذلك، وطالبت بإقامة مناطق آمنة داخل ميانمار لحماية مسلمي الروهينغا بإشراف الأمم المتحدة.[1]

هذا الوضع المضطرب في ميانمار يقلق الصين، الجارة الكبرى للبلاد، التي تشترك معها بحدود يتجاوز طولها ألفي كيلومتر عبر أحراش وجبال وأنهار، تشمل جزءًا من أراضي المثلث الذهبي مصدر إنتاج وتهريب المخدرات بمنطقة جنوب شرق آسيا، ومن أبرز أهداف الصين الاستراتيجية في ميانمار، محاصرة التحالف الناشئ بين الهند والولايات المتحدة واليابان وأستراليا، فهذا التحالف يهدد الصين؛ لذا فهي تجد أن من الطبيعي إقامة علاقات جيدة مع حكومة هذا البلد المجاور ودعمها بما تريد وتغض الطرف عن جرائمها، وبلا دعم الصين ربما لن تقوى الحكومة العسكرية في بورما على الصمود وقد تنهار في أي لحظة، لذلك لم نسمع صوتًا للصين يدين القمع الذي يتعرض له المسلمون ووقع بسببه آلاف الضحايا، راحوا لمطالبتهم بالديمقراطية.

تلتزم الهند كذلك الصمت؛ لأنها تمارس نفس الجرائم من التطهير العرقي مع مسلمي ولاية غوجارات؛ ففي أكتوبر 1969 وقعت في غوجارات أول أعمال الشغب الطائفية الكبرى ضد المسلمين منذ استقلال الهند، وأدت إلى مقتل أكثر من ألفي شخص وفقدان أكثر من 50 ألف آخرين لمنازلهم وممتلكاتهم بلا تحرك من السلطات، ومنذ ذلك التاريخ يستمر معدل القتل الجماعي بالارتفاع من خلال سلسلة موجات من العنف الديني التي يندى لها جبين الإنسانية، أهمها مذبحة غوجارات عام 2002؛ حيث قُتل فيها أكثر من ألف شخص، وتدمير 37 مسجدًا و50 ضريحًا و6 مقابر خاصة بالمسلمين، أدى ذلك لموجات نزوح وتشريد مهولة، حسب إحصاء الحكومية المحلية، فإن أكثر من 98 ألف شخص أغلبهم مسلمون يقيمون في ما يزيد على 100 مخيم إغاثة في أنحاء الولاية، وصنفت لجنة خبراء دوليين مستقلة، المسلمين كأكبر أقلية مضطهدة في الهند ذات الأغلبية الهندوسية التي تقدر بـ 80 ٪.

(1) اللاجئون، مرصد الأزهر لمكافحة التطرف، ص206.

اللاجئون الأوكران

التفريق بين المقهورين، لا يزيد العالم إلا قهرًا.

خاضت روسيا أكثر من حرب على أوكرانيا بهدف ضم شبه جزيرة القرم التي كانت تتبع الاتحاد السوفيتي قبل 2014، وبعد إعلان أوكرانيا في يناير 2022 عزمها الانضمام إلى حلف الناتو، قلقت روسيا من احتمال وجود قوات من 28 دولة على حدودها، وحذرت أوكرانيا من الانضمام إلى الحلف؛ فتجاهلت أوكرانيا التحذير، فقامت روسيا يوم 24 فبراير 2022 بالهجوم العسكري على أوكرانيا. قامت روسيا بتدمير البنية الأساسية العسكرية الأوكرانية في الأيام العشرة الأولى من القتال، وذلك بالهجوم على المطارات والقواعد الجوية والرادارات ومراكز القيادة وقوات الدفاع الجوي والتجمعات الرئيسية والاحتياطيات الأوكرانية.

ثم تقدمت لمهاجمة كييف العاصمة، لكن القوات الأوكرانية لجأت إلى حرب المدن؛ حيث تعثرت هجمات القوات الروسية؛ لذلك حولت روسيا اتجاهات الهجوم وتقدمت شرقًا؛ حيث حققت في 8 شهور الاستيلاء على 20 ٪ من الأراضي الأوكرانية، واستولت على أربع مقاطعات هي لوهانسك ودونتسيك وزابوريجيا وخيرسون، بعدها قام بوتين بضم هذه المقاطعات إلى روسيا بعد عمل استفتاء سريع بين أهالي هذه المناطق. استهدفت روسيا منذ بدء القتال أربع نقاط رئيسية:

الأولى: إجبار أوكرانيا على أن تكون دولة محايدة ونزع سلاحها مثل سويسرا.

الثانية: عدم انضمام أوكرانيا إلى حلف الناتو أو أي حلف آخر.

الثالثة: أن تتعهد أوكرانيا بألا تكون دولة نووية.

الرابعة: تعترف أوكرانيا بحق روسيا في ضم شبه جزيرة القرم.[1]

تعد هذه الحرب التي ما زالت مستمرة منذ 600 يوم، من أشرس وأطول الحروب في العصر الحديث بعد الحرب العالمية الثانية، ورغم أنها تُصنف طبقًا للعلوم العسكرية بأنها حرب محدودة بين دولتين وليست حربًا عالمية، إلا أنها بالفعل (حرب عالمية) من حيث التأثير والمشاركات الدولية وكم وقيمة الخسائر بين طرفي القتال والمشاركين معهم، كذلك مدى تأثير هذه الحرب على كل العالم، فكثير من التقارير الدولية تؤكد أنها تُشكل ضربة للاقتصاد العالمي؛ لأنها أضرت بالنمو وعرقلت عجلة الاقتصاد الدولي، حيث زادت نسبة التضخم التي بدأت تشهدها بعض الدول الأوروبية قبلها، كارتفاع نسبة التضخم في دولة السويد إلى 6.1 ٪ التي لم تشهدها منذ أكثر من 30 عامًا ومُرجّحة إلى الارتفاع أكثر، وتزايد أزمة الطاقة في أوروبا التي تعتمد على الغاز الروسي، وأزمة الحبوب في الشرق الأوسط الذي يعتمد على صادرات أوكرانيا وروسيا.

عن الخسائر المباشرة في أوكرانيا، أشارت وكالة رويترز (27 يوليو2023) إلى أن عدد الوفيات أكثر من 62.295 شخصًا، بينما أكدت النرويج سقوط 130 ألف عسكري ومدني أوكراني، وتجاوز عدد الإصابات الخطيرة وغير الخطيرة 61 ألف شخص، وعدد المفقودين 15 ألف شخص، وتهدم وتضرر 150 ألف مبنى، وخسائر تقدر بـ 411 مليار دولار، بينما يزيد عدد النازحين واللاجئين على 18 مليون شخص، وأعلنت المفوضية عن تسجيل 8 ملايين لاجئ مسجل لديها حتى فبراير 2023. بينما تؤكد بولندا أن عدد اللاجئين تعدى 11 مليون شخص.[2] ما يعني أن أكثر من ثلث الشعب الأوكراني اضطر لمغادرة أرضه، وهذا العدد يفوق عدد اللاجئين الفلسطينيين، وكذلك يفوق أعداد اللاجئين السوريين لأكثر من

(1) عام على الحرب الروسية الأوكرانية، صحيفة المصري اليوم.

(2) حالة طوارئ: أوكرانيا، موقع المفوضية الدولية لشؤون اللاجئين.

عشر سنوات، كذلك فاق عدد اللاجئين الفنزوليين الذين مثَّلوا أكبر أزمة لاجئين في تاريخ الأمريكتين بعد الثورة البوليفارية، بلجوء 6 ملايين شخص.[1]

لجأ الأوكران – النسبة الغالبة منهم النساء والأطفال – إلى الدول الحدودية مثل بولندا؛ حيث أكدت وكالة حرس الحدود البولندية على فرار ما يقرب من مليون ونصف شخص من أوكرانيا إليها بعد الحرب حتى مارس 2023، بينما استقبلت ألمانيا أكثر من مليون لاجئ، واستقبلت رومانيا ما يقرب من نصف مليون، والتشيك نصف مليون، واستقبلت إسبانيا ما يقرب من 140 ألف، وتوزع الآلاف ما بين المجر وفرنسا وسلوفاكيا وإستونيا ولأتيفا وليتوانيا وإيطاليا وبيلاروسيا وروسيا، وإلى بريطانيا التي أظهرت تعاطفًا كبيرًا معهم رغم سياستها المتشددة ضد اللاجئين بشكل عام، وإلى سويسرا التي عملت على استقبالهم وتوطينهم وتمكينهم ليكونوا أول لاجئين يحصلون على الحماية من الفئة (إس) في أرضها، وهي أداة تعني القبول السريع للاجئين بلا تعقيدات ورقية.

شاهد العالم أنه مع أول يوم لخروج اللاجئين الأوكران انتفضت الدول الأوروبية؛ حيث أعلنت مفوضة الشؤون الداخلية الأوروبية إيلفا يوهانسن أن 26 دولة أبدت استعدادها لاستقبالهم، وعلى الفور أعلنت هذه الدول حالة الطوارئ القصوى وحشد المتطوعين وجمع التبرعات بالمليارات وتأسيس مخيمات الاستقبال وجمع الملابس والمواد الغذائية والأدوية حتى شرائح الإتصال لتوزيعها على نقاط استقبال الأوكران، وانشغلت كل وسائل الإعلام العالمية بتغطية أخبارهم، بل تحرك الاتحاد الأوروبي في مارس 2022 لتفعيل قانون الحماية المؤقتة، بحيث يتم تخفيف الضغوط المفروضة على نظم اللجوء الوطنية والسماح لجميع الأوكران الفارين من الحرب بالتمتع بالحقوق في مختلف أنحاء الاتحاد الأوروبي، هذه الحقوق التي يمنحها القانون تشمل الإقامة والمساعدات النقدية والطبية والوصول إلى سوق العمل والإسكان وإمكان حصول الأطفال على التعليم لمدة عام في دول الاتحاد.

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 2022، ص78.

كل هذا وأكثر يحدث في مشهد إنساني رائع يستحقه آلام اللجوء ومعاناة فقد الوطن، حدث هذا التضامن المهيب والشامل للأوكران، لو كانت للإنسانية يد وصوت، لصفَّقت وهلَّلت ورفعت القبعة شكرًا واحترامًا، ثم لطمت وصاحت غضبًا واستنكارًا لتقول: لماذا لا يُطبق هذا الترحاب مع كل اللاجئين يا أولاد الـهمه؟!

أزمات اللاجئين في العالم

كأن همًا واحدًا لا يكفي
أو كأن الهموم يستأنس بعضها ببعض
فلا تنزل على الناس إلا معًا.

رضوى عاشور

يهاجر اللاجئ من وطنه إلى أرض جديدة بحثًا عن أمنه الشخصي، الاجتماعي، الصحي، الغذائي، الاقتصادي، البيئي، السياسي،.. يبحث عن الحياة. وفي سبيل ذلك يُعاني كل أنواع الألم ويواجه موجات الأزمات منذ اللحظة التي تبدأ فيها هجرته.

مشكلات بداية الهجرة

يصفون روح المسافر بأنها ضعيفة، مرتابة، مترددة، خائفة، مستثارة مثل روح طفل في أرجوحة.[1] يُقال ذلك عن المسافر الذي يختار سفره وينتظره وطنه وترحب به وجهته، ما بالك باللاجئ الذي طردته بلده، وينتظره ضباب المستقبل في وجهته! تؤكد ملايين التجارب أنه يتعرض لأقصى درجات العنف والاضطهاد وتهديد الحياة خلال خروجه من أرض الأزمة إلى أرض اللجوء، بحيث أصبح البحث عن السلامة في الهروب من النزاع المسلح أو الحصار مسألة قد تكون انتحارية بسبب التعرض إلى القتل أوالسلب أو النهب أو الأسر أو انتهاك العرض أو الاستخدام كدروع بشرية.

(1) غرفة المسافرين، عزت القمحاوي، ص62.

حتى عند السلامة من كل ذلك؛ فقد يسلك اللاجئ مسارات هجرة غير آمنة مثل الهجرة عبر البحر بزوارق وقوارب غير مؤهلة فتحدث الكارثة، كما حدث مع القارب الذي كان يحمل الطفل السوري (آيلان كردي) ابن الـ 3 سنوات وأسرته وعدد 12 فرد من اللاجئين، يتزاحمون فوق قارب صغير انطلق من تركيا قاصدًا أوروبا في 2 سبتمبر 2015، غرق القارب بعد أن انقلب على راكبيه، وغرق أغلب من كانوا عليه ومعهم آيلان وأخته وأمه، لتطفوا جثة الطفل آيلان على شواطئ تركيا وتصبح رمزًا للآلاف الذين غرقوا في رحلات اللجوء عبر البحر. كذلك حادثة غرق السفينة ذات الـ 30 متر قرب سواحل اليونان في 14 يونيو 2023، التي كان تحمل 750 مهاجرًا بينهم سوريون وفلسطينيون ومصريون، مات وفُقد فيها أكثر من 500 شخص، أو قد يُبلغ المهرب عن اللاجئين وهم في البحر فتقوم السلطات المحلية بإعادتهم ويتم إيداعهم السجون، كما حدث مع عشرات الأسر السورية والفلسطينية عام 2013 بعد ركوبهم البحر قاصدين أوروبا في هجرة غير نظامية من الإسكندرية، وتم سجنهم مع أطفالهم لأكثر من 6 أشهر بعد الإبلاغ عن رحلتهم.

الاستغلال الجنسي للنساء والأطفال

من الكوارث التي يتحدث عنها اللاجئون قبل وأثناء الهجرة مع وضعهم الخطير وغير المستقر، هي محاولات خداع النساء والأطفال من خلال وعود السفر الزائفة وعروض العمل الوهمية؛ ما يجعلهم عرضة الاستغلال الجنسي والابتزاز والتهديد بالقتل والخطف للحصول على مقابل جنسي أو مادي، وأصبح من المؤكد أن اللاجئين أصبحوا ذخيرة عمل كبيرة لصناعات الجنس والأعمال القسرية في بيوت ومواقع البغاء والمصانع والحقول وخدمة المنازل في العالم. المئات من الحالات أشارت إليها بيانات مكتب الأمم المتحدة، مؤكدة على زيادة كبيرة في عدد الأشخاص الذين وقعوا ضحايا الإتجار بالبشر خلال محاولة الفرار من سوريا إلى دول الشرق الأوسط وتركيا والدول الأوروبية بعد مرور سنوات قليلة

من اندلاع الحرب، كذلك أشارت البيانات أن المتاجرين في البشر استهدفوا مئات النساء والأطفال الأفغان، والروهينغا، واللاجئات الأوكرانيات بعد الهروب من الصراعات المسلحة.

وبعد الوصول إلى بلد المقصد، وفي أثناء وجود النساء والأطفال بالمخيمات يتعرضون مع سوء ظروفهم الحياتية لكثير من المضايقات وأحيانًا الجرائم، كما أشار تقرير الاندبندنت البريطانية أن حوالي 58 ألفًا من اللاجئين في اليونان يتعرضون لاستهداف عصابات مافيا يونانية وألبانية تخترق مخيماتهم وتستقطب النساء والأطفال، إضافة إلى تعرض الأطفال منهم إلى الاستغلال الجنسي من قبل بعض المواطنين الإيطاليين.

وأكد لاجئون أطفال ومراهقون في جزيرة صقلية (سيسيليا) الإيطالية أنه بجانب استغلالهم جنسيًّا من قبل المهربين لدفع ديونهم للسفر إلى أوروبا، فإن بعض الرجال المحليين يستهدفونهم أيضًا. أكد أيضًا تقرير لجامعة هارفارد الأمريكية نُشر في إبريل 2018، أن الأطفال في مخيمات اللجوء باليونان عرضة للعنف بأشكاله الجسدية والنفسية والجنسية، وركز التقرير على العوامل التي تؤدي بالأطفال إلى الوقوع في براثن شبكات الدعارة؛ فتحدث عن نقص الموارد وضعف المؤن وغياب التخطيط المناسب للمخيمات التي تم تأسيسها بشكل عشوائي في معسكرات قديمة للجيش ومصانع مقفلة وأماكن مهجورة، مثل مخيم اللاجئين في جزيرة ساموس، الذي كان مخططًا له أن يستوعب 700 شخص، إلا أنه حاليًّا يحشد 1600 شخص يعيشون فيه حياة غير آدمية، وصلت درجة السوء به إلى أن بعض النساء والأطفال يضطرون إلى التبول في زجاجات في خيمهم بسبب خوفهم من الخروج إلى الحمامات المعتمة.[1]

(1) الاستغلال الجنسي لأطفال لاجئين في اليونان: عار على أوروبا، موقع دويتشه فيله.

مع كتابة هذه السطور في نهاية أغسطس 2023، تواترت الأخبار في وسائل الإعلام العالمية حول قضية اغتصاب اللاجئين في السودان؛ حيث ندّد مسؤولون بارزون في الأمم المتّحدة للمرة الثالثة منذ بدء الحرب بين الجنرالات قبل شهور، بزيادة العنف الجنسي بحقّ النساء والفتيات في السودان مع تواصل القتال والعنف المسلح، بعد تلقي تقارير موثّقة حول 21 واقعة عنف جنسي وبلاغات من 57 امرأة وفتاة على الأقل. أشار أحد التقارير إلى أن 20 امرأة على الأقل تعرضن لجرائم اغتصاب خلال اعتداء واحد، ما يعني عمليات اغتصاب جماعية، وصدرت هذه الإدانة في بيان مشترك بتوقيع رؤساء العديد من وكالات الأمم المتحدة المعنية بحقوق الإنسان واللاجئين مثل المفوضية السامية، ويونيسف، ومنظمة الصحة العالمية، ومع ذلك، فالجرائم مستمرة.

النظرة الأمنية للاجئين

يعد كل ما تعرض له اللاجئ من قهر وعنف واضطهاد في بلاده مسوغًا كافيًا للحصول على حقه في الأمن والحماية في دولة أخرى، هكذا ترى الاتفاقيات العالمية لحقوق الإنسان، إلا أن هناك أصواتًا ترى اللاجئين عبئًا وثقلًا على الدول المضيفة وتُشكل تهديدًا لأمنها الاقتصادي والاجتماعي والأمني. وتمثل أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا المثال الأوضح على هذه الأصوات؛ حيث تركز في حملاتها الانتخابية على هذه الهواجس من اللاجئين، وتلعب بمعاداتهم بمشاعر الأصوات الانتخابية، وتتلخص رؤيتهم في مناهضة الهجرة واعتماد كراهية الأجانب، ورفض التعددية الثقافية والنظر إلى الثقافات الأخرى نظرة دونية، والتأكيد على الهُوية الوطنية ونقاء القومية من العناصر الدخيلة؛ ما جعل بعض الدول ترفض استقبال اللاجئين أو تقلل استجابتها لندائهم أو تجبرهم لاحقًا على المغادرة، وهكذا تتحول حياة الملايين من اللاجئين إلى مجرد موضوع في جدلية طويلة ما بين الإنساني والأمني في هذه الدول، بينما نزيفهم يعمل.

مشكلة مبدأ الدولة الآمنة: Safe Country

تبنت كثير من الدول والحكومات الأوروبية مبدأ الدولة الآمنة (Safe Country)، ويعني أن الدول التي تعيش حالة من الاستقرار والأمن لا يحق لمواطنيها التقدم بطلبات لجوء، ولهذا ترفض هذه الدول كثيرًا من اللاجئين القادمين إليها. سبقت لهذه السياسة دول مثل النمسا وسويسرا وبريطانيا، ووضعت قائمة بأسماء الدول التي ترى أنها آمنة، وبالطبع يراها اللاجئون والفارون منها أنها غير آمنة أبدًا؛ فيحدث أن يتكدس اللاجئون على الحدود، أو يكونوا قاموا بالهجرة عبر البحر؛ فيتم إيداعهم سجونًا عائمة (مثل سفينة استكهولم البريطانية التي تعد سجنًا عائمًا للاجئين) حتى تنتهي الجهات من دراسة حالاتهم الفردية، أو يكونون داخل البلد لكنهم متهربون من الشرطة وكل مؤسسات الدولة، ما يؤدي إلى انتعاش ظاهرة الإتجار بالبشر، خاصة مع وجود اللاجئين على الحدود؛ حيث يقوم على هذه التجارة أفراد ومهربون وتنظيمات في شبكات جرائم دولية تزداد بشكل مستمر.

أبسط ما يقوم به هؤلاء توفير وثائق وجوازات سفر وهويات شخصية مزورة، وتوفير مواصلات خطرة بين الدول، وتوفير أماكن للإقامة المؤقتة على الحدود، كذلك توفير عمل غير قانوني أو توريد أفراد لصناعات الجنس أو العمل القسري. وأصبحت هذه العصابات تأخذ أشكالًا منظمة وتزيد مع الوقت وتتمدد، وهكذا يزداد عدد ضحاياها؛ حيث قدَّرت منظمة العمل الدولية عدد الأشخاص الخاضعين لهذه الممارسات غير الآدمية بنحو 27 مليون شخص، وفي دراسة أمريكية عام 2006 تبين وجود أكثر من 800 ألف شخص يتعرضون سنويًّا لهذه الجرائم على الحدود الأمريكية فقط، وتبلغ نسبة النساء والفتيات بينهم 80 ٪ ونسبة القاصرين 50 ٪ من إجمالي الضحايا.[1]

(1) تقرير الإتجار بالبشر، الخارجية الأمريكية، يوليو 2008.

مشكلات الوصول والإعاشة

مع دخول اللاجئ البلد الجديد، قد يتعرض إلى القتل على الحدود بأيدي المتطرفين الذين يعادون دخول اللاجئين (بعض الحكومات تدعم هذه الجماعات)، حتى بعد السلامة من ذلك قد يضطر إلى الحياة في مخيمات غير آدمية مكتظة الأعداد وتفتقد لأدنى درجات التجهيزات لحياة آدمية، حتى إذا تم تجهيز المخيمات فلديهم مشكلة في عدم دمجهم في المجتمعات وتحولهم إلى مجرد متسولين للمساعدات، حتى إذا تم دمجهم فسيبقون أعوامًا للاستشفاء من آلام كل ما مضى عليهم.

مشكلات التوطين والوعود الكاذبة من الدول المضيفة

لأن توفير الخدمات الإنسانية والسكن وفرص العمل والحياة الكريمة بعد الوصول من أهم مشكلات اللجوء، يُطرح التوطين دوليًّا كصورة من صور الحل الدائم والنهائي للجوء بتوفير وطن بديل، لكن يُلاحظ أن قدرة الدول المضيفة على التوطين ضعيفة أو أن هذه الدول لا تفي بوعودها في ذلك؛ حيث تشير البيانات إلى أن 3.6 ٪ فقط من اللاجئين السوريين في العالم تم توطينهم. ألمانيا أنجزت 54 ٪ من الفرص التي وعدت بها، صربيا أوفت بـ 3 ٪ من وعودها، وتعهدت إسبانيا أمام الاتحاد الأوروبي باستقبال 17.337 لاجئًا، لكنها لم تستقبل منهم سوى 1.980 فقط، أي ما يعادل 11.4 ٪ من التزاماتها، ما جعل خوسيه ماريا بيرا (مدير منظمة أوكسفام الخيرية) يقول: إن إسبانيا لا تمتلك إرادة سياسية حقيقية في التعامل مع اللاجئين، ثم إن الحكومة تتعامل مع اللاجئين بطريقة غير مسؤولة وغير إنسانية، وأرقام اللاجئين التي استقبلتهم إسبانيا أو منحتهم فرصًا للتعليم وإعادة التأهيل والمنح هي أرقام مثيرة للسخرية.[1]

(1) اللاجئون، مرصد الأزهر، القاهرة، 2021، ص119.

وإلى اليوم يمكنك معاينة وضع اللاجئين البائس في إسبانيا، خاصة الأفارقة والمغاربة الذين يعملون في بيع الملابس والأدوات المنزلية في شوارعها لعدم دمجهم في تصاريح العمل، وما إن يروا الشرطة من بعيد فيتركوا كل بضاعتهم بالشارع ويهربوا خوفًا من السجن والترحيل، يحدث هذا في دولة يكرر ويؤكد رئيس حكومتها (بيدرو سانشيز) في كل المحافل الدولية، دعمه ومساعدته للاجئين في العالم.

المشكلات القانونية

مع العدد الكبير من الاتفاقيات الحقوقية العالمية للاجئين إلا أن عددًا كبيرًا من الدول بينهم دول عربية لم تنضم لها، خاصة اتفاقية الأمم المتحدة 1951 الخاصة باللاجئين، ثم إن الاتفاقية العربية لتنظيم شؤون اللاجئين (مارس 1994) لم تدخل حيز التنفيذ إلى الآن، ولا توجد تشريعات وطنية منظمة للتعامل مع قضايا اللاجئين، وما تقدمه هذه الدول من مساعدات فهو من باب الواجب الإنساني غير المعترف به قانونيًّا، من هنا تظهر معاناة اللاجئين في هذه الدول، خاصة عند تجديد بطاقات الإقامات والدخول في معاناة إجراءاتها المعقدة، واستخراج أو تجديد جوازات السفر التي غالبًا ما تكون باهظة الثمن بحيث لا يقدرون عليها، وإذا لم يجددوا الإقامات أو يستخرجوا جوازات سفر جديدة، يكونوا عرضة للقبض عليهم أو حرمانهم من التعليم والعمل واستقبال الحوالات المالية المرسلة لهم، كذلك توقف الحالة الاجتماعية الرسمية للأفراد من زواج وطلاق، بسبب عدم وجود هويات شخصية أو بطاقات إقامة سارية لهم.

التمييز والعنصرية ضد اللاجئين

بعد وصول اللاجئ إلى أرض جديدة، يتصور أنه سيتم الترحيب به بعد ما ناله من الألم ما يكفي حياته، لكنه يُفاجأ بحرب العنصرية تنهال عليه بما يُصغر في وجهه الدنيا، سيجد متعصبين ومرضى نفسيين بعقدة رهاب الأجانب (Xenophobia) يطالبونه بالرحيل بسبب جنسيته أو لونه أو ثقافته أو عقيدته

أو بسبب الدولة التي جاء منها، وغالبًا ما يتبع ذلك حجج كثرة السكان وقلة الموارد وعدم قدرة الدولة على تحمل المزيد، وكأنهم مفوضون من كل الشعب والدولة بالحديث عنهم، كما حدث مع بعض اللاجئين السوريين في (لبنان، تونس، تركيا).

الصعب في الأمر أن المتعصبين يرفضون بشكل عام تغيير أفكارهم وقيمهم ويتمسكون بها بشدة، ليس من منطلق السعي نحو أهداف سياسية أو أيديولوجية، بل إن أحكامهم في حقيقة الأمر أحكام جاهزة ومتوَّهمة وشائعة على المستوى الشعبي. وقد أكدت دراسة أجريت على 15 جانيًا من الضالعين في أفعال الكراهية العنصرية في شمال ستافوردشاير، أن غالبية مرتكبي حوادث الكراهية العنصرية ليسوا من المتعصبين العرقيين بشكل صارخ، لكن هؤلاء الجناة تجمعهم وجهات نظر متشابهة حيال ما يسود مجتمعهم، وأفعالهم العنصرية مبررة من وجهة نظرهم، وقد يرون أنهم مجبرون على تلك الأفعال. أغلب هؤلاء لديهم مشكلات نفسية واجتماعية أو سياسية فيسقطون إحباطهم بطرق مخيفة على الغرباء، ثم إن التعبير عن العنصرية يجلب لدى بعضهم الشعور المجاني بالتفوق والسمو، وكلما زاد هذا الشعور تزداد حدة الممارسات لاحقًا.

المُلاحظ كذلك أن هذه العنصرية متعددة الاتجاهات، فاللاجئون الذين يعيشون حياة بائسة في هذه المجتمعات يواجَهون بمشاعر وممارسات تعكس الحقد والاحتقار عليهم من السكان المحليين الذين يعيشون في أوساط هشة وغير آمنة اجتماعيًّا واقتصاديًّا؛ فيعتقدون أن اللاجئين الأغراب منافسون ومزاحمون لهم في البؤس، كذلك اللاجئون الناجحون يواجهون بمشاعر الحقد عليهم من بعض السكان المحليين الذين يرون أن هؤلاء الأغراب يأخذون الفرص منهم، وهنا تمثل العنصرية تفريغًا لمشاعر القلق والتوتر والغضب لدى هؤلاء، وأحيانًا تكون دوافع هذه العنصرية والجرائم التي تستتبعها هي تحقيق المكاسب المباشرة من ورائها مثل النهب في حوادث السرقة والاستيلاء على الممتلكات الشخصية.[1]

(1) العنصرية والتعصب العرقي، إيان لوو، ص 318.

تظهر أحيانًا بعض النعرات العنصرية ضد اللاجئين بشكل الدفاع عن الاقتصاد الوطني، باعتبار أن اللاجئين دخلاء على الإنتاج والاستهلاك المحلي، لكن لا نجد أصحاب هذه النعرات يطبقون نفس المنطق على الشركات الدولية عابرة القارات التي تعمل في أرضهم، التي يصفها ديفيد كورتن بأنها أدوات لطغيان سوق ينتشر بطول العالم وعرضه كالسرطان، تستوطن أكثر مناطق العالم حيوية، وتدمر الأرزاق وتهجّر الناس، وتُضعف المؤسسات الديمقراطية في سعيها الحثيث وراء الأموال، ويتمثل أسوأ مظاهر هذا الطغيان في توجيهه أقصى ضرباته إلى أكثر الفئات هشاشة.. الفقراء.[1] ويتركونها تعمل ويرحبون بها مع عظيم ضررها عليهم، في حين يضطهدون اللاجئين الذين يزيدون نشاط الاقتصاد المحلي بالعمل، وباستقدام العملات الأجنبية من الخارج من ذويهم، أو حتى من مؤسسات الدعم الدولية.

كثير من المتعصبين ضد المهاجرين مخدرون بوهم النقاء الثقافي، فهم يرون أن اللاجئين سيضرون بنقاء ثقافة بلادهم العامة، وسيضرون بالسلالة واللون والمذهب العام للمجتمع، ونسي هؤلاء أن أي منظور إنساني وعلمي يكشف ويؤكد بسهولة التنوع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والعمري والعرقي والديني غير المحدود لكل الدول والمجتمعات تقريبًا. فخلق صورة متجانسة لمجتمع ما هو إلا خيال ووهم يروجه هؤلاء لأطماع وأغراض عنصرية تريد حصر المجتمع في فئتهم أو دينهم، وكأنهم هم الأصل وغيرهم شواذ عنهم، فهؤلاء ليسوا ضد التنوع الخلاق فقط بل ضد كل القيم الإنسانية التي أقرتها الأمم المتحدة والأديان والفطرة.[2] ونسي هؤلاء أيضًا أن التحضر والرقيَّ العلمي في أوروبا وأمريكا صنعه مهاجرون قدامى تعايشوا مع اختلاف بعضهم. نسوا أيضًا أن الفكر الأكاديمي والنظري والجمالي في الولايات المتحدة لم يصل إلى ما هو عليه إلا بفضل أولئك الذين لجأوا

(1) نهب الفقراء، جون ميدلي، ص13.

(2) وهم الأصالة، يسري مصطفى، ص112.

إليها هربًا من الفاشية والشيوعية وسوى ذلك من الأنظمة المجبولة على قمع الخارجين عليها وطردهم.[1]

ومن عجائب الزمن وجود عنصرية ضد اللاجئين في الدول العربية والإسلامية؛ فالعرب عُرف عنهم حتى قبل الإسلام، نجدة الملهوف وإيواء المظلوم وإكرام الضيف، وقامت الحضارة الإسلامية وتشكلت شخصيتها الفريدة من خلال التفاعلات الثقافية والقيمية والحضارية التي صُهرت في بوتقة التاريخ والجغرافيا؛ فأخرجت لنا مولود جديد اسمه الشعوب والأمم الإسلامية؛ حيث تكونت الهُوية الإسلامية عبر استيعاب هويات الشعوب والأمم التي دخلها الإسلام، كما عبر عنها جمال حمدان عندما وصف الحضارة الإسلامية بأنها مجموع تعاليم الإسلام مع تراث حضارات الأمم التي عايشته، بل تأثرت الحضارة الإسلامية بغير المسلمين وغير العرب الذين عاشوا في كنفها، واستفادت من الحضارات البيزنطية والرومانية واليونانية والهندية والصينية وغيرها.[2]

وبشكل عام، يمكن اعتبار هشاشة الدولة وضعف فاعليتها في التأمين والحماية والمحاسبة في الجرائم عامة، وفي الجرائم ضد المهاجرين واللاجئين خاصة، أحد أهم الدوافع لهذه الجرائم واستمرارها. فالدولة الهشة التي لا تستطيع تأمين مواطنيها هي دولة لا يمكنها حماية المغتربين بها، ويتناسب كم وكيف الجرائم طرديًّا مع هشاشة الدولة ومع مدى قبولها بهذه الجرائم ومع مدى تقبل المجتمع لثقافة العنصرية؛ فكلما تَشبَّع المجتمع بهذه الثقافة وجدنا الجرائم تكثر بعدد وشكل أكثر وأبشع، فمثلًا:

- يتعرض آلاف الأفارقة السود في روسيا ودول الاتحاد السوفيتي السابق، لهجمات ومضايقات وسوء معاملة وتحرشات عنصرية ينتهي كثير منها بالقتل، بسبب انتشار ثقافة العنصرية تجاه الأجانب والمهاجرين في المجتمع الروسي،

(1) تأملات حول المنفى، إدوارد سعيد، ص117.

(2) الهروب من الحرب الأهلية، ياسر الغرباوي، ص27.

حيث تشير الدراسات إلى أن 53 ٪ من هذا المجتمع يؤيدون شعار (روسيا للروس فقط)، و24 ٪ يؤيدون قرار طرد أبناء الجماعات العرقية غير الروسية من بلادهم، وهناك أكثر من 100 صحيفة تستخدم خطابات كراهية وتحريض عنصري ضد الأجانب بشكل منتظم، وهناك على الأقل 7 دور نشر على صلة مع الحركات المتطرفة الداعمة لنشر خطابات التحريض، وأكثر من 800 موقع إلكتروني ذات توجه متطرف، يحدث هذا مع إعطاء مساحات مفتوحة لقادة منظمات النازية الجديدة واليمين المتطرف في وسائل الإعلام المختلفة، بلا أي إجراءات ملحوظة للحد من الأمر من السلطات الروسية.[1]

- إقليم كردستان العراق لا يقبل باللاجئين السوريين إلا من كان منهم كرديًّا أو من له واسطة كردية.
- اشترطت عدد من الدول الأوروبية مثل المجر أن يكون طالب اللجوء مسيحيًّا رغم رفض بابا الفاتيكان لهذا الأمر.[2]

الحركات المحاربة للاجئين

نزوح اللاجئين العرب المستمر والمتزايد إلى أوروبا، قابله تصعيد نشاط الحركات المعادية للمهاجرين والجماعات المعادية للإسلام والرافضة للوجود العربي في بلادهم، وهي حركات ناشطة من قبل وجود اللاجئين بهذه الكثرة؛ ففي فبراير 1995م قرر البرلمان الأوروبي ضرورة تأسيس هيئة خاصة لمراقبة الهجمات العنصرية ومنعها، وكان البرلمان يرد بذلك على موجة العنف ضد الأجانب (بالأحرى ضد المهاجرين الفقراء) بأوروبا، وخاصة ضد مقتل أربعة من الغجر في النمسا على يد جماعة نازية متطرفة ضد الأجانب.[3] لكن لم يمنع وجود هذه الهيئة نشاط هذه الحركات، فمع اشتداد الأزمة الاقتصادية العالمية وظهور جماعات

(1) العنصرية والتعصب العرقي، إيان لوو، ص22.

(2) اللاجئون في الشرق الأوسط، أبو بكر الدسوقي، مجلة السياسة الدولية، عدد 207، 2017، القاهرة، ص 74.

(3) التنوع البشري الخلاق، تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية، ص67.

التطرف الديني المسلحة في الشرق الأوسط، وجدت الحركات المعادية للمهاجرين واللاجئين أسبابها لتكثف نشاطها وتجديد عدائها عبر المظاهرات والمضايقات والممارسات العنصرية لكل من يمت للعرب والإسلام بصلة. تعدى الأمر إلى مشاركة أحزاب وشخصيات سياسية في هذا العداء، ونشأت حركات مناهضة جديدة لتنضم إلى القديمة، منهم على سبيل المثال:

- خيرت فيلدرز (حزب من أجل الحرية: هولندا).
- لوتز باخمان (مؤسس حركة بيغيدا المعادية للإسلام والعرب: ألمانيا).
- ماريان لوبان (رئيسة حزب الجبهة الوطنية لليمين المتطرف: فرنسا).
- فيكتور أوربان (رئيس وزراء المجر).
- حزب الحرية (فيينا).
- حركة جينيراسيون إيدنتيتيرالفرنسية (تقوم بمنع المهاجرين بعد وصولهم إلى الشواطئ من دخول الأرض).
- حركة إدنتيتيرن (النمسا).
- جماعة هوغيسا (المناهضة لوجود السلفية وأسلمة المجتمع في ألمانيا).
- حزب البديل اليميني المتشدد، وحركة فريتال (ألمانيا).
- رابطة الشمال الإقليمية (إيطاليا).
- التحالف الجديد للفاشية (إيطاليا).
- الكتلة الفلمنكية (بلجيكا).
- حزب بريطانيا أولًا، حركة البديل الوطني، حزب المملكة المتحدة (بريطانيا).
- حزب الظفر (تركيا).
- حركة جنود أودين (فنلندا).
- حزب الفجر الذهبي النازي (اليونان).
- حزب الهجوم (بلغاريا).
- حزب جوبيك وحركة يوبيك (المجر).

- كتلة مكافحة الإسلام (التشيك).

الاعتداءات والمضايقات المباشرة على اللاجئين

خلال السنوات الماضية التي كثُرت فيها هجرة اللاجئين واستقرارهم في بلاد اللجوء الأوروبية، تم تسجيل آلاف من حوادث الاعتداء عليهم، قدَّرتها وزارة الخارجية الألمانية داخل بلادها بحوالي 3500 هجوم وحادث خلال عام 2016، أسفرت عن جُرح 560 شخصًا بينهم 43 طفلًا، بينما وصلت إلى 2200 حالة خلال عام 2017، وكانت هذه الحوادث شبه يومية، وتنوعت هذه الاعتداءات ما بين:

- المنع من دخول الأراضي والتهديد بالسلاح.
- منع اللاجئين المسافرين عبر البحر من الخروج منه، ومحاولة إغراقهم إذا لم يعودوا إلى بلادهم أو التوجه إلى مرافئ بلاد أخرى.
- إلقاء الزجاجات الحارقة على مخيمات اللجوء (حادثة هانوفر).
- الضرب المبرح ومحاولة القتل وتعذيب اللاجئين الخارجين من مراكز اللجوء (حادثة فيسمار).
- الاعتداءات على البيوت السكنية للاجئين.
- الاعتداء على مؤسسات وجمعيات ومتطوعين دعم اللاجئين.
- مظاهرات التنديد بوجود اللاجئين والمطالبة بمغادرتهم، مثل مظاهرة مدينة كاندل الألمانية عام 2018 التي نظمها (حزب البديل من أجل ألمانيا) وشارك فيها 2000 شخص من المطالبين بطرد اللاجئين، ومع الزخم الإعلامي لهذه المظاهرة غير الإنسانية لم تكن هذه المظاهرة هي الأولى ولا الأخيرة.
- حملات الكراهية وطلب طرد اللاجئين في وسائل الإعلام واستغلالها سياسيًّا؛ حيث أكدت الشبكة الأوروبية لمكافحة العنصرية (إينار: Enar) في مايو2007، أن عدد المظاهرات والاحتجاجات تكشف قوة تأثير الجماعات

اليمينية المتطرفة فيما يخص نشر تصوراتها المعادية للإسلام والعرب وطالبي اللجوء والمهاجرين في أوروبا، ووثقت الشبكة تصريحات لسياسيين منتخبين من دول مثل رومانيا وسلوفينيا والمجر تحمل الكثير من العداء للأجانب، أما الخطابات النازية المعادية خصوصًا للمهاجرين المسلمين، فلها مواطن كثيرة في دول الاتحاد الأوروبي؛ ففي بولونيا وكرواتيا حصلت الأحزاب التي تحمل أفكارًا عنصرية على أكثر من 30 ٪ من أصوات الناخبين، بينما كانت بحدود 20 ٪ في كل من النمسا والدنمارك والمجر.

الاستغلال في أماكن العمل

عادة ما يواجه اللاجئون صعوبات في دخول سوق العمل بالبلد المضيف، والحصول على أجر عادل ومناسب لطبيعة العمل إذا ما تمكنوا من الحصول على وظيفة؛ حيث يتسم متوسط أجر العامل اللاجئ بالانخفاض عن نظيره المحلي، هذا ما أكده المسح لوطني للتعويضات الصادر عن مكتب الإحصاء العمالي في وزارة العمل الأمريكية، مشيرًا إلى أن متوسط أجر العامل اللاجئ في الولايات المتحدة لعام 2012 هو 9.27 دولار للساعة بينما يبلغ متوسط أجر العامل من السكان المحليين 21.29 دولار للساعة، وهو بلا شك فارق كبير. وفي بعض الأحيان يعود الفارق في الأجور إلى ضعف مهارات وخبرات اللاجئين مقارنة بمهارات السكان الأصليين؛ فالعادة أن يهاجر اللاجئون من بلاد ذات أحوال اقتصادية واجتماعية وتعليمية وثقافية متدنية إلى بلاد مضيفة أكثر تطورًا، لهذا غالبًا ما يميل اللاجئون إلى العمل معًا في أعمال خاصة بهم أو أعمال تخدم جالياتهم، خاصة أن أصحاب الأعمال غالبًا لا يميلون إلى توظيفهم.

التمييز في المنح والمساعدات

من أكثر الظواهر التي تم رصدها في العمل الإغاثي بشكل عام وفي العمل مع اللاجئين بشكل خاص، هي ظاهرة التفريق والعنصرية والتمييز في تقديم المنح والمساعدات، ليس على أساس الأكثر استحقاقًا والتمييز الإيجابي، بل لتكون للموالين ومن هم على شاكلة أو مزاج الجهة المانحة سواء (دينيًا، طائفيًا، ثقافيًا، سياسيًا، جنسيًا)، وأحيانًا يكون على حسب اللون أو مستوى الجمال أو حتى المنطقة السكانية.

سجلت التجربة الإنسانية، أن التمييز يكون أحيانًا بسبب استخدام المساعدات الإنسانية كورقة سياسية وعسكرية لتقوية طرف من الصراع بتجاهل الآخر. وهذه الظاهرة قديمة وملحوظة، فبعض المناطق في البوسنة أثناء الحرب عليها، التي راح ضحيتها أكثر من 200 ألف شخص وتسببت في تشريد 2 مليون نازح ولاجئ (1992 – 1995)، لم تتلق دعمًا إغاثيًا كالذي تلقاه المتضررون في رواندا (مع عدم كفايته) خلال الحرب الأهلية هناك (1990–1993). وتكرر ذلك في أفغانستان، حيث تركزت المشروعات التنموية المُنفذة من قبل بريطانيا في المناطق الموالية للتحالف الدولي، بينما افتقرت مناطق أخرى كانت تحت سيطرة طالبان إلى الخدمات والمساعدة، بل تم تقديم المساعدات الإنسانية من قبل العسكريين مقابل الإدلاء بمعلومات، لذلك استمر أمد الصراع وانتشر العنف. كذلك حدث التمييز في الدعم بين اللاجئين من أوكرانيا بعد الحرب الروسية عليها، ما بين لاجئ أوروبي وآخر غير أوروبي، كذلك يُعاني اللاجئون الأفارقة تمييزًا واضحًا في خطط وتوزيع الدعم والمساعدات على أساس اللون والشكل في أغلب دول العالم. كذلك تم استخدام المساعدات الإنسانية كورقة ضغط على المقاومة في غزة في كل حروبها تقريبًا مع الاحتلال لكن ظهر للعالم هذا الأمر بشكل واضح ووقح خلال حرب أكتوبر 2023.

وكثيرًا ما يكون التمييز في توزيع المساعدات عبر ابتزاز بعض الأنظمة الفاسدة للمؤسسات الإنسانية المحلية والدولية ليتم التوزيع بواسطة جهات تابعة لهذه الأنظمة لتحابي الموالين وتمنع المعارضين، أو أن يستفاد بها الأغنياء فقط في حال قلة الموارد عبر بيعها لهم، كما حدث من الإمبراطور هيلاسي لاسي آخر أباطرة إثيوبيا، الذي كان يقتنص المعونات الدولية لخزانته. كذلك بعد إعصار (نرجس: 2008) أصرت حكومة ميانمار على تسليم الأمم المتحدة المساعدات لها يدًا بيد، وإلا قامت بمنعها من دخول البلاد، وكانت تريد كالعادة بيعها في السوق السوداء للأغنياء. كذلك بعد تسونامي 2004 قامت منظمة أوكسفام بشحن 25 شاحنة غذاء إلى المنطقة من أجل توزيعها، إلا أن حكومة سيرلانكا اشترطت عليها دفع 300٪ من ثمن الشاحنات التي ظلت محتجزة لمدة شهر، فيما ظل الضحايا بلا طعام أو مأوى، وفي النهاية دفعت أوكسفام ما يزيد عن مليون دولار من أجل الإفراج عن غذاء الضحايا.[1]

الزواج مقابل الخبز

في أثناء المقابلات مع اللاجئين المستحقين للدعم والذين لضيق الحال بهم يضطرون لطلب المساعدة من بعض المواطنين، كثيرًا ما نسمع منهم حديثًا حول اشتراط البعض من المواطنين الزواج منهم في مقابل تقديم الغذاء والمساعدة بشكل مباشر، وفي مخيم الزعتري بالأردن تم توثيق 287 حالة زواج أطفال قُصّرعام 2021 حسب صندوق الأمم المتحدة للسكان، وإلى الآن ينتشر زواج الأطفال بين اللاجئين السوريين أغلبه لبالغين خارج المخيم المكتظ بالبشر ونصف سكانه من الأطفال.

تتبع معهد واشنطن للدراسات بعض الحالات من خلال تقارير ومقابلات أجراها أحد الصحفيين في مخيم (كاورغوسك) للاجئين السوريين في محافظة إربيل بإقليم كردستان العراق؛ حيث صادف الصحفي لائحة تضم أكثر من عشر

(1) دليل الاستبداد والمستبدين، بروس بيوند دو وألستير سميث، ص186.

مطلقات قاصرات مسجلات، ووجد كثيرًا ممن لم يتجاوزن السادسة عشرة من العمر قد سبق لهن أن تطلقن عدة مرات. ففي ظل الأوضاع المزرية السائدة في المخيمات، يبدو زواج القاصرات للوهلة الأولى نتيجةً مفاجئة، لكن زواج الأطفال أصبح ظاهرة متنامية في أوساط اللاجئين السوريين في العراق، مع ترتب آثار مدمرة على حياتهن، وتظهر دراسة أجراها صندوق الأمم المتحدة للسكان أن هذه الظاهرة شائعة في أوساط اللاجئين السوريين في الدول المجاورة لسوريا أيضًا مثل لبنان والأردن.[1]

ويبدو أن التقارير الإعلامية حول بؤس اللاجئات، أغرت أو خيَّلت لبعض الناس أن كل اللاجئات في كل مكان يمكن أن يتزوجن مقابل الخبز؛ ففي مصر خلال الفترة من 2013 حتى 2017 كانت موجات اللجوء في أشدها، ما كان يدفعنا إلى إرسال استغاثات للدعم عبر مواقع التواصل الاجتماعي لمساعدة الذين جاؤوا من بلادهم بثيابهم فقط، ويحتاجون للسكن والغذاء والدواء وأغلبهم سيدات أرامل وبلا عائل وصلن بصحبة أطفالهن؛ فكان أحيانًا تأتي استجابات مشروطة بالزواج منهن مقابل الغذاء والسكن، وهذا الأمر تكرر عشرات المرات بأشكال مختلفة وأوقات متفرقة، لكن جمعتهم الوقاحة وقلة العقل والإنسانية والدين، إذ لا زواج متكافئًا بين مجهول ومجهولة، ويحدث سريًعا بلا أن تعرفه ولا يعرفها، ولا زواج حقيقيًّا بين ميسور يشترط الارتباط بلاجئة فقيرة مقابل أن يطعمها، وكان الرد على هؤلاء، أن **زواج الأنثى من أشباه الرجال لا يجوز**.

يقول نيوتن: «لكل فعل رد فعل، مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه»، لو كان حاضرًا ما حضرنا، لقال: «لكل فعل نطع رد فعل أنطع، غالبًا أكبر منه في المقدار ومضاد له في الاتجاه». فبعض الأسر التي عُرض عليها الزواج من بناتها مقابل الرعاية، ادَّعوا الموافقة، وبالفعل كانت تتم الخِطبة، وتسلمت الفتاة الذهب ومقدم الصداق.. ثم تبدأ طلبات الأسرة للعروس وأخيها وأختها وأبيها وأمها

(1) مواجهة تحديات ظاهرة زواج الأطفال في أوساط اللاجئين السوريين، آرام محمود، موقع معهد واشنطن.

والأصحاب والجيران، التي يجب أن يتكفل بها الزوج المنتظر، وتستمر فترة الخِطبة إلى أن يضج الخاطب بالطلبات أو تضج منه الأسرة؛ فتقول للمسكين (مفيش نصيب)، خسر أمواله وكرامته.

الغربة وصعوبة الاندماج والصدمة الثقافية

صحيح أنه على قدر الغربة؛ يكون تقدير الوطن، لكن ماذا لو كان السبب في الغربة هو الوطن؟!

الغربة، الابتلاء الشديد الذي ما إن يقع على إنسان فيرميه في بئر من الحزن لا يخرج منه ما بقي حيًّا، خاصة إذا كانت الغربة بعد هجرة إلى أرض بعيدة في الجغرافيا والثقافة والهوية، فصارت منفى. يقول عنها إدوارد سعيد: المنفى هو حالة فقدان مبرم، يشغل صاحبه بالحاجة لإعادة التوازن المفقود؛ فقد اجتُث من عالم، وحيل بينه وإمكانية العودة إليه، ولهذا فهو يسعى إلى خلق عالمه الخاص الذي يتمكن فيه من ممارسة الدور والنفوذ الشخصي، ولأنه يصعب عليه ممارسة تلك الحرية في عالم المنفى كونه وافدًا وطارئًا عليه؛ فسيقوم بخلق عالمه الذهني الخاص به. يجبر المنفى المرء على التفكير فيه، ويا لها من تجربة فظيعة! فالشرخ المفروض لا التئام له بين الإنسان ومكانه الأصلي، بين الذات وموطنها الحقيقي، ولا يمكن البتة التغلب على ما يولده من شجن أساسي، وإذا ما كان صحيحًا أن الأدب والتاريخ يحفلان بحوادث بطولية ورومانسية ومجيدة، بل وظافرة، حدثت في حياة النفي، إلا أن هذه الحوادث لا تعدو أن تكون جهودًا يُقصد منها التغلب على أسى الغربة الشالّ؛ فمآثر المنفى لا يني يقوضها فقدانُ شيء ما خلَّفه المرء وراءه إلى الأبد.[1]

إنه الإحساس بعدم الانتماء وضياع الهُوية واقتلاع الجذور، لكن يهون هذا الشعور كثيرًا عندما يكون المجتمع الحاضن للمهاجر واللاجئ مجتمعًا منفتحًا على الاندماج الاجتماعي.

(1) تأملات حول المنفى، إدوارد سعيد، ص117.

يُقصد بالاندماج الاجتماعي (Social Incorporation) عملية تمكين اللاجئين من المشاركة في مجتمع جديد، من خلال تقبُّل قيمه وعاداته وأنماط حياته، كذلك من خلال اكتساب هوية سياسية تعزز انتسابهم لمؤسسة الدولة، وتوطد ولاءهم لها. ويُستخدم مفهوم الاندماج في العلوم الاجتماعية عند التعامل مع ظاهرة الهجرة والتوطين للمهاجرين واللاجئين كعملية تُسهِّل إدراجهم في المجتمع الجديد، لهم فيه مجموعة من الحقوق وعليهم واجبات والتزامات تجاهه، وإزالة الحواجز القائمة بينهم وبين أعضائه الأصليين، وبينهم وبين بعضهم بعضًا، وذلك لتحقيق الانتماء على المستوى الاجتماعي خاصة في التعليم والتسكين والحماية وتلقي الخدمات العامة، وعلى المستوى الاقتصادي كالانخراط في سوق العمل.[1]

لا يعني هذا الإرغام على التخلي عن ثقافة الوطن الأصلي ليتبرأ اللاجئ من ذاكرته؛ فماضيه جزء من كينونته ووجوده، وذاكرة المرء سلاحه، تاريخه الذي ينير له مستقبله، نقطة الأمل التي تحفظ له توازنه، وتبقيه على صلة بأمسه وغده، هذه الذاكرة التي تُبقي ارتباطه بأرضه وأهله وعاداته وتقاليده، تصوَّر بشرًا من دون ذاكرة.. أي نوع من البشر سيكون هؤلاء؟![2]

حسب إطار بيري (1997)، وهو الإطار النظري الذي يُستخدم لفهم التكيف مع المجتمع الجديد، هناك أربع استراتيجيات للمهاجرين واللاجئين في هذا الشأن، هي:

- **التماثل**: عندما لا يرغب الأفراد في الحفاظ على هويتهم الثقافية ويسعون إلى التفاعل اليومي مع الثقافات الأخرى وينصهرون فيها.
- **الانعزال**: عندما يتمسك الأفراد بثقافتهم الأصلية ويرغبون في تجنب التفاعل مع الآخرين.

(1) الأوضاع الاجتماعية والمعيشية للجاليات المهاجرة، حسناء العربي، موقع المجلة المصرية للعلوم الاجتماعية والسلوكية.

(2) العنصري في غربته، هيثم حسين، ص114.

- **التهميش**: عند ندرة الحفاظ على الثقافة أو ندرة العلاقات مع الآخرين.
- **الاندماج**: عند الحفاظ على الثقافة الأصلية للفرد مع الانخراط بالتفاعلات اليومية مع المجموعات الأخرى.

يرى علماء الاجتماع أن الاندماج أفضل استراتيجية للاجئين لبداية حياتهم الجديدة، ويعد عملية ثنائية الاتجاه، ولا يمكن لهم متابعتها بنجاح إلا عندما يكون المجتمع المضيف منفتحًا نحو التنوع الثقافي؛ فالاندماج عملية تفاعلية تعتمد على كل من اللاجئين والمجتمع الجديد ومؤسسات الدولة؛ حيث يندمج اللاجئون مع مواطني الدول المضيفة مُشكلين مجتمعًا واحدًا يحتضن اختلافاتهم، وعملية الدمج تتطلب استعدادًا من جانب اللاجئين ليتمكنوا من التأقلم مع أوضاع الوطن المضيف بلا التخلي عن هويتهم الأصلية، كما تتطلب من مجتمع البلد المضيف أن يكون قادرًا على احتضان اللاجئين واحتواء اختلافهم، وأن تكون مؤسسات الدولة قادرة على تلبية احتياجاتهم.

بهذا يكون المجتمع المضيف والدولة قدما المساندة لهؤلاء، ويكون هذا الاندماج أسهل والمساعدة أكثر فاعلية واستمرارًا عندما تتوافر مشاعر وعمليات العطاء، التعلق الوجداني، الانتماء، الاطمئنان والتأكد من القيمة الذاتية، التوجيه، التحالف الموثوق.[1] وإذا تمت هذه العملية بهذا الشكل أو اقتربت منه؛ فإن اللاجئ مع الوقت يتأقلم مع حياته الجديدة ويبدأها ويبدع لها وينجح بها، وتكون له مواساة عن ألمه السابق. تؤكد باميلا هايس أن الاندماج الاجتماعي الذي يضمن تبادل منح الدعم وتلقيه كثيرًا ما يرتبط بالسعادة والصحة والرفاه؛ فالأشخاص المندمجون اجتماعيًّا يشعرون بحاجة الآخرين إليهم، ويكونون بالفعل محل حاجتهم، هؤلاء لديهم سبب للاستيقاظ كل صباح وهم يصمدون في وجه العقبات لأنهم يمنحون

(1) أشكال المساندة الاجتماعية، مروى محمد شحتة، ص13.

اهتمامًا، فإحساس الفرد بأنه جزء ضروري ولا يتجزأ من الكل الأكبر هو في حد ذاته مانح للقيمة والدعم.[1]

الواقع يقول إن كثيرًا من اللاجئين يجدون صعوبة في هذا الاندماج، فكثيرًا ما يحدث ما يسمى (الصدمة الحضارية والثقافية)، ويشعر اللاجئ بأنه عاد وليدًا، يحتاج إلى أن يبدأ كل شيء من جديد كما يبدأ الأطفال في هذه البلد، أولها تعلم اللغة الذي يحتاج إلى نسج علاقات اجتماعية، ثم يحتاج إلى بداية البحث عن عمل في بلد غريب ومختلف. هذه الحياة الجديدة يكون لها ردود فعل متباينة عند المهاجر أو اللاجئ، باعتبارها تحديًّا جديدًا، منهم من ينجح ويندمج، ومنهم من يفشل ثم ينزوي في مجتمع صغير من أهل بلده بمنطقة منزوية، ومنهم من يوجه نقمته إلى المجتمع الجديد ويتجه إلى التطرف ضده أو التفكير في الانتحار، وهو ما حدث ويحدث؛ حيث نشرت القناة الأولى الألمانية ((Tagesschau تقريرًا حول محاولات انتحار وسط اللاجئين قُدرت بحوالي 430 محاولة ما بين عامي 2014 إلى 2016، انتهت 19 محاولة منهم بالموت، كان لأغلب هذه الحالات أسباب نفسية واجتماعية متعلقة بعدم القدرة على الاندماج أو عدم القدرة على العودة إلى الوطن مرة أخرى.

يعتمد مستوى اندماج اللاجئين وتكيفهم على عدد من العوامل والاعتبارات الفردية، منها الاستعداد النفسي المتأثر بتجارب ما قبل الهجرة وعملية المغادرة، وخبرات ما بعد الوصول؛ حيث عانى العديد من اللاجئين وطالبي اللجوء صدمات حادة قبل الهجرة، بما في ذلك الاعتقال والتعذيب النفسي والجسدي والعنف الجماعي ورؤية مشاهد الإبادة، وشهدوا قتل أفراد من الأسرة والأصدقاء، والاعتداء الجنسي وخطف الأطفال وتدمير ونهب الممتلكات الشخصية والتجويع والافتقار إلى المياه والمأوى والحصار وتهديد الحياة؛ فالنفسية البشرية عندما تتعرض لمثل هذه التجارب، يحدث لها الصدمة والأزمة والعُقدة النفسية من الاختلاط

(1) كيف نحيا في رفاه، باميلا أ.هايس، ص171.

بالغريب، حتى لو غادر اللاجئ بلد الأذى كلها، سنجده يأخذ ذكرياته معه ليتحول العالم في نظره إلى غابة ذئاب لا يمكن الاطمئنان فيها حتى إلى أكثر الناس قربًا، ولا يمكن الثقة حتى بأكثر الناس صدقًا.[1] يزداد الأمر تعقيدًا بظهور مشكلات جديدة مثل الانفصال الأسري أو عدم توفيق الوضع القانوني في البلد المضيف، أو البطالة أو التشرد أو عدم الحصول على التعليم والرعاية الصحية أو العنصرية أو حتى حاجز اللغة.

غيتو اللاجئين ومجمعات المهاجرين

مع تزايد أعداد اللاجئين من نفس الدولة أو الإقليم ووجودهم في دولة أخرى، غالبًا ما نرى تجمعهم السكني بشكل ملحوظ في مدن ومناطق وشوارع بعينها، بحكم أن مجتمع اللاجئين منفتح على نفسه، خاصة مع عدم قدرته على الاندماج مع غيره بشكل سريع وسلس أو بسبب الخوف من المجتمع الجديد؛ فيسكنون على أطراف المدن أو المناطق المعزولة؛ حيث يتقاسمون المعيشة مع غيرهم من الجماعات المهمشة اجتماعيًّا، وهذا الأمر تكرر كثيرًا في تاريخ وجغرافيا الهجرة واللجوء، وإلى اليوم تجد أمثلة على ذلك في تجمعات سكانية تشبه الغيتو للأتراك في ألمانيا، وللمغاربة في باريس، ومناطق للباكستانيين في بريطانيا، وشوارع في مصر لتكتل السوريين (مدينة 6 أكتوبر، مدينة العبور، مدينة الرحاب)، كذلك تجمعات للسودانيين (منطقة العتبة وعابدين بالقاهرة)، ومناطق الآسيويين (مدينة نصر).

هذه الظاهرة قد تبدو جيدة ليشعر المهاجر بالأنس مع أبناء بلده الذين تجمعهم اللغة والثقافة والمعاناة المشتركة، لكن على المدى المتوسط والبعيد يصنع التغول في هذه التجمعات مشكلات مع متطرفي المهاجرين والمناهضين للمهاجرين في المجتمعات المحلية، خاصة إذا كثرت المناطق المعزولة التي يسكنها اللاجئون والمهاجرون فقط، وتتحول مع الزمن إلى مجتمعات منغلقة على نفسها. يرجع ذلك

(1) التخلف الاجتماعي، مصطفى حجازي، 2005.

إلى اعتقاد السكان المحليين بأن انعزال هؤلاء السكني ما هو إلا محاولة متعمدة لتشكيل جيوب عرقية أو غيتو، فيتم استعداء العنف، وهو ما حدث في التجربة الأوروبية عام 2001 في بريطانيا؛ حيث أزمة (مدن الصفيح أو مدن المصانع)، وعام 2005 في فرنسا بسبب تفاقم المشكلات في مناطق اللاجئين وتدخل الجهات الأمنية لإزالتها ومحوها بشكل كامل.[1]

بشكل عام، العزلة السكانية والمنغلقة سواء من اللاجئين أو من بعض فئات السكان المحليين تُعد بؤرة خطرة بالنسبة للمجتمع والسلطات المحلية؛ ففي عام 1998 حددت وحدة الاستبعاد الاجتماعي في بريطانيا أكثر من 4 آلاف حي سكني لا تتسم الحياة بها أنها فقيرة فقط، ولكنها تمثل جيوب للحرمان الشديد متعدد الأبعاد؛ حيث تعاني مستوياتٍ متدنيةً في الصحة والتعليم مع زيادة كتلتها السكانية، وتحولت تلك الأحياء مع الوقت إلى مناطق محظور دخولها على البعض، ومحظور مغادرتها على آخرين.[2]

من جانب آخر، يُشجع تهميش الدولة المضيفة لبعض الفئات مثل المهاجرين واللاجئين وغيرهم من الفئات المهمشة الأجنبية والمحلية، إثارة شعور الخوف، وتكون هذه التجمعات هي آلية الدفاع عن حياتهم، خاصة مع انعدام الأمن الشخصي والاقتصادي، الذي يعد من الصفات الأساسية لأي مجتمع مقموع؛ حيث يُصاب أبناء هذه التجمعات بالذعر الدافع إلى الارتداد نحو انتماءاتهم الأولى لكي يشعروا بالأمان أو يبحثوا عن الحماية، وفي هذا الارتداد ردة حضارية مريعة؛ لأنه تمزيق للمجتمع الذي يُفترض أنه يحاول أن يتقدم ليتعايش على مبادئ المواطنة والإنسانية بدل مبادئ الانتماءات العائلية أو العشائرية أو الطبقية أو الدينية أو الطائفية أو الجغرافية.[3]

(1) عصر الهجرة، ستيفن كاستلز ومارك ميللر، ص578.
(2) الاستبعاد الاجتماعي، تحرير مجموعة مؤلفين، ص206.
(3) حيونة الإنسان (بتصرف)، ممدوح عدوان، ص170.

تؤكد التجارب أيضًا أن الانغلاق والتقوقع المرضي على الذات من فئات مجتمعية هو أحد مثيرات العنصرية عليها ومنها كذلك؛ فالجماعات المنغلقة على ذاتها تروِّج مقولات ومزاعم بائسة عن مدى تميزها وتفردها واضطهادها، وتعتقد وجوب الحرص على هذا الانعزال بكل السبل المتاحة، وتسعى لاختراع حجج وأسباب متجددة كل مرة لإقناع نفسها بأوهامها المُساقة من جهة واتهاماتها المُكالة للآخرين باضطهادهم من جهة ثانية؛ فتبدأ الحرب ضد الآخر وضد قوانين الحياة والمجتمع والوجود، وتصبح العنصرية القيد الذي يرسم حدود الحركة وطرق التواصل، وتستمر هذه الحرب مع زيادة الانعزال ومضاعفة الفجوات القديمة والتسبب بخلق فتن وفجوات جديدة.[1] ومن هنا خرجت أغلب حركات التطرف النازية والإرهابية وجماعات الكراهية وأحزاب فكر المؤامرة.

«**الله لا يتوه لنا رأي**».. المثل الشامي الذي يُقال عند رؤية مصيبة تحدث لأحدهم بسبب قلة عقله وسوء تفكيره، تذكرت هذا المثل عندما سمعت عن سيدة منفصلة عن زوجها ولديها بنت في عمر المراهقة، هذه السيدة لديها كثير من التشدد في فهمها للدين، وكالعادة كان يتجاوز من حولها الأمر، بعد لجوئها إلى أوروبا هي وابنتها، كان من الطبيعي أن تختلط البنت بصديقات من عمرها من أهل البلد، وهو ما حدث وكانت تحبهن وتقضي أغلب الوقت معهن بحكم تعلمها الجديد للغة وانبهارها بالحياة الجديدة؛ فلما أخبرت البنت أمها عن مدى حبها لصديقاتها الجدد، طلبت منها الأم ألا تحبهن ولا تصادقهن لأنهن (كُفار) ولن يدخلوا الجنة وستؤدي صداقتها بهن بحرمانها من الجنة؛ فقالت لها البنت: «إذا كانت صديقاتي لن يدخلن الجنة؛ فلا حاجة لي بالجنة ولا بالدين كله». وأعلنت البنت إلحادها بسبب ظن الأم أنها متفردة، ويجب عليها اعتزال الأغيار!

نفسيًّا، يؤثر هذا الانعزال في تغذية ذاكرة الماضي الممتلئ بالألم، فبعد الهجرة **يترك أحدهم أرض الحرب لكنه يأخذ نيرانها معه في ذاكرته** ويشعلها أكثر بالانغلاق،

(1) العنصري في غربته، هيثم حسين، ص83.

يقول عن ذلك أرسطو: إنهم يعيشون بالذاكرة بدلًا من الأمل؛ لأن ما تبقى لهم من الحياة ليس سوى القليل مقارنة بالماضي الطويل، ولأن الأمل هو المستقبل والذاكرة من الماضي؛ فهذا سبب ثرثرتهم بكونهم يتحدثون عن الماضي الذي يستمتعون بتذكره، ولأننا لا يمكننا تغيير الماضي، فما قيمة هذه الرحلات في حارات الذاكرة التي تزعج الحاضر ولدينا الاختيار بشأن طريقة تفكيرنا.[1]

اقتصاديًّا، أدت ظاهرة الغيتو أو تجمعات اللاجئين إلى ارتفاع أسعار إيجارات الوحدات السكانية في المدن والشوارع التي يكثر وجودهم فيها عن غيرها، بسبب مضاربة أسعار الإيجارات، كذلك ارتفاع تكاليف الخدمات والمرافق، ليس فقط على اللاجئين لكن أيضًا على السكان المحليين؛ مما يثير خطاب العنصرية ضدهم والمطالبة برحيلهم، كما اضطر بعض اللاجئين إلى تغيير طبيعة عملهم الأصلية وعملوا بمهن متوافرة في المنطقة التي يسكنونها حتى يستطيعوا تحمل تكاليف المعيشة، ما أدى إلى انخفاض جودة الأعمال مع انخفاض مستوى خدمات المرافق (المياة والكهرباء والإنترنت) وتدني مستوى الرعاية الصحية والاجتماعية التى يتلقوها بسبب كثرة الضغط عليها والزيادة السكانية.

غالبًا تؤدي هذه الآثار إلى كوارث، هم والمجتمع والدولة في غنى عنها، فضلًا عن تفويت فرصة الاستفادة والاستمتاع بمساحات ومرافق الدولة الكبيرة (خاصة في أوروبا) ومؤسساتها المختلفة والتعرف على ثقافتها وأهلها والتعلم من علومها بما يفيد المجتمع ككل، ويستثمرون الهجرة من بلادهم في التعرف على العالم بدلًا من التقوقع على ذواتهم، وهكذا يمكنهم إرسال رسالة طمأنه إلى المجتمع المضيف، أنه لا شيء يخفيه اللاجئون في مناطقهم المغلقة، وأنهم منفتحون وفاعلون وإيجابيون في التعرف والعمل، ويريدون عيش حياة طبيعية بالمجتمع الجديد.

(1) تدبر الكبر، مارثا نوسباوم، ص165.

حاجز اللغة واللهجات المحلية

مع عائق اللغة الجديدة وصعوبة تعلمها، فكثير من اللاجئين والمهاجرين قد يواجهون الحرج مع بعض الكلمات المنطوقة والمكتوبة بالعامية واللهجة المحلية في البلاد الجديدة عليهم بما فيها البلاد العربية، بسبب اختلاف اللهجات في اللغة الواحدة، ولوجود ألفاظ تحمل دلالة عادية في بلدهم لكنها تشتمل على معنى مختلف أو معاكس أو مُخجل في بلد الحضور، وهذا يكاد يكون موجودًا في كل اللغات، بما فيها اللغة العربية ولهجاتها المختلفة، من أهم وأشهر هذه الألفاظ:

- **آنسة**: في العامية السورية تعني الأستاذة أو المُدرسة، في العامية المصرية تعني غير المتزوجة.
- **مرا**: تعني بالعامية السورية الأنثى المكتملة، في العامية المصرية تعني سب وشتيمة.
- **ابن مرا**: في العامية السورية تعني (الشجاع)، في العامية المصرية تعني مسبة وشتيمة ثقيلة.
- **لبؤة**: هي أنثى الأسد في العربية الفصحى، وفي العامية السورية تعنى المرأة الشجاعة وتستعمل هكذا في كل بلاد العرب تقريبًا، إلا في مصر؛ تعني المرأة شديدة الأنوثة والمثيرة جدًّا، التي تتقن فن الدلال والغنج.
- **يعزل البيت**: بالعامية السورية يعني (ينظفه)، لكن بالعامية المصرية يعني (يهجره إلى غيره).
- **يعيط**: في العامية السورية يعني يُعلي صوته، في العامية المصرية يعني يبكي.
- **يعطيك العافية**: بالعامية السورية تعني الدعاء وتمني السلامة والصحة للغير، في العامية المغربية العافية تعني (النار والهلاك).
- **يقلّعه**: بالعامية السورية يعني يطرده، لكن بالعامية المصرية يعني يجرده من ثيابه.
- **يفشخ**: في العامية السورية تعني يُسرع في المشي، في العامية المصرية تعني ممارسة الجنس بعنف.

- **نفرح فيك**: بالعامية السورية تعني تمني الفرح والسعادة للغير والمشاركة فيه، بالعامية المصرية تمني الشماتة.
- **القهوة حلوة**: بالعامية السورية تعني أن القهوة سكر زيادة، لكن في العامية المصرية تعني (حلوة) جيدة.
- **هانروح تمساية**: بالعامية السورية تعني سنذهب إلى العزاء (التمساية للرجال، العزاء للسيدات)، بالعامية المصرية تمساية تعني أمسية سمر وسهر، كذلك في مصر العزاء هو أخذ خاطر أهل الميت (تستخدم للرجال والسيدات).
- **دولاب**: بالعامية السورية يعني إطار السيارة (العجلة)، في مصر يعني خزانة الملابس.
- **حواء**: في المغرب يستخدم فعل (حوى.. يحوي) بمعنى الجماع أو ممارسة الجنس، مع أن اسم (حواء) ليس مشتقًّا من فعل (حوى) بل من الحياة، فقد أتى على وزن فَعَّال من صيغ المبالغة في العربية والدارجة المغربية، لذلك يتجنب المغاربة استعمال (حوى) وسائر مشتقاته.
- **الطابون**: هو التنور أو المخبز لدى المصريين ويشيع استخدامها أكثر في الريف (الطابونة)، لكن في المغرب يعني فرج المرأة، و(الطَّبُّونة) في اللهجة السورية هي صندوق السيارة الخلفي (الشنطة) التي توضع الأشياء فيها.
- **يخدم**: في المغرب تعني يعمل، أي كان العمل، فالرئيس خدام ويخدم يعني يشتغل، في مصر (يخدم) و(خادم) هو الذي يساعد في عمل البيت.
- **الحوت**: في أي لهجة يعني الحوت المعروف، لكن في تونس، الحوت يعني سمك، أي نوع سمك اسمه حوت.
- **العظم**: إذا دعاك مغربي أو تونسي لتناول طبق عظم، هو يقصد طبق (البيض).
- **الانتصاب**: في كل اللهجات يعني الانتصاب الجنسي، إلا في تونس يعني الوقوف، وإذا كتب التونسيون لافتة في الشارع (ممنوع الانتصاب) فهم يقصدون (ممنوع وقوف الباعة المتجولين أو السيارات)، وطبيعي أن تجد في تونس خبرًا

في الفضائيات أو الصحف بعنوان (للحد من ظاهرة الانتصاب الفوضوي، قرر السيد الرئيس تخصيص أماكن للمنتصبين(، واللفظ يتكرر كثيرًا في وسائل الإعلام التونسية.

- **العيش**: إذا دعاك خليجي لتناوله العيش هو يقصد (الرز) لا الخبز.
- **يفر**: في سوريا يستخدمها الناس (وخاصة الصغار) بمعنى التبول، وهي تعني في باقي البلاد الخروج أو الجري والهروب.
- **طرش**: في سوريا ولبنان يعني الدهان للبيت وتغيير لونه يقوم به (الطراش)، في مصر يعني الغثيان والاستفراغ.
- **فنجري**: في مصر تعني الكريم السخي، ولكن في السعودية تعني الرجل الذي يمارس الجنس بكثرة.
- **ماشي**: إذا تفاوض مصري مع يمني على صفقة ما، فقال المصري (ماشي) وقال اليمني (ماشي)، لابد أن يعلم الطرفان أن (ماشي) بالمصري يعني (موافق)، وباليمني تعني (غير موافق).
- **أنعم الله مساءك**: يقول اليمني للضيف عند وصوله (أسعد الله مساءك)، فإذا غادر قال له (أنعم الله مساءك)، فإذا قال (أنعم الله مساءك) وهو واصل الآن، سيشعر أنه غير مرحب به، ويطلب منه المغادرة.
- **لا**: في بعض الدول والأقاليم ينتشر المثل (يتمنعن وهن راغبات، عيني فيه وتفو عليه، لا تعني آه)، لكن في أغلب العواصم والبلاد (لا تعني لا)، فإذا تمت عزومتك على ضيافة وقلت لا، فلن تجد أحدًا يلح عليك حتى تقبل.

التحاسد بين اللاجئين وبعضهم

كأن اللاجئين كان ينقصهم المشكلات الخارجية، ليجدوا أنفسهم في مشكلات من صنع بعضهم بعض، حال بعضهم كما يصفه ممدوح عدوان في قوله «مجتمعات القمع، القامعة والمقموعة، تولّد في نفس كل فرد من أفرادها دكتاتورًا، ومن ثمّ فإن كل فرد فيها ومهما شكا من الاضطهاد يكون مهيئًا سلفًا؛ لأن يمارس هذا القمع ذاته الذي يشكو منه، وربما ما هو أقسى وأكثر عنفًا على كل من يقع تحت سطوته».[1] وهذا ما رأيناه بين بعض اللاجئين الفلسطينيين في الشتات وتناحرهم وتباعدهم؛ لأن فريقًا منهم يؤيد فصيلًا وفريق يؤيد فصيلًا آخر. كذلك بعد توافد اللاجئين السوريين إلى ألمانيا في السنوات الأولى للحرب، كان وما زال يتم إيداعهم مخيمات استقبال اللاجئين لأسابيع وربما شهور، للكشف الطبي والنفسي وتقنين الأوراق الثبوتية، في هذه الأثناء لُوحظ وجود معارك لفظية وجسدية وإيذاء وتحرشات بين اللاجئين وبعضهم لأسباب لها علاقة بعدم القدرة على الحياة مع ابن البلد المختلف، وأصبحت فكرة التصنيف عالية الذكر ما بين (موالٍ للنظام، معارض للنظام)، (مسلم، مسيحي، ملحد)، (سني، شيعي)، (شامي، حلبي، إدلبي..)، (شامي من داخل السور، شامي من خارج السور)، (من أصول غنية، من أصول دراويش)، ما حدث في هذه المخيمات يحدث أيضًا في الشقق السكانية المشتركة بين اللاجئين في الدول العربية التي هاجروا إليها.

رأينا أيضًا كيف أوصل التحاسد وتصفية الحسابات القديمة بعض السوريين من أصحاب المطاعم السورية بالقاهرة إلى القيام بالوشاية والكيد والتربص ببعضهم، فرأينا أحدهم يدفع رشاوي لعاملي الدليفري في المطعم السوري المنافس له ليتأخروا في توصيل الطلبات، ما يؤدي إلى انقطاع العملاء عنه ثم إغلاقه. ونسي هذا وأشباهه أن **الخير يحب من يحبه لغيره، والظلم لا يأتي أبدًا بسعة الرزق، فمهما فاقت المواهب فإن المظالم تحجب التوفيق**، وأن ابن كارك ليس عدوك، عدوك

(1) حيونة الإنسان، ممدوح عدوان، ص149.

شيطانك الذي يوسوس لك ذلك، ورزقك مكتوبًا لك قبل ولادتك. صاحب مثل هذا التصرف يحاول أن يثبت بالفعل أن الإنسان أصله حيوان، لكن العجيب أن غريزة سائر الحيوان هي التماس الرزق من الله، أي من مورده الطبيعي، وهذا الإنسان حريص على اختطافه من يد أخيه.[1] مع ذلك، هناك نماذج رائعة، منها أن صاحب مطعم سوري قد أغلق مطعمه مؤقتًا في يوم افتتاح أحدهم لمطعم سوري آخر قريب منه، وعلق لافتة كبيرة لتهنئته والمباركة له، حتى يلفت نظر الزبائن إلى المطعم الجديد.

على ذكر تصفية الحسابات، تكثر بعد الهجرة حوادث لها علاقة بها بين اللاجئين كأي كتلة بشرية بينها خلافات، تبدأ هذه الحسابات من البيوت، فقد تم تسجيل آلاف من حوادث اعتداء (ضرب أو قتل) أزواج لزوجاتهم بعد الوصول (حادثة مدينة كارلسروه الألمانية: مارس 2018)، أيضًا تم تسجيل هروب المئات من الزوجات والأبناء من البيوت بسبب العنف الأسري القديم بمجرد الوصول إلى البلد المضيف، وعلى العكس من ذلك، وجدنا كثير من الأسر المفككة قبل الهجرة، بعد وصولهم جمعتهم المعاناة وقربتهم الشدة، وكسبوا ود وحب تجدد في أرض جديدة، لم تشهد لهم خلافًا من قبل ولا منازعة.

(1) الأعمال الكاملة: عبد الرحمن الكواكبي، ص231.

ثروة اللاجئين الإنسانية

قال المصباح السحري للولد المعدم
كذبت كل حكايات الأجداد عليك
الأمنية الكبرى ليست في القمقم
لم تعط يدين لتفرك مصباحًا سحريًّا وتنام
استيقظ كي تحلم.

مريد البرغوثي

لا يوجد إنسان عاقل في ظروف طبيعية يتمنى أن يكون لاجئًا، أو يتمناه لغيره، الغربة واللجوء بلاء العصر العَسِر على أفراد وشعوب ضاقت بهم بلادهم، فخرجوا منها حفاظًا على ما بقي من حياتهم، حتى هذه الأوطان التي خرجوا منها رغم ما تبدو عليه من قسوة إلا أنها في خسارة وحسرة على هذه الطاقات والعقول التي ولدت ونمت في أرضها؛ لتُنمي وتزرع وتحصد في أرض غيرها، رأس مالها الفكري والإبداعي والإنساني خارج الحدود، كيف لها أن تنهض؟!

على الرغم من أحوال اللجوء البائسة وظروف اللاجئين السوداء، فإنه كالعادة هناك شيء ما يضيء فيها؛ فمجتمع اللاجئين مثل أي مجتمع، فيه تحديات ومخاوف وضغوط، وفيه أيضًا إمكانات وطاقات ووعود، هناك وجه آخر رائع للاجئين ينير لهم وللبشرية دروبًا ما كانت لتظهر إلا بوجودهم. صحيح أن اللاجئ هو الضعيف الواجب دعمه، لكن على وجه آخر هو القوي الذي يعطي.. ويعطي الكثير، يعطي للعالم ما ينقصه من جرعات الأمل وجمال التحمل، ودروس مباشرة في فنون **الحياة التي مهما انتهت بشكل ما؛ فيمكن أن تكون ممكنة بشكل آخر**، ويرسل رسالة قوية

بأن الدنيا تدور، فلا كبر ولا بطر، وأن لكل شدة مُدة، ويهونها جميل الصبر الذي يأتي بعده الجبر.

تعلم الصمود النفسي عمليًّا

على مدار أكثر من عشر سنوات قضيتها في ملفات دعم اللاجئين والمهاجرين، رأيت هذا الجمال ولامسته كثيرًا في وجوه تزينت في الفجيعة بالصبر، وتجملت في الألم بالتفويض، ومواصلة السير ولو ساروا وأيديهم على جراحهم. هذا الجمال المختلف الذي لم تتعود البشرية على رؤيته، قدمه هؤلاء ببراعة، نتحدث هنا عن نوع من الجمال يمنحنا شعورًا أبعد من السعادة والراحة، جمال يحررنا ويردنا لأجمل ما فينا.. إنسانيتنا.[1] جمال لا نتلذذ به، لكننا نتعلق بأهله، جمال مختلف، لا نحبه، لكننا نُقّدر وجوده مع أمنيات صادقة ألا يتكرر. رأيته في مئات قصص نجاح هؤلاء الذين خرجوا من أوطانهم بملابسهم فقط، وأحيانًا يكونون قد اصطحبوا معهم رصاصات أو آثارها بعدما أصابت أجسادهم أو أجساد أبنائهم، وبدأوا حياة من الصفر أو تحته بكثير، في بلد لا يعرف أحد عن آلامهم شيئًا.

ورغم تجارب القتل والدمار والقصف المركوزة في ذاكرتهم، إلا أنهم يصرون على صناعة ذكريات مغايرة بالإنجاز والكسب ومواصلة الحياة. صحيح أننا رأينا مئات النماذج من هؤلاء الذين حققوا ذكريات جديدة رائعة بقصص نجاحهم، لكننا ندرك أن هذه القصص في حياة اللاجئين بلا عدد، فمع كل وصول لاجئ إلى دار أمنه وكرامته قصة، ومع تَخرج كل طالب لاجئ من جامعة بعد معاناة قصة، ومع كل إنجاز علمي وعملي واجتماعي في البلد الجديد قصة، ومع كل مشروع يفتتحه لاجئ قصة، ومع كل قصة حب وزواج لاجئ خارج وطنه قصص.

حكايات من الحياة أغلبها يفوق الخيال، يُكتب عنها ألف مقال ومئات الروايات، أبطالها فكرة الإرادة والصمود وإدراك حقيقة أن الحياة يمكنها أن تعيد

(1) لا تمت قبل أن تحب، محمد الفخراني، ص78.

البدايات.. كل البدايات، وإن كانت بطرق مغايرة. لقد صمد هؤلاء وإن دُمرت بيوتهم وأوطانهم، فقد صمدت نفوسهم فعبروا المحنة، وعلمونا هذا الفن عمليًّا، فن الصمود الذي تحدث عنه علم النفس كثيرًا، ولا يُحسنه إلا من تمت إنسانيته كما يقول عبد الوهاب المسيري:»الإنسان كائن أقدامه مغروسة في الوحل، وعيونه شاخصة للنجوم، يسقط دائمًا، لكنه قادر على النهوض.. ثم التجاوز».

يقول علم النفس، إن الصمود النفسي ((Psychological Resilience في معناه العام لا يعني فقط المجابهة ومواجهة الكوارث، إنه مسألة نظرة إلى الحياة ككل، والتفكير والنظر إلى الأمور منذ بداية الوعي إلى آخر العمر، ويعني الصمود النفسي القدرة على التعامل مع كل ما نلقاه من مواقف، المواقف الطيبة تزيده والمواقف الشديدة تقويه، وفي الصمود معانٍ من مكونات الكلمة: (ص) صلابة أمام الفواجع، (م) مرونة أمام الاختيارات، (و) وقاية مسبقة من الانكسار، (د) دافعية للعمل والمشاعر الإيجابية.[1]

كما يعني الصمود النفسي التحكم بالذات والتنظيم الذاتي والقدرة على تغيير الأفكار المترتب عليها سلوكيات وقرارات، وهو بذلك يُعد عمود صحة العقل كما عرّفتها منظمة الصحة العالمية عام 2004 في أول تقرير لها حول الصحة العقلية بأنها حالة من جودة الحياة، يُحقق الفرد من خلالها قدراته ويستطيع بها مواجهة ضغوط الحياة.[2] ويحدث هذا باستخدام الفرد لنقاط القوة في الشخصية والمواقف والتركيز على قيم الأمل والتفاؤل والشجاعة والمرح والرضا عن الحياة، بغض النظر عما فيها من مواقف سلبية، وأكدت ذلك الدراسات التي أُجريت على مراهقين في الهند يعيشون حياة الزحام والفقر، وعينة من الأشخاص في أمريكا بعد أحداث

(1) الصمود من منظور علم النفس الإيجابي، صفاء الأعصر، المجلة المصرية للدراسات النفسية، القاهرة، 2010، ص1.

(2) دليل علم النفس الإيجابي، شين لوبيز وسنايدر، ص321.

11 سبتمبر، وكانت النتيجة واحدة مع اختلاف الظروف الصعبة، أن العينات التي أثبتت صمودًا نفسيًّا كانت تحمل قيمًا تعني الأمل والتفاؤل والرضا.[1]

وهؤلاء اللاجئين الذين عاينوا الظروف القاسية ولم تكسرهم، بل جعلتهم أقوى، يمكنهم بمزيد من الاهتمام والتشجيع وإتاحة الفرص لهم، أن يحققوا المستحيل في كل أرض يصلون إليها؛ لأنهم أصبحوا أكثر استعدادًا للتحديات مهما عظُمت، وأكثر قدرة في التعامل مع الظروف مهما صعُبت، **فمن عايش العواصف والأعاصير.. هانت عليه هبات الرياح وسقوط المطر.**

النجوم المهاجرة

دروس أخرى في الصمود النفسي، تجدها في نفسية اللاجئ وتشبعها بإرادة النجاح وتحقيقه، وكأن اللاجئ أو المغترب يعتمد استراتيجية النجاح أو النجاح؛ فلا وجود عنده لرفاهية الفشل أو الكسل أو حتى الإحباط، يبقى مستمرًّا في المحاولة حتى يحقق هدفه. تجد هذا الصمود والإصرار في المشروعات والمطاعم والمحال والمصانع والشركات التي يمتلكها لاجئون، وفي قصص نجاح العبور من الصفر بعد الهجرة إلى حد الكفاية والرفاه الذي يعيشه آلاف اللاجئين في الدول بعملهم وكدهم، ورغم صيحات وموجات العنصرية في أوروبا، إلا أن ما يدعو إلى التفاؤل هو هذا النشاط الكبير لكثير من لاجئي العرب وتفاعلهم في المجتمعات الحاضنة ونجاحهم الإنساني المنقطع النظير.

شهدت دراسة صادرة عن مؤسسة برتلسمان الألمانية، أن عدد العرب اللاجئين المتطوعين في عمليات الإغاثة داخل ألمانيا يزداد بشكل ملحوظ، لتكون هذه الشريحة هي الأكثر تطوعًا من غيرها، ما جعلهم يستحقون لقب (بناة الجسور في المجتمع الألماني). لقد ضربوا أمثلة رائعة في الدمج الاجتماعي والتفوق الدراسي والبحثي

(1) وأنقذتنا الصفحات، باسم الجنوبي، ص199.

والنبوغ العلمي والسياسي والفني والثقافي والأدبي والرياضي والاقتصادي، وكانوا إضافة حقيقية للمجتمعات والدول الحاضنة، من هؤلاء:

السيراليوني إسماعيل بيه

«في السماء، توجد دائمًا إجابات وتفسيرات لكل شيء، كل ألم، وكل معاناة، وفرح، وارتباك». قالها المؤلف واللاجئ السيراليوني والناشط في مجال حقوق الإنسان (إسماعيل بيه) في مذكراته (طريق طويل قطعناه: A Long Way Gone). كان بيه يبلغ من العمر 12 عامًا فقط عندما أُجبر على أن يكون جنديًّا في بلده لقتل أبناء وطنه، لم يختر أبدًا أن يكون واحدًا من بينهم، لكنه كان يؤمن دائمًا أن السماء سترشده إلى بداية جديدة، في سن 13 أُطلق سراحه وتمكن من الانتقال إلى الولايات المتحدة، حيث حصل على حق اللجوء وخاض رحلة علاج نفسي وتعافٍ شديدة، خرج من بعدها مناضًلا في حقوق الأطفال، عينته يونيسف مدافعًا عن الأطفال المتأثرين بالحرب في 20 نوفمبر 2007.

السورية يسرى ماردیني

ولدت يسرى عام 1998 في دمشق، فرّت سنة 2015 من الحرب الدائرة في سوريا عبر بيروت، ثم أزمير -تركيا وصولًا إلى ليسبوس -اليونان، صحبتها في الهجرة أختها سارة وهي أكبر منها سنًّا، في أثناء الهجرة وفي عرض البحر تعطّل القارب الذي كان سيوصلهما مع آخرين إلى جزيرة ليسبوس؛ فاضطرت يسرى وأختها وامرأة ثالثة إلى أن يسبحن وهن يسحبن القارب لمدة ثلاث ساعات والوصول به إلى الشاطئ. وصلت يسرى إلى اليونان بلا حذاء، فقط مع حقيبة صغيرة بها هاتف وبعض النقود، ثم وصلت إلى ألمانيا؛ حيث استضافتها اللجنة الأوليمبية الألمانية 2016، وتم تعيينها سفيرة للنوايا الحسنة للمفوضية في إبريل 2017، وفي عام 2022 أنتجت منصة نتفليكس فيلم (السبّاحتان) عن يسرى وسارة مادريني، لنقل معاناة اللجوء والهجرة.

السوري مأمون طاهر

شاب سوري، تخرج من كلية علوم المواد الهندسية بجامعة حلب عام 2007، لينال بعدها درجة الماجستير في الهندسة الطبية الحيوية عام 2009 من الجامعة ذاتها، اضطر طاهر للجوء إلى السويد، وحصل على منحة إيراسموس موندس الأوروبية لدراسة الماجستير في علوم المواد الهندسية المتقدمة بجامعة سارلاند في ألمانيا، وواصل الدراسة في السويد والمعهد الملكي للتكنولوجيا في جامعة غينت البلجيكية.

حصل طاهر على درجة الماجستير الأوروبي المشترك وزمالة بعد الدكتوراة من معهد أنغستروم للتكنولوجيا بجامعة أوبسالا، وعمل بمراكز أبحاث في مجال الطاقة والروبوتات الصناعية في مدينة فيستروس السويدية، نال مأمون جائزة الملك كارل غوستاف السادس عشر للعلوم والتكنولوجيا السويدية لعام 2019 كصاحب أفضل بحث علمي له تأثير إيجابي على تطوير الحضارة الإنسانية، وذلك عن أبحاثه الخاصة في تطوير مادة (الغرافين) الكربونية وتطبيقها في صناعات مختلفة؛ ليصبح أول باحث عربي على الإطلاق يحصل على هذه الجائزة، والآن يدير شركة في السويد متخصصة في مجال النانوتكنولوجي، إضافة لعمله كباحث في جامعة أوبسالا، وتمكن من إنشاء شركته عام 2017 بعد أشهر قليلة من إنجاز 10 مشروعات مشتركة مع شركات أخرى حول العالم لتطوير منتجاته باستخدام المادة المبتكرة التي اكتشافها.

المبرمج السوري محمود شحود

تُوِّج اللاجئ السوري محمود شحود بلقب أفضل مبرمج عربي في مدينة دبي الإماراتية ضمن مبادرة (مليون مبرمج عربي)، وفاز بالجائزة الأولى التي وصلت قيمتها إلى مليون دولار أمريكي، وقرر شحود التبرع بنصف قيمة الجائزة إلى الأطفال الأيتام السوريين الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم نتيجة الأحداث التي شهدتها بلاده

خلال العقد الماضي. تخرج شحود من جامعة دمشق عام 2012 ليعمل بعدها في مجال تطبيقات الموبايل، ووصل بعدها إلى منصب كبير مهندسي تطبيقات أندرويد في إحدى شركات التكنولوجيا التركية. قام شحود بتطوير تطبيق (هابيت 360) الذي يهدف إلى مساعدة المستخدم على بناء عادات جديدة والتخلص من عاداته السيئة، كما يساعد المستخدم على فهم مشاعره اليومية ويقترح عليه مجموعة من الأنشطة والعادات التي تهدئ من حدة المشاعر السلبية.

السوري ريان الشبل

وصل ريّان الشبل ابن مدينة السويداء السورية على متن قارب هجرة إلى جزيرة ليسبوس اليونانية 2015 وعمره 21 سنة. بعد وصوله إلى اليونان، عبر الشاب إلى مقدونيا وصربيا وكرواتيا من خلال وسائل النقل العام وعلى الأقدام، واستغرق وصوله إلى ألمانيا 12 يومًا، تعلم اللغة في وقت قياسي وعمل في المحليات وحصل على الجنسية، ولم يتخيّل أنه بعد 8 سنوات فقط سيكون رئيس بلدية أوستلسهايم، القرية الألمانية الهادئة وعمره 29 سنة، ليكون أول لاجئ سوري يكون على كرسي رئاسة بلدية في البلد المضيف.

الفلسطيني السوري محمد إبراهيم زيدان

اللاجئون السوريون من أصل فلسطيني هم الأقل حظًّا وسط لاجئي العالم، بسبب عدم اعتراف دول أوروبية بوجود فلسطين، وبسبب الحملات ضد العرب والمسلمين والفلسطينيين بشكل خاص، لكن محمد إبراهيم زيدان، واجه كل ذلك ببطولة. ولد محمد في مخيم النيرب بحلب عام 1998 لآباء من أصل فلسطيني، درس الكيمياء بجامعة حلب وتخصص بعدها في الكيمياء الحيوية. هرب إلى لبنان عام 2011، وعمل متطوعًا في منظمة الهلال الأحمر الفلسطيني في طرابلس، ثم هاجر إلى البرازيل بسبب الأوضاع المزرية التي يعيشها فلسطينيو سوريا في لبنان، تمكن زيدان من تعلم اللغة البرازيلية خلال 14 شهرًا، وعدّل شهادته في جامعة

فيسوزا الفيدرالية الحكومية، وعمل هناك مع الشركة الأمريكية الدولية المتخصصة بإنتاج الأدوية.

لاحقًا حصل زيدان على وظيفة باحث في معهد بوتانتان الحكومي، وهو أكبر مؤسسة بحث علمية في مجال اللقاح والمصل في أمريكا الجنوبية والوسطى، وذلك بعد تفوقه في مسابقة على عدد كبير من المتقدمين أغلبهم برازيليوالأصل. يُسهم زيدان حاليًّا في إنتاج اللقاحات المضادة للفيروسات، منها اللقاح المضاد لفيروس كورونا وعدد كبير من اللقاحات الأخرى المضادة لكثير من الأمراض البكتيرية والفيروسية، ما جعله مؤهلًا للحصول على عضوية كبرى مؤسسات إنتاج اللقاحات، كما حصل على العضوية الفيدرالية في قسم الكيمياء والتكنولوجيا الحيوية والبيولوجية بالمجلس الكيميائي الأعلى.

الفلسطينية زاهية المصري

أول لاجئة فلسطينية تخوض انتخابات البرلمان الكندي؛ حيث مثَّلت الحزب الديمقراطي الكندي في الانتخابات الفيدرالية، بمدينة مونتريال، كبرى مدن مقاطعة كيبيك، ومع هذا الترشح أصبحت زاهية أول لاجئة فلسطينية تترشح لهذه الانتخابات، وكان من أبرز أسباب تأهلها لهذا الترشح معرفتها الدقيقة بأحياء هذه الدائرة وشوارعها عن ظهر قلب؛ ففيها استقرت مع أهلها وفيها ترعرعت وما تزال تقيم. حصلت زاهية على ماجستير في الإدارة العامة وخاضت غمار الانتخابات كمرشحة، وكانت قد هاجرت مع عائلتها من لبنان إلى كندا قبل 35 عامًا، لكنّها ما تزال تحمل وجع اللّجوء، وترى أنّ هذا الأمر أسهم في تعزيز وتكوين شخصيتها.

الأفغانية فاتيما بايمان

تمكنت فاتيما بإيمان اللاجئة الأفغانية من أن تكون أول محجبة في تاريخ أستراليا تفوز بمقعد في مجلس الشيوخ الأسترالي. فاتيما التي جاءت من أفغانستان إلى أستراليا وهي في سن صغيرة مع والديها وثلاثة من أشقائها، فازت بعد سنوات

لجوء وعمل جاد بالمقعد السادس والأخير عن ولاية أستراليا الغربية في مجلس الشيوخ، ونالت تهنئة رئيس الوزراء الأسترالي أنطوني ألبانيز على فوزها المستحق، قائلًا لها بكل فخر: «مبروك السناتور بايمان».

اليمني أحمد عسكر

الشاب ابن بلدة حجّة اليمنية، كان يحلم بأن يكون مثل محمد علي كلاي، على الرغم من الإمكانات المتواضعة في بلدته، فإنه أصر على ممارسة رياضة الكيك بوكسينغ وأن يرتدي قفاز الملاكمة. بدأ اللعب في اليمن ووصل لأن يكون من لاعبي المنتخب اليمني للكيك بوكسينغ، حرص على تطوير مهاراته ولم يكن هناك اتحاد لهذه الرياضة في اليمن، فقط يوجد مدرب في مدينة الحديدة البعيدة عنه؛ فكان يسافر له للتدريب. وكالعادة تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، بعد بداية تحقيق حلمه، اشتعلت الحرب في اليمن وتوقفت الرياضة والأندية بالكامل هناك، وأصيب باكتئاب شديد، لكنه وافق على التحدي واتخذ كوريا وجهته للسفر، وبعد معاناة وصل إلى هناك، وبدأ في تحقيق النجاحات ليصبح بطل كوريا الجنوبية في الكيك بوكسينغ، كما حصل على حزام البطولة في دورة المحترفين بماليزيا، وبطولة سوبر كوريا، وبطولة الأبطال في كوريا الجنوبية، وبطولة كوريا الجنوبية للمحترفين، كما شارك في بطولة آسيا للصالات المغلقة في إنشيون كوريا الجنوبية 2013، وبطولة العرب السابعة في المملكة المغربية 2014، وبطولة العرب للمواي تاي في أبوظبي 2019.

مودريتش: نجم ريال مدريد

لوكا مودريتش (38 سنة) كرواتي الأصل، ويقود حاليًّا خط الوسط في ريال مدريد، الذي فاز معه عام 2014 بدوري أبطال أوروبا. ولد لوكا في 9 سبتمبر 1985 في مدينة زادار الساحلية والتحق بأكاديمية النادي المحلي، وفي عام 1992، أي عندما كان في الثامنة من عمره هرب مع عائلته عندما استولت القوات الصربية

على أجزاء كبيرة من كرواتيا وقتلت جده، وانتقل مودريتش إلى زغرب التي تبعد عن مسقط رأسه حوالي 300 كيلومتر، وانضم هناك إلى دينامو زغرب، وتمكن من جمع الكثير من الخبرات بفضل إعارته إلى العديد من الأندية ليصبح لاعبًا أساسيًّا في الفريق عام 2005، وفي عام 2008 انتقل للعيش في لندن بعد تعاقده مع نادي توتنهام هوتسبر، وفي 2012 انضم إلى صفوف النادي الملكي ريال مدريد، وفاز معه بالعديد من الألقاب.

ومُلاحظ أن قصص نجاح لاعبي كرة القدم اللاجئين كثيرة جدًّا يمكن مراجعتها عبر قصص كريستيان بينتيكه لاعب ليفربول، إدين دجيكو مهاجم إيه إس روما، فيكتور موسيس جناح أيسر ويستهام، شيردان شاقيري نجم ستوك سيتي، فيداد إيبسيفيتش مهاجم هرتا برلين، أوير مابيل اللاجئ السوداني ولاعب المنتخب الأسترالي.

على ذكر النجوم المهاجرة، قد صدر للكاتب الصحفي حسام عبد القادر، كتابًا تحت عنوان (طيور مهاجرة) يحتوي على تعريف بعدد كبير من المهاجرين العرب في أوروبا وأمريكا، من الذين سطروا قصص نجاح علمية وعملية مبهرة، ورفعوا أسماء بلادهم إلى القمر حرفيًا، كما فعل الفلسطيني عصام النمر، وهو من نخبة العلماء القلائل بوكالة ناسا الذين يعطون إشارة إطلاق المركبات الفضائية، شارك في تجهيز مركبات أبوللو 11، التي كانت أولى مركبات الفضاء التي تهبط على سطح القمر عام 1969، واشتهر عصام النمر بقصة تسلميه حجرًا كتب عليه (جنين)، نسبة إلى مدينته الفلسطينية، إلى رواد المركبة الفضائية، ليتم وضعه على سطح القمر، وقد كان، وعندما سأله أحد الصحفيين الأمريكيين: لماذا كتبت اسم جنين ولم تكتب فلسطين؟، فأجاب: حتى يسمح لي الأمريكيون بإرساله إلى القمر.

تعرض الكتاب أيضًا للتعريف بالعلماء المهاجرين والعاملين في وكالة ناسا الفضائية؛ من فلسطين: لطفي مزيد عياد، سليمان بركة، سها الفيشاوي (كبيرة مهندسي البرمجيات في البرنامج الفضائي الأميركي أورايون). ومن أبناء السودان:

الرشيد زكريا، وداد المحبوب، عبد المجيد أحمد مصطفى، نجوى عباش. ومن لبنان: شارل العشي، مصطفى شاهين، محمد الأوسط العياري. ومن الجزائر: نور الدين ميكيليشي، يوسف توما. ومن مصر: فاروق الباز، عصام حجي، عصام معروف، هاني مصطفى. ومن المغرب: أسماء بوجيبار، كمال الودغيري، سلوى رشدان، سعيد العلوي، مصطفى بوسمينة.[1] صدق في حال هؤلاء النجوم المهاجرة وغيرهم قول رضوى عاشور: «هناك احتمال آخر لتتويج مسعانا بغير الهزيمة، ما دمنا قررنا أننا لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا».

الامتنان وشكر النعم والهروب من ورطة إلفها

في خمسينيات القرن العشرين أجرى عالم النفس البولندي (كازيميرز دابروفسكي) دراسة على أشخاص ناجين من الحرب العالمية الثانية، درس كيف كانت حياتهم قبل وبعد الحرب التي رأوا فيها الجحيم والقتل والتفجير والاعتقالات والتعذيب.. إلخ. كان المدهش أن نسبة كبيرة من هؤلاء خرجوا أفضل بعد الحرب وأكثر مسؤولية وامتنان وسعادة على رغم شدة الحرب وظروفها. وصف كثير منهم حياتهم قبل الحرب أنهم كانوا جاحدين جامدين تستهلكهم التفاهات ويشعرون أنهم يستحقون وحدهم كل التفضيلات، خرجوا من الحرب ممتنين لفكرة الأمن، أصبحوا أكثر سعادة لأي هدية أو مساعدة بسيطة تُقدم لهم، صاروا بشرًا لا يُعكر مزاجهم توافه الأمور وصغائرها، لقد صاروا بشرًا وكفى. وهو ما أكده الكاتب السوري ممدوح عدوان بقوله «عندما يُسحق الإنسان إلى درجة حرمانه من أشيائه الصغيرة والعادية في حياته اليومية، وعندما يوضع في أمكنة لا تنتمي إليها روحه، ويُجرّد من كل شيء حتى من اسمه ويتحول إلى رقم، فيما بعد يشعر لحظة استعادته لأبسط الأشياء أن الأقدار عادت لتبتسم له وتدب في خلاياه دماء الحياة».[2]

(1) طيور مهاجرة، حسام عبد القادر، ص132.

(2) حيونة الإنسان، ممدوح عدوان، ص6.

حاليًّا، يُعيد اللاجئون نفس الرسالة إلى العالم، رسالة الامتنان وشكر النعم التي تعود عليها لدرجة نسيانها وعدم تقديرها كما ينبغي. في زيارة طارئة لإحدى الأسر السورية بالقاهرة، زرت سيدة سورية هاجرت إلى مصر بعدما قُصف بيتها وصار هو والأرض سواء، وفي أثناء زيارة التقييم للدعم، لاحظت أن البيت لا يوجد به دولاب أو خزانة ملابس، واستخدمت السيدة بدلًا منه صناديق كرتونية وعلب ورق مقوًّى، ثبتتها فوق بعضها بحرفية وكأنها رفوف في محل ملابس فاخرة، سألتها إن كان أمر خزانة الملابس ضروريًّا لها فنشير له في ورق أمنياتها، فقالت: «يا بني، لقد قُصف بيتي وصار رمادًا، وعشنا في مخيمات مع مئات الناس؛ فكوني في بيت أنا وأولادي نعمة كبيرة، لا يضرها غياب خزانة».

إنه شكر نعمة العافية والبيت والستر والأسرة، الذي غالبًا ما يغيب عن المتطلعين إلى ما في أيدي غيرهم، كذلك الامتنان لنعمة الأرض والوطن، نعمة السلام والأمن، نعمة القدرة على النوم بلا أصوات قذائف، نعمة الاعتراف بك كمواطن، نعمة الاستقرار السياسي والاقتصادي، نعمة العمل، نعمة وجود من يدعم، نعمة العائلة، نعمة الصحة والعافية، نعمة وجود مستشفيات ومدارس، نعمة الكهرباء، نعمة المياه. هذه النعم التي حُرم منها اللاجئون لوقت طال أو قصر، فامتنوا لها بعد الحصول عليها، ويوميًّا نسمع منهم عبارات الرضا والشكر مهما بدت حياتهم متواضعة، لقد دخلوا جنة الرضا في الدنيا ويصفون للناس طريقها، بعد ما أنضجتهم التجارب، ليُعلموا غيرهم أن **الألم تدريب لتعليم الرضا والصبر، والعسر باب للقرب وآذان باليسر، والبُعد تجهيز لما بعد، والحرمان هو عطاء ووقاية لما قد يضر، وأن رزق الله يأتي كما يريد الله، لا كما يشتهي العبد.**[1]

(1) وأنقذتنا الصفحات، باسم الجنوبي، ص106.

اقتصاد اللاجئين

قبل سنوات احتدم الخلاف بين خبراء الاقتصاد حول التأثير الاقتصادي للاجئين على الدول المضيفة، جادل بعضهم أن ظاهرة اللجوء تضر الاقتصاد المحلي وتسبب خللًا في توازن المدفوعات وتزيد تضخم الأسعار وتُضعف حوافز الإنتاج، إضافة إلى أخذ فرص العمل من السكان المحليين. وقد تصدرت هذه الأفكار العناوين الرئيسية في الصحف مثل الديلي ميل البريطانية التي نشرت مقالًا في 17 أغسطس 2006 تحت عنوان: «تسبب المهاجرون القادمون من شرق أوروبا في زيادة عدد العاطلين عن العمل لأعلى نسبة منذ 6 سنوات»، لكن بعد دراسات بريطانية لاحقة تم إثبات أن هذا المنطق غير صحيح ولا واقعي ولا علمي ولا إنساني، خاصة بعد نشر دراسة أجرتها وزارة الداخلية البريطانية جاء فيها: «على الأرجح تساعد الهجرة وقدوم المهاجرين إلى بريطانيا على تحسين النمو الاقتصادي والرعاية الاجتماعية لكل من السكان المحليين والمهاجرين على السواء، وأن دخول العمال الأجانب والمهاجرين منع دخول الدولة في عنق الزجاجة وإعاقة التقدم الاقتصادي، كما أدى إلى وفرة المهارات العملية وقللت ضغوط التضخم». وتوالت بعد ذلك الأبحاث التي أثبتت وأجمعت على أن الهجرة لم تتسبب في حجب الأعمال أو في حدوث ازدحام سلبي في سوق العمل ولا في انخفاض دخل السكان المحليين.[1]

تكرر الأمر مع نشر مركز دراسات اللاجئين التابع لجامعة أكسفورد عام 2014 دراسة هي الأولى من نوعها عن الحياة الاقتصادية للاجئين في أوغندا، الذين يُقدَّرعددهم بها بأكثر من مليون لاجئ، ويتمتعون بحريات أكبر من أي مكان آخر للتنقل والعمل، مما يسمح باختبار هذه الدراسة على أرض الواقع، أظهرت نتائجها أنَّ باستطاعة اللاجئين تقديم مبادرات اقتصادية إيجابية إلى المجتمعات المضيفة إذا ما تم اعتماد السياسات الصحيحة، وقامت نتائج هذه الدراسة على أسس تدحض 5 خرافات شائعة تتعلق بالحياة الاقتصادية للاجئين، وهي: الحياة

(1) عصر الهجرة، ستيفن كاستلز ومارك ميللر، ص516.

الاقتصادية للاجئين منعزلة عن الدولة المضيفة، اللاجئون عبء على الدول المضيفة، اللاجئون متجانسون من الناحية الاقتصادية، اللاجئون أميون من الناحية التكنولوجية، يعتمد اللاجئون على المساعدات الإنسانية. [1]أثبتت الدراسة أن اللاجئين في أوغندا يقدمون مساهمات إيجابية في اقتصاد الدولة المضيفة، تتجلى هذه المساهمات في الحجم الكبير للتبادل التجاري بين اللاجئين والمواطنين الأوغنديين، أيضًا تعتمد الشركات الأوغندية بشكل رئيسي على اللاجئين كموردين وعملاء وموزعين وموظفين، كذلك يعمل اللاجئون على خلق فرص عمل للمواطنين الأوغنديين وتدريبهم.

وهكذا يمكن استثمار ثروة اللاجئين البشرية والمادية في دعم الاقتصاد المحلي، خاصة إذا كان اللاجئون لديهم رغبة وقدرة على عمل مشروعات جديدة خاصة بهم، من شأنها خلق فرص عمل للسكان المحليين قبل أقرانهم اللاجئين، وتساعد على تدفق رؤوس الأموال والاستثمارات، ما يعمل على إثراء رأس المال البشري بالاستفادة من مهارات وخبرات الماهرين من العمال، كذلك تنشيط دخل ميزانية الدولة بدفع الضرائب، كل ذلك يُسهم في ازدهار اقتصاد البلد المضيف.

في مصر، تم افتتاح آلاف المطاعم والمصانع والأسواق والشركات السورية بعد تدفق السوريين إليها، وبنظرة سريعة على العمال في هذه الكيانات سنجد أن أغلبهم مصريون، وأغلب العملاء المستفيدين بخدماتها وسلعها مصريون، والضرائب والإيجارات والأجور وثمن المواد الخام تُدفع للجهات المصرية، مما يُنشط الاقتصاد ويُشجع فرص التنافس في هذه المجالات، حتى اللاجئون الذين لا يعملون لأسباب صحية أو نفسية أو غيرها من الأسباب؛ فإن الدولة المضيفة تستفيد من دعم المنظمات الدولية بالمعونات الإنسانية والاقتصادية المقدمة إليهم، كذلك من التحويلات المالية من أهلهم وأصدقائهم في الخارج، هذه الحوالات قُدرت عام 2012 بأكثر من 400 مليار جنيه تم تحويلها من أوروبا إلى دول الشرق الأوسط

(1) اللاجئون ليسوا عبئًا، حسن غزة، مدونات.

من المهاجرين إلى ذويهم.[1] وهو ما ينعكس بشكل إيجابي على التنمية المحلية، كما يتم تسليط الضوء من مختلف وسائل الإعلام العالمية على الدول المضيفة للاجئين، التي يكون بعضها دول مهمشة إعلاميًّا لا تحظى باهتمام دولي قبل استضافتها اللاجئين، وهو ما ينعكس بالإيجاب عليها ويزيد من مكانتها في المجتمع الدولي.[2] علاوة على ذلك، فإن احتضان البلد المضيف للاجئين ودمجهم يثري المجتمع ثقافيًّا واجتماعيًّا، بسبب انفتاحه على ثقافات مغايرة وعادات وأفكار ولغات ولهجات وفنون جديدة، تفتح أفاقًا مختلفة للحياة.

علاء راضي، شاب مصري يعمل في البرازيل واكتسب الجنسية البرازيلية بعد سنوات، كتب عبر صفحته على فيسبوك أنه كان يتحدث مع أحد الموظفين المحليين هناك؛ فعرف أن أصله مصري ورحَّب به، وكان مما قاله مع تبادل الحديث: نحن كسبنا وجود المصريين أحفاد الفراعنة بإبداعهم في العمل والتجارة لدينا، كما كسبنا وجود الألمان مع تطورهم العلمي العظيم في الصناعة والميكانيكا، وكسبنا الطليان ومطاعمهم الجميلة التي أثرت المطبخ البرازيلي، وكسبنا اليابانيين أكبر تجار زراعيين في البرازيل وعملهم في تطوير أساليب الزراعة، نحن نكسب ونتطور ونتقدم بسبب تنوعنا واختلافنا، ونأخذ مزايا كل ثقافة وجنسية مختلفة تأتي لتعيش معنا.

هذا التطور والانفتاح في تبادل المنافع بين اللاجئين والدول والمجتمعات الحاضنة خاصة مع تزايد أعداد اللاجئين والمهاجرين في كل العالم، جعل النظريات السياسية تتطور وتتغير حتى في تعريف (المواطنة والمواطن)؛ فلم يعد المواطن هو من يحمل الجنسية في بعض هذه النظريات؛ حيث ظهرت المواطنة العولمية والمواطنة الكونية والمواطنة العابرة للجنسية. تشير هذه النظريات إلى نوع جديد من المواطنة يعتمد على الحقوق التي تتسع لكل البشر في كل مكان من منطلق عضويتهم التي تتجاوز حدود الانتماءات المحلية وحدود الدولة، إلى آفاق إنسانية أرحب، إنها

(1) الهجرة: كيف تؤثر في عالمنا، بول كولير، ص208.

(2) اندماج اللاجئين في المجتمعات المضيفة، سلمى علي سالم إبراهيم، موقع المركز الديمقراطي العربي.

مواطنة الحقوق والمسؤوليات والاعتراف بالإنسانية المشتركة وضرورة الإحساس والتضامن مع الآخرين من هذا المنطلق، ويمتد هذا الإحساس إلى التعبير عنه بالعمل ومد الجسور والتعاون من أجل حياة إنسانية عامة على نحو أفضل.[1] وتؤكد هذه النظريات على أن الإنسان هو الأصل، ولكل إنسان الحق في الحياة، ولأن الحياة لا تتحقق بلا أمان، ولأن الأمان لا يتحقق إلا بترسيخ الشعور بالانتماء، وجب على الضمير الإنساني تحمل مسؤولية أن يضمن العالم لكل إنسان بحكم وجوده وإنسانيته الحق في هوية وطنية تضمه وتحميه وتظلله بحماية حكومية تمثله أمام العالم، وتمده بحقه في الانتماء الذي يعد أهم الحقوق الإنسانية في المجتمع الدولي الحديث، والحرمان منه يمثل أبشع صور القمع.[2] هذه الصورة للعالم إذا تحققت فستكون نقلة من (الغابة الكونية) إلى (المجتمع الإنساني العام والشامل)، يشمل كل البشر بتنوع ثقافتهم واختلاف جنسياتهم.[3]

ربما في المستقبل نشهد تطورًا آخر لهذه النظريات بشكل عملي، في تسهيل إجراءات السفر من دول الجنوب إلى دول الشمال، بدلًا من حمل البحر لجثث محتملة بالآلاف كل عام مع هجرتهم من دول الشرق الأوسط وأفريقيا إلى أوروبا، بسبب سياسات الحدود والسفر الصارمة، في حين يستطيع الحائزون على جواز سفر أوروبي، السفر من استوكهلم حتى لشبونة وإلى إسطنبول وإلى آخر نقطة في أفريقيا بلا أن يتوقفوا على حواجز أو يحتاجوا إلى موافقات ومقابلات مسبقة من سفارات دول الوجهة.[4]

وأخيرًا، فإن دعم ومساعدة ودمج اللاجئين في المجتمعات المضيفة يقلل من فرص التحاقهم بالجماعات الإرهابية المتطرفة، التي تُشكل خطرًا على هذا المجتمعات نفسها، فإغلاق الدول أبوابها أمام اللاجئين أو تهميشهم وعدم دمجهم

(1) ملحمة المواطنة، سعيد المصري، ص52-55.
(2) انعدام الجنسية، ميرا إل.سيغلبيرغ، ص12.
(3) مواطنون في العالم: نحو نظرية للمواطنة، عدلية كورتينا، ص187.
(4) العولمة ومناهضوها، كلاوس ليجفي، ص22.

في المجتمع وتجاهل حقهم في الحياة، لا يترك أمامهم خيار آخر سوى العودة إلى أوطانهم أو العيش على الحدود، وهي في أغلب الأحيان تكون معبأة بالعنف والتطرف، وتسكن بها الجماعات الإرهابية، ما يزيد فرص انضمامهم إليها، ليس من أجل مواصلة الحياة فقط، لكن من أجل الانتقام ممن استطاعوا الدعم والمساعدة ولم يفعلوا. فالتجارب أكدت أن **الإرهابيين يُصنعون بالألم والعنف والتجاهل ولا يولدون به**، وهذه حيلة نفسية تحدث منذ بدء الخلق، تقول: عندما تكون في ورطة ولا يسأل عنك أحد، فبشكل لا إرادي تلعن الجميع، من استطاع أن يساعدك ومن لم يستطع، أو كما يقول الحكيم الترمذي: «ليس في الدنيا حمل أثقل من البر، من برك فقط أوثقك، ومن جفاك فقد أطلقك».

التجربة الألمانية في استثمار وجود اللاجئين

كل من يعيش في بلادنا يجب أن يشعر أنه هنا في وطنه.

الرئيس الألماني يوآخيم غاوك

تعد ألمانيا من كبرى الدول الأوروبية المشاركة في الدعم الإنساني للمتضررين من النزاع المسلح في العالم؛ ففي عام 2017 بلغ حجم المساعدات التي قدمتها إلى السوريين منذ بداية الصراع السوري أكثر من مليار يورو، وهو ما يجعل ألمانيا ثالث أكبر مانح في مجال المساعدات الإنسانية المرتبطة بسوريا. يأتي ذلك من تعدد برامجها في دعم المتضررين في الداخل واللاجئين في مخيمات البلاد المحيطة (تركيا والأردن ولبنان)، فقام الصندوق التابع للوزارة الاتحادية للشؤون الخارجية بتوفير مستلزمات لأكثر من 100 ألف لاجئ سوري في تركيا، هناك أيضًا مكتب تابع للوزارة على الحدود التركية السورية يعمل منذ عام 2013 يسهم في توفير احتياجات النازحين في مناطق المعارضة السورية بالتعاون مع الصليب الأحمر الألماني (DRK)، وبفضل دعم ألمانيا للاجئين السوريين داخل لبنان أمكن توفير خدمات الإسعاف والرعاية الطبية والمستلزمات الغذائية الأولية والمساعدات الشتوية لأكثر من 65 ألف شخص من السوريين، واستفادت منها كثير من شرائح اللبنانيين الذين يعانون ظروفًا صعبة، الأمر ذاته حدث فيما يتعلق بالسوريين على الحدود السورية الأردنية.

كانت ألمانيا كذلك من أكثر الدول استقبالًا للاجئين داخل أراضيها خاصة بعد سياسة الباب المفتوح التي أطلقتها ميركل عام 2015؛ حيث قررت تعليق العمل باتفاقية دبلن مؤقتًا، بما يعني قبول اللاجئين الذين خالفوا الاتفاقية وإلغاء أوامر

ترحيل الذين بصموا في دول أخرى، الأمر الذي عارضها فيه الكثير داخل ألمانيا وخارجها من دول الاتحاد الأوروبي بسبب الأزمة الاقتصادية والنعرات العنصرية ضد العرب والمهاجرين بشكل عام؛ ما جعل ألمانيا هي البوابة الكبرى للاجئين، حيث زاد عددهم في أراضيها عن 3 ملايين لاجئ، ثلث هؤلاء من أوكرانيا يليهم السوريون مع أعداد كبيرة من دول تركيا وباكستان وأفغانستان واليونان ودول البلقان.

أغلب هؤلاء، وخاصة الأوكران والسوريين، تم إعفاؤهم من الإجراءات البيروقراطية المتمثلة في تقديم المستندات المطلوبة للحصول على وضع (لاجئ) أو الوضع تحت الحماية الدولية، ويلاحظ أن ألمانيا لا تستخدم صفة (لاجئ) في معاملاتها مع اللاجئين، تجنبًا للتمييز الذي يعد جريمة يُعاقب عليها القانون، ويُشار في وثائقهم أنهم يتمتعون بـ (الحماية الدولية) بموجب المادتين 25، 26 من قانون إجراءات الإقامة، ويُكتب على وثائق سفرهم أنها مُنحت بناء على أحكام اتفاقية جنيف لعام 1959.[1]

ينتشر اللاجئون في ولايات ألمانيا الـ 16، بعض الولايات تكثر فيها أعداد اللاجئين عن غيرها بسبب وفرة وتسهيل الخدمات المقدمة لهم، وبعض القرى في هذه الولايات أصبح عدد اللاجئين فيها أكثر من عدد المواطنين الألمان، مثل قرية سيث الواقعة في ولاية شليسفيغ هولشتاين، كان سكانها 700 نسمة من الألمان، والآن أصبح عدد اللاجئين المقيمين بها أكثر من 800 شخص، وفي تصريح لوكالة الأنباء الألمانية مع عمدة هذه القرية (إرنست فيلهلم شولز) الذي ظهر فخورًا وسعيدًا للغاية بسكان قريته الجدد، قائلًا: «نفتخر بهذا التنوع حتى لو كانت النسبة بين اللاجئين والمقيمين متفاوتة ولا تتناسب عدديًّا». [2] ويمكن أن تستدل على هذا التنوع من خلال الوقوف أمام مبنى واحد للاجئين، حيث «روائح الطعام المختلفة تؤكد أن ألمانيا أصبحت مطعمًا كبيرًا يضم كل مطابخ العالم»،[3] خاصة بعد

(1) ألمانيا: حلم اللاجئ السوري، راجية الديب، موقع مركز الأهرام للدراسات.

(2) قرية ألمانية عدد اللاجئين فيها أكثر من عدد السكان الأصليين، موقع دويتشه فيله.

(3) بيت خالتي، أحمد خيري العمري، ص18.

أن قبلت أغلب طلبات اللجوء المقدمة خلال عام 2022، **ولم تفتح ألمانيا لهم الباب فقط، يبدو أنها أحضرت الضيافة الدائمة وكتبت لهم نصيبًا من البيت.**

نظرت المؤسسات الألمانية (خاصة التي تُعاني نقص الأيدي العاملة) إلى اللاجئين باعتبارهم منحة وثروة مضافة؛ لأن أكثر هؤلاء القادمين من فئة الشباب الذين سيشكلون لهم المستقبل، خاصة بعد توقع معهد برغنوس للدراسات وجود نقص في عدد الألمان يقدر بنحو 4 ملايين شخص في 2040 إذا لم تحدث معجزة، وكان قدوم اللاجئين إلى ألمانيا هذه المعجزة، أكد ذلك أولريش غريللو (رئيس اتحاد الصناعات الألمانية) في الأيام الأولى لتدفق السوريين إلى ألمانيا بقوله: «إذا تمكنا من إدخالهم سريعًا في سوق العمل الألماني، فسنساعدهم ونساعد أنفسنا».

وهو ما حدث بالفعل؛ حيث رُصدت ميزانية هائلة خاصة في ولاية بافاريا لاستقبال اللاجئين وتشييد مراكز إيواء مؤقتة لهم (7 مراكز إيواء في بافاريا، 2 في ساكسونيا، وآخر في زارلاند، وآخر في كيمنتس وآخر في لايبزيغ)، وتسكينهم لاحقًا في مساكن آدمية (بعض الولايات تقدم فيلات سكانية كاملة المرافق للأسر)، ودعمهم صحيًّا وإعادة تأهيلهم نفسيًّا وعمليًّا، وتعليمهم اللغة الألمانية وتدريبهم على ثقافة الاندماج في المجتمع، ثم إلحاقهم بالمؤسسات التعليمية والجامعات مجانًا، ثم تدريبهم على التعامل مع سوق العمل. خُصصت لذلك مؤسسات ألمانية لرعايتهم بشكل كامل، تنفق عليها الحكومة ويدعمها البوندستاغ (مجلس النواب الألماني) مثل الجوب سنتر، مع عشرات المؤسسات الخيرية والاجتماعية التي خصصت كل عملها لدعمهم، مع تمتع اللاجئين بالحماية القانونية ضد أي أحداث عنصرية حتى لو كان الفاعل ألماني، بالإضافة إلى تسهيل منح الإقامات والجنسية لمن يثبت صلاحيته في العمل والاندماج في المجتمع.

ومع ذلك، فإن رفاهية اللاجئ في ألمانيا لا تحدث بالسهولة المتخيلة؛ فعمليات الحصول على الإقامة والعمل والسكن والمعاش ودخول المؤسسات التعليمية والشمول في التأمين، كل ذلك يحتاج إلى الكثير من الجهد في تعلم اللغة الألمانية

وكثير من الوقت لكسب اللاجئ ثقة الجهات الألمانية، والخضوع إلى اختبارات طويلة ودقيقة للغاية من أول اختبارات قيادة السيارة حتى اختبارات جودة العمل والحرفة ومعادلات الشهادات الدراسية، مرورًا بالالتزام بالوقت وحسن السير والسلوك، وهو الأمر الذي يجب التأكيد عليه، أنه **ليس شرطًا ولا كافيًا وجود اللاجئ في ألمانيا لتبدأ سماؤها تمطر عليه دعمًا**. كذلك لا تستقبل ألمانيا من تراه قد يشكل خطرًا على أمنها؛ فقد نشرت صحيفة دي فيلت(Die Welt)، تقريرًا عن منع 307 مهاجرين متطرفين على الحدود الألمانية عام 2016، وأكد التقرير أن في العام نفسه تم رفض طلب 20 ألف مهاجر لا يشكلون أمنًا على الدولة، كذلك ترصد الحكومة الألمانية منحة عودة للراغبين من اللاجئين في الرجوع إلى بلادهم وصلت إلى 3 آلاف يورو عام 2022.

العناية الألمانية البالغة بالمستضعفين من الأطفال والنساء والمرضى من اللاجئين لافتة للنظر؛ حيث تقدم السلطات الألمانية رواتب شهرية للاجئين تتراوح ما بين 200 إلى 500 يورو للفرد عبر الجوب سنتر، حتى المولود الجديد يكون لديه راتب ودعم منذ بداية الحمل يصل إلى الأم عبر بعض المؤسسات المعنية، وعن دعم اللاجئات الأميات اللاتي تبلغ نسبتهن 10 ٪ من النساء اللاجئات ويجدن صعوبة بالغة في التعامل والاندماج في المجتمعات المضيفة، نجد الدولة توفر لهن دورات مجانية لمحو الأمية وتعلم مهن جديدة ودورات في التعامل مع المجتمع الجديد، بالإضافة إلى تنظيم دورات في التربية والأمومة في حال لديهن أطفال، وتدريبهن على كيفية عمل أنظمة رعاية صحية وأين وكيف تطلب المساعدة في حال العنف العائلي والتعريف بأنظمة المواصلات وكيفية فتح حساب بنكي وكيف يتحركن وحدهن بحرية وبشكل آمن، كما تم إطلاق عشرات المواقع عبر الإنترنت بلغات مختلفة (العربية والألمانية والإنجليزية والفارسية) لتساعد اللاجئات في التعافي النفسي وتطوير ذواتهن، وهذه المواقع بإشراف وتعاون عدة معاهد صحية وكليات طب في جامعات ألمانية منها الجامعة الكاثوليكية بمدينة إنغولشتات.

الرائع في ألمانيا بالنسبة للاجئين أن الترحيب بهم عبر الاستقبال والدعم والتسكين والتشغيل والحماية والرعاية، يأتي من خلال حاضنة رسمية واجتماعية، بها شخصيات ثقيلة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، نذكر منهم مع المستشارة الألمانية السابقة أنجيلا ميركل، والمستشار الألماني الحالي أولاف شولتس:

- **أندرياس هولشتين،** عمدة مدينة ألتينا الذي تعرض للطعن بسكين من عنصريين في 2017 بسبب دعمه الكبير للاجئين، وتم تكريمه بمنحه (جائزة نانسن للاجئين) التي تُمنح بشكل دوري كل عام من قبل الأمم المتحدة.
- **الكاردينال راينهارد ماركس،** رئيس مؤتمر الأساقفة الألماني وأسقف مدينة ميونيخ، الذي دعا الاتحاد الأوروبي إلى انتهاج سياسية إنسانية مع اللاجئين، واستنكر أن تكون الحدود الأوروبية حدودًا للموت لا الحياة، ودعا الإبرشيات إلى استقبال أكبر عدد من الأسر اللاجئة والعناية بهم.
- **الكاتبة الألمانية جيني إيربينبيك،** مواليد عام 1967، تعلمت القانون على كبر عمرها لتساعد اللاجئين وتكتب عنهم، كتبت رواية (ذهب.. يذهب.. ذهابًا) أو (وطن محمول: عنوان النسخة العربية) التي رُشحت للجائزة الألمانية لأفضل كتاب، وبلغت ترجمتها الإنجليزية القائمة الطويلة لجائزة البوكر الدولية عام 2018، ونقلها إلى العربية المُترجم والأديب صلاح هلال، الذي اختار اسم (وطن محمول) لها، استلهمه من درس في اللغة العربية حضره بطل الرواية بصحبة أحد اللاجئين، وقد صرح المترجم لي بأن تغيير العنوان كان محاولة للتعبير عن أزمة لاجئين لم يبقَ لهم ما يربطهم بأوطانهم سوى الهاتف المحمول، وأصبح يمثل قناة التواصل الوحيدة مع أسرهم وأصدقائهم، بل ووسيلة ترابطهم مع بعضهم في الغربة.
- **الكاتب والباحث الألماني نافيد كرماني،** عضو الأكاديمية الألمانية للغة والشعر، الذي كتب عن اللاجئين كتابه (بزوغ الحقيقة)، وثَّق فيه معاناتهم وردود فعل الحكومات والشعوب تجاههم، بداية من القطارات التي كانت تقلهم مجانًا،

والاهتمام الإعلامي بهم والتوجيه للمواطنين بالنصائح التي يجب عليهم اتباعها عند التعامل مع اللاجئين، وصولًا إلى المشاهد ذات التفاصيل الإنسانية لأفراد الشعب الألماني الذين يجثون على ركبهم بجوار اللاجئين وهم يقدمون لهم الشاي والطعام والغطاء.

وغير هؤلاء الشخصيات الكثير، ما جعل الترحيب باللاجئين ليس موقفًا لأفراد، بل هو اتجاه المجتمع والدولة، وإلا فقد رأينا بطولات فردية في دولة مثل الأرجنتين؛ حيث قرر السباح والمنقذ الأرجنتيني **نيكولاس منغوز مونتان**، تكريس حياته لإنقاذ المهاجرين المعرضين للغرق على سواحل اليونان، وبالفعل أنقذ ما يزيد عن 300 شخص ولُقب بـ (ملاك البحر).

كذلك رأينا في كندا رجل الأعمال **جيم إيستيل** الذي قرر بعد رؤيته مشاهد الحرب والدمار في سوريا عبر وسائل الإعلام، أن يساعد اللاجئين منهم، فأنفق أكثر من 1.5 مليون دولار كندي من ماله الخاص لإحضار اللاجئين السوريين العالقين إلى مدينة غيلف بمقاطعة أونتاريو، واستضاف بعض اللاجئين بمنزله الخاص، كما حشد800 متطوع من المدينة من الكنيسة والمجتمع الإسلامي المحلي للمشاركة في المساعدة والدعم، ووفر جيم لكل عائلة سورية مدرسين لتعليم اللغة الإنجليزية حتى يتمكنوا من إلحاق أبنائهم بالمدارس والبحث عن عمل وفتح حسابات بنكية لإدارة حياتهم الجديدة، كما منح وظائف بدوام كامل لـ 28 لاجئًا في شركته (دانبي الكندية للأجهزة المنزلية) وتحمل وحده كفالة 89 أسرة سورية، يزيد مجموع أفرادها على 300 شخص، ومع ذلك تبقى هذه البطولات فردية إذا لم يصاحبها ثقافة مجتمعية وإرادة سياسية كما هو الحاصل في ألمانيا.

اللاجئون في مصر

لكل عربي وطنان، وطن ينتمي إليه ومصر.

المستشرق الفرنسي رينان

على مدار آلاف السنوات تشكلّت الثقافة المصرية، التي يتباهى العرب بوجودها ضمن مسيرتهم التاريخية، لقيامها على التعددية بكل اتجاهاتها وأنواعها ومداخلها، يقول عنها الشاعر والكاتب فاروق جويدة: «الثقافة في مصر ليست تاجها فقط، لكنها أهم وأرفع مسيرة حضارية لها، وأنها حين تغيب أو تتراجع أو يسعى البعض إلى تهميشها فإن مصر تخسر أهم أدوارها التاريخية».[1] هذه التعددية التي تشتمل على حسن إدارة التنوع الاجتماعي والترحيب بالمختلف، يمكن الاستدلال عليها عبر المبادئ والدساتير القانونية الأولى التي وضعها قدماء المصريين في تنظيم شؤون الدولة، وفي عهد سابق عندما كان الحج على الأقدام وفوق ظهور الدواب، كان حجاج المغرب العربي يتوقفون في القاهرة، يزورون مسجد الإمام الحسين، وكان بعضهم يكتفي من الرحلة بهذا القدر فلا يكمل الرحلة إلى الحجاز، أو يكملها ثم يعود إلى مصر ويبقى بها، وهؤلاء الذين سكنوها صاروا فيما بعد أولياءها، وصارت مدافنهم مزارات، فتنتهم مصر وبدورهم فتنوها، فهم القادمون من البعيد.[2] وكانت وما زالت مصر حاضنة لعدد من أبناء الجنسيات المختلفة بمن فيهم طالبو اللجوء؛ فرحبت مصر بقدوم الأرمن إليها بعد هروبهم من مذابح

(1) تقرير آفاق مستقبلية 2022، ص245.

(2) غرفة المسافرين، عزت القمحاوي، ص25.

العثمانيين عام 1915، ولجوء الفلسطينيين بعد 1948، ولجوء أبناء السودان إليها منذ أول حروبها الأهلية 1955.

مصر.. التي قال عنها الإمام سعيد بن أبي هلال: «**مصر أم البلاد وغوث العباد**».[1] وُلد فيها آلاف العلماء والمؤلفين الذين علَّموا الدنيا دينها وفنون الحياة بها مثل: المارديني، الدميري، ابن يونس الفلكي، الإمام الليث بن سعد (صاحب مذهب فقهي)، ابن حجر العسقلاني (صاحب كتاب فتح الباري، أشهر شرح لصحيح البخاري)، عثمان بن سعيد (ورش المصري)، عبد الملك بن هشام (صاحب سيرة ابن هشام)، الإمام ابن خلكان (صاحب وفيات الأعيان)، الحافظ الأصفهاني، عبد الله بن وهب، عبد الله بن لهيعة، عثمان بن الحكم الجذامي، ابن حجر الهيتمي، ابن عطاء الله السكندري، الإمام العز بن عبد السلام (سلطان العلماء ومعلم سيف الدين قطز)، الإمام الطحاوي، تقي الدين السبكي، بدر الدين الزركشي، جلال الدين السيوطي، جلال الدين المحلي، شمس الدين السخاوي، شهاب الدين البوصيري، ابن دقيق العيد.. وغيرهم، جاء طلاب العلم من كل الأرض إليهم بمصر لينهلوا من علومهم.

كذلك زارها كبار العلماء في العالم متعلمين ومعلمين مثل أفلاطون، طاليس، هيرودوت، أرسطو، فيثاغورث، الحسن بن الهيثم، الإمام الشافعي.. وغيرهم من العلماء والطوائف من شعوب العالم الذين وجدوا فيها اللجوء والوطن الحاضن، عاشوا وعملوا وأبدعوا وتزوجوا وأنجبوا وماتوا بها، لذلك قال عنها الإمام محمد عبده: «أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الأرض، وهو ممر أهل المشرق إلى المغرب، وممر أهل المغرب إلى المشرق، وهو في حلق أوروبا، تتلاقى فيه سيارة الأمم، فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الأمم مثل مصر».[2]

(1) فضائل مصر المحروسة، ابن الكندي، ص28.

(2) الأعمال الكاملة: الإمام محمد عبده، مجلد الإصلاح الفكري والتربوي، ص112.

شهدت بذلك سجلات مركز الدراسات الشرقية المسيحية بالموسكي بالقاهرة، من بينها 14 سجلًّا قديمًا يعود لبداية القرن الـ 17 لتوثيق وفيات شخصيات عربية غير مصرية وغير عربية، كل سجل منها أكثر من 400 صفحة، و7 سجلات زواج من الحجم الكبير، ودفتر عائلات عدد صفحاته 125 صفحة، غير السجلات المهولة في مطرانية الأرمن الكاثوليك، وسجلات بطريركية الأرمن بالإسكندرية وسجلات البطرخانة المارونية بالقاهرة، وسجلات دمياط وسجلات طنطا والزقازيق، وسجلات درب الجنينة وسجلات جمعية المساعي الخيرية المارونية بالقاهرة وغيرها.[1]

يشهد كذلك رواق الشوام بالأزهر الشريف، الذي تأسس بعد الحرب العالمية الأولى ليضم العلماء والطلاب من كل الشام (سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن)، ثم تشعب هذا الرواق ليضم 40 رواقًا وحارة في العصر العثماني، تخرَّج منه مئات العلماء العرب مثل: الإمام عبد القادر الرافعي (مفتي الديار المصرية الأسبق)، الشيخ محمد أمين الحسيني (رئيس الهيئة العربية لفلسطين)، الشيخ عبد الحميد السايح (رئيس محكمة الاستئناف الشرعية بالقدس)، الشيخ مصطفى السباعي (عميد كلية الشريعة بدمشق)، وغير هؤلاء آلاف من الذين رحلوا إلى مصر وعاشوا فيها ونبغوا وعرفهم الناس من منابرها، حتى إن أجيالًا في مصر والوطن العربي وخارجه تظن أن هؤلاء من أبناء مصر وليسوا مهاجرين.

من هؤلاء العلماء والمفكرين والأدباء: عبد الرحمن بن خلدون، عبد الرحمن الكواكبي، جمال الدين الأفغاني، محمد رشيد رضا، محمد كرد علي، حسين الجسر، خير الدين الزركلي، نديم الملاح، نقولا بركات، مي زيادة، خليل السكاكيني، أمين معلوف، إيليا أبو ماضي، إبراهيم اليازجي، أمين حداد، فؤاد حداد، فاطمة اليوسف (مؤسسة صحيفة روز اليوسف المصرية)، سليم وبشارة تقلا (مؤسسي صحيفة الأهرام المصرية)، جورجي زيدان (مؤسس مجلة الهلال)، يعقوب صروف

(1) وأنقذتنا الصفحات، باسم الجنوبي، ص264.

(مؤسس مجلة المقتطف)، نجيب وشفيق متري (مؤسسي دار المعارف). ومن أهل الفن جورج أبيض، فريد الأطرش، أسمهان، عزيز عيد، عبد السلام النابلسي، يوسف معلوف، ماري منيب، لور دكاش، عايدة هلال، آسيا داغر، بديعة مصابني، علوية جميل، سعاد محمد، نور الهدى.. وغيرهم في قوائم مطولة لأهل الفن والتجارة والسياسة وأصحاب القلم.[1]

كذلك قصدها للعيش والإقامة كثير من غير العرب مثل الإيطاليين واليونانيين الباحثين عن فرص عمل طوال القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، وقد ارتبط هؤلاء المغتربون بأعمالهم بمصر، بعضهم كان ينجز مهمته ويعود، وبعضهم تحول سفره إلى إقامة احتضنتها مصر بكل تسامح، ودعمت مصر المؤلفين والمفكرين والشعراء منهم، مثل كفافيس وأونغاريتي ومارينيتي وغيرهم.[2] كتبوا ونشروا كتبهم ورُفع ذكرهم وعاشوا وماتوا بأرض الكنانة، وثَّق الشاعر الكبير إبراهيم ناجي (1898 -1953م) هذه السياسة المصرية في قوله:

نفدي النزيل ونكرمن
إن لم نكرمه فمن
يا ضيف مصر أقم مقام
الأهل وأنزل في وطن
إنا اشتركنا في الأماني
والتقينا في المحن
فمن الشآم إلى العراق
إلى الحجاز إلى اليمن
يا أيها الضيف العزيز
نعمت بالعيش الحسن

(1) هجرة الشوام، مسعود ضاهر، ص152.

(2) العار من الضفتين، عزت القمحاوي، ص19.

يـــا مـــؤنـــس المـــــصري في
حـلـب ومـــا نـنـسـى المـنـن
صـــدر الـــشـــآم حـنـا عَـلـيـك
ومـــصر لـــو تـــدري أحـــنّ.

وبعد 2011 وما تبع ثورات الربيع العربي من آثار وتحول بعضها إلى صراع مسلح، انتقل عدد كبير من اللاجئين إلى مصر خاصة من سوريا واليمن وليبيا والسودان، قدرت المنظمة الدولية للهجرة عام 2022 عددهم في مصر بـ 9 ملايين شخص من 133 دولة (9 ملايين نسمة تعادل سكان دولة النمسا)، ووصف مندوب المنظمة الدولية سلوك مصر معهم بـ (السخاء). يتصدر أعداد اللاجئين في مصر السودانيون بـ 4 ملايين شخص (قابلة للزيادة مع استمرار الحرب في السودان)، والسوريون بـ 1.5 مليون، واليمنيون والليبيون بمليون شخص، وأعداد بالآلاف من الصومال وإريتريا وإثيوبيا، وعدد من البلاد الأفريقية، لكن مع هذه الأعداد المُعلنة إلا أن المراقبين يدركون ألا أعداد مؤكدة، نظرًا لدمج المهاجرين (التجار والطلاب والمرضى والسائحين) مع اللاجئين في أغلب الإحصائيات، كذلك بسبب دخول الآلاف بشكل غير نظامي خاصة عبر الحدود الجنوبية، ولم يتم إدراجهم في كشوفات اللاجئين في البلاد. ومع ذلك يتم التعامل معهم بشكل إنساني من المجتمع بشكل عام إلا من حالات فردية تحدث هنا وهناك ومن وقت إلى آخر، ويمكن رؤية ذلك الاستقبال والاندماج بوضوح في الشارع المصري خاصة في القاهرة التي يسير فيها المهاجرون واللاجئون بكثرة مع تعدد ألوانهم ولهجاتهم وزيهم ويتفاعلون مع الحياة بلا مضايقات تُذكر.

الجميل في مصر، أن لفظ (لاجئ) غير دارج في الشارع المصري، ويتم استخدام ألقاب مثل (ضيوفنا، إخوتنا). حتى في حديث رئيس الدولة عنهم في اللقاءات المحلية والدولية، غالبًا ما يستخدم لفظ (ضيوفنا). أذكر أنه مع كل موجة مهاجرين جديدة للسوريين أو السودانيين أو اليمنيين إلى مصر كان يكثر السؤال والطلب من

الأصدقاء بمصر بـ (هل هناك ضيوف سوريون أو سودانيون تعرفهم يحتاجون إلى سكن؟)، وإذا كانت إجابتنا بنعم، فكان هؤلاء الأصدقاء من الملاك وعدد من أصحاب مكاتب التسويق العقاري يوفرون السكن إما بشكل مجاني تمامًا لليتامى منهم، أو مخفض جدًّا تضامنًا معهم.

الجميل كذلك أن مصر فيها تنوع حاصل منذ الأزل ما بين الألوان والثقافات والعادات التي تتشابه مع خلفيات مجتمعات اللاجئين الذين جاؤوا إليها، كما يقول المثل الشعبي الذي كُتب على إحدى بوابات مصر العتيقة «**يا داخل مصر منك ألوف**». ومن المعروف أن تشابه الخلفيات الثقافية والتاريخية والدينية واللغوية للاجئين مع السكان الأصليين تزيد فرص دمجهم في المجتمع بشكل أسهل وفي مدة زمنية أقصر من اللاجئين الذين لا يجمع بينهم وبين السكان المحليين وحدة في الثقافة أو التاريخ أو الديانة أو اللغة؛ لذلك في وقت قصير جدًّا ظهرت الجاليات العربية المهاجرة في المجتمع المصري بثقلهم في كل الأعمال والأشغال.

لما سبق، انتشرت المطاعم والمصانع والشركات السورية في وقت قياسي، وبالطبع بسبب حفاوة استقبال المجتمع لهم وتشجيعهم لعملهم، لدرجة أن كثيرًا من الأصدقاء المصريين كانوا في بداية قدوم السوريين إلى مصر، إذا تم تخييرهم بأن يشتروا من مطعم مصري أو مطعم سوري، يختارون السوري لدعم أبناء سوريا في محنتهم. وتجدر الإشارة إلى أن أغلب القادمين السوريين الأوائل إلى مصر بعد الحرب كانوا من أبناء الطبقتين المتوسطة والعليا، وهم من تمكنوا من افتتاح مشروعات خاصة بهم، وتوفير مصدر دخل لأنفسهم بدلًا من الاعتماد على معونات المنظمات الدولية والجمعيات الأهلية، وهو ما ساعدهم على الاستقرار وبدء حياة جديدة، كان من بين هؤلاء رجال أعمال وأصحاب رؤوس أموال نسبتهم لا تتعدى 1 ٪ من السوريين المهاجرين.

مع زيادة الهجرة إلى مصر، اتجهت الحكومة المصرية إلى إتاحة التعليم الأساسي بالمدارس الحكومية والعلاج بمستشفيات الدولة للاجئين، بحيث يتم معاملتهم معاملة المصريين بلا فرق، ودعمت المفوضية الدولية لشؤون اللاجئين وزارة التربية والتعليم في هذا القرار من خلال تدريب المدرسين المصريين والمساعدات التنفيذية عبر تجديد المدارس وتشييد الفصول الجديدة، وتوفير المعدات والأثاث، وتدريب 670 معلمًا ومرشدًا اجتماعيًّا، وإنشاء المختبرات الحاسوبية في 30 مدرسة حكومية، بلغ إنفاق المفوضية في هذا الدعم عام 2017 إلى مليون و800 ألف كتاب مدرسي للطلاب، كذلك سمحت مصر بإنشاء المراكز التعليمية الخاصة للجاليات الأجنبية التي تكون بديلة للمدارس التعليمية العامة، وانتشرت هذه المراكز بشكل ملحوظ بعد 2015، خاصة المراكز التعليمية السورية والسودانية.[1]

ويُلاحظ أن قرار إتاحة التعليم بالمجان أو المخفض للاجئين في مصر يقتصر على التعليم الأساسي إلى الثانوي فقط، وإلا فاللاجئون العرب يدفعون المصاريف الدراسية بالجامعات الحكومية المصرية بالدولار أو بما يعادل قيمته بالعملة المحلية، ما يجعل المصاريف الدراسية للطالب اللاجئ (الوافد) تعادل 80 ضعف مصاريف الطالب المصري في بعض الأحيان، ومع قرارات الحكومة بشأن التعليم قبل الجامعي للعام الدراسي 2023-2024، أصبح الطالب اللاجئ (الوافد) مُطالب بدفع مبالغ تصل تتعدى 10 أضعاف ما يدفع الطالب المصري للتسجيل بالمدارس الحكومية.

يُفسر ذلك أنه مع تصديق مصر على عدد من الاتفاقيات المتعلقة بحقوق اللاجئين كاتفاقية 1951 والبروتوكول الخاص بها 1967، وبالرغم من عضوية مصر في منظمة الاتحاد الأفريقي وجامعة الدول العربية، ما يجعل بينها وبين الأفارقة والسوريين روابط وثيقة، خاصة مع توقيعها وتصديقها على الاتفاقية المتعلقة بمشكلات اللاجئين في أفريقيا، ما ألزم مصر بفتح أبوابها أمام اللاجئين منهم

(1) قضية اللجوء والنزوح في أفريقيا والدور المصري، أميرة محمد عبد الحليم، ص 25.

ومنحهم الحماية والحقوق المنصوص عليها في هذه الاتفاقيات؛ إلا أن الحكومة المصرية وضعت بعض القيود والاشتراطات لتوقيعها على هذه الاتفاقيات، وهي قيود منحت مصر الحق في اعتبار اللاجئين بشكل عام (أجانب، وافدين)، ويتم استثناؤهم من بعض الحقوق التي يتم منحها المواطنين المحليين.

قد أثرت تلك القيود على كثير من جوانب حياة اللاجئين مثل: التعليم الأساسي والعام والجامعي والتأمين الصحي وإخضاع مسألة عملهم إلى القانون المصري المحلي المنظم لعمل الأجانب في مصر رقم (137/ 1981) الذي يجعل حصولهم على تصاريح مزاولة العمل بشكل رسمي في غاية الصعوبة، بسبب الإجراءات البيروقراطية المعقدة والتكلفة الباهظة لها، ما أدى إلى عدم حماس عدد كبير من أصحاب الأعمال المصريين لتوظيف اللاجئين بسب هذه الصعوبات لا لشيء آخر.[1] ورغم ذلك فالاحتضان المجتمعي العام يهوِّن كل ذلك؛ ففي مصر لا أحد يموت جوعًا ولا أحد يريد عملًا ولا يعمل.

من القاهرة: هنا دمشق

مع العدوان الثلاثي على مصر، تحديدًا يوم 2 نوفمبر 1956، تم قصف أجهزة الإذاعة المصرية التي كانت تنقل إلى العالم يوميات الحرب على المحروسة، وذلك قُبيل خطاب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بساعاتٍ قليلة؛ حيث شنّ العدوان قذائفه على أجهزة الإرسال الخاصة بالإذاعة، لتتوقف عن البث في الحال، وتنقطع الأخبار وآخر مستجدات العدوان إلى الجمهور في مصر وخارجها، وفي دقائق قرر المُذيع السوري عبد الهادي بكار في دمشق، خلال نشرة الثانية ظهرًا بالإذاعة السورية هناك، أن يتضامن مع الدولة المصرية، وأنّ يُغير في النشرة والبث، ليبدأ بقوله: «**من دمشق.. هنا القاهرة**». ثم قام بربط البث السوري بالبث المصري لنقل صوت القاهرة من دمشق ثم إلى العالم.

(1) اندماج اللاجئين في المجتمعات المضيفة، سلمى علي سالم إبراهيم، موقع المركز الديمقراطي العربي.

حاليًّا، وبعد الشدة السورية، يبدو أن المصريين يقومون بربط الود وبث العيش والملح بينهم وبين السوريين، يمكن مشاهدة ذلك برؤية السوريين في الشارع المصري في كل المحافظات تقريبًا، وسماع لهجاتهم السورية المختلفة من شامية وحلبية وحمصية وحورانية وحواضرية ويبرودية وجبلية ورقاوية وحسكية، ورؤية آلاف من أسماء المطاعم والشركات التي تحمل اسم الشام وسوريا ودمشق وحلب، بل إن هناك كثير من الشوارع المصرية التاريخية سُميت بأسماء سورية أو تم إطلاق أسماء علماء وأعلام سوريين عليها؛ ففي العاصمة القاهرة وفي أهم مناطقها ستجد شارع سوريا (منطقة المهندسين بالجيزة)، وفي الإسكندرية شارع سوريا (في منطقة رشدي)، شارع دمشق (مصر الجديدة)، شارع حلب (مصر الجديدة)، شارع عبد الرحمن الكواكبي (حدائق القبة بالقاهرة)، ميدان عبد الرحمن الكواكبي (في منطقة العجوزة بالقاهرة)، شارع فريد الأطرش (عين شمس)، شارع نزار قباني (مدينة الرحاب)، شارع شكري القوتلي (المحلة الكبرى).

وضع اللاجئين بشكل عام في مصر يتميز بالكثير، إلا أن وضع السوريين يتميز بخصوصية ملحوظة، فرغم الحالة الاقتصادية الخانقة بعد تعويم الجنيه المصري، ما زالت البلد تفتح أبوابها لهم كما كانت دائمًا؛ لتسجل مصر وجود ما يزيد عن مليون ونصف مليون سوري مندمجين بالمجتمع ولا وجود لمخيم لاجئين واحد على أرضها، وظروف حياة السوريين بمصر من حيث العمل والكسب والسكن والحركة تبدو كحياة المصريين، بنفس السماء والأرض وظروف ما بينهما، ويتعاون المجتمع المصري من جمعيات وفرق وأفراد في مساعدة إخوتهم السوريين وغيرهم من اللاجئين، مع وجود منظمات الدعم الدولية والعربية، بعضها مختص بدعمهم وبعضها فتح ملفات جديدة لهم في برامج عمله المتنوعة.

يعمل السوريون في مصر في كل أنواع ومجالات العمل والحرف والمهن، خاصة في مجال المطاعم والمأكولات، فمنذ وصولهم بدأت المطاعم ومحال الحلويات والعطارة السورية تنتشر في كل شوارع مصر بكل محافظاتها، كذلك ينشط السوريون في

صناعة وتجارة الأقمشة خاصة القطنية والحريمي، ومع كثرة السوريات في مصر أصبح اللباس الحريمي السوري موضة منتشرة حتى للمصريات. كذلك شاع عمل السوريين بالعطور والأثاث، وأصبح هناك سلاسل عدة لشركات سورية تعمل بها، كذلك يعمل الكثير منهم كسائقين في شركات تأجير السيارات التي تستخدم التطبيقات الإلكترونية (أوبر، كريم)، حتى السيدات اللاتي وصلن إلى مصر بلا زوج أو عائل، قمن بالعمل حتى من البيت، كثير منهن شاركن في (مشروع المطبخ البيتي)، وأشرف كاتب هذه السطورعلى هذا المشروع خاصة في السنوات الأولى لقدوم السوريين؛ فكانت تأتي السيدات السوريات إلى المكتب وبدلًا من طلب الدعم المباشر، كان الطلب بالمساعدة في إيجاد فرصة عمل؛ فاقترحنا فكرة أن يطبخن طعام من بيوتهن ونحن نتولى التسويق للمنتجات والطعام، ونجح المشروع ليصبح في كل مدينة ومنطقة وشارع مصري مطبخ بيتي سوري أو أكثر.

بعض هذه المطابخ توسعت بعد فترة ليصبح كامل البيت عبارة عن مطبخ، بسبب كثرة الطلب من المصريين الذين كانوا يشترون بنية الدعم والمساعدة مع الرغبة في تجريب مذاق مختلف للطعام، ثم بعد ذلك استمروا في الشراء بسبب الجودة والعناية بالمقادير والنظافة وحسن التقديم والتعامل، لذلك توسع المشروع واستمر وانضمت إليه مئات الطاهيات من أكثر من جالية، الجميل أن أغلب الطاهيات السوريات بعد التوسع قمن بتشغيل عدد من السيدات المصريات الباحثات عن عمل معهن، ومع الوقت تحولت بعض هذه المطابخ البيتية إلى مطاعم كبيرة ومشهورة، يعمل بها شباب مصري جنبًا إلى جنب مع شباب من جاليات مختلفة.

حتى من لا يعمل من اللاجئين بشكل عام لأسباب صحية أو نفسية أو لا تكفيهم رواتبهم لمواصلة الحياة، في مصر مئات المؤسسات والجمعيات والفرق التي تعمل لدعمهم مثل: المفوضية الدولية لشؤون اللاجئين، هيئة إنقاذ الطفولة، يونسيف مصر، هيئة كير الدولية، مؤسسة بلان الدولية، المؤسسة المصرية لدعم اللاجئين، هيئة تيردي زوم، مؤسسة كاريتاس، مركز بستيك، مؤسسة سوريا الغد،

مبادرة سوريا الأهل، مؤسسة مصر الملجأ، مدرسة الأمل الأفريقي، جمعية أبناء الفور، جمعية التنمية المصرية الصومالية، اللجنة الإثيوبية للاجئين، جمعية المجتمع الإريتري، جمعية مصطفى محمود، مؤسسة صُناع الحياة، مؤسسة سفراء، الجمعية الشرعية، جمعية رسالة، جمعية مرسال.

إجمالًا، وضع اللاجئين في مصر أفضل بكثير من غيرها، ومع ذلك ما زال يُنظر إلى مصر على أنها الوطن الحاضن للعرب، ويتم مطالبتها بعمل تسهيلات أكثر للاجئين خاصة العرب منهم؛ فمع كل المشكلات والطفرات السياسة والاقتصادية التي شهدتها مصر منذ 2011 إلى اليوم، **أرى أن مصر يمكنها أن توازن بين اهتماماتها وظروفها الداخلية وواجباتها العربية، بحكم الدور الكبير الذي تلعبه مصر في المنطقة، وبحكم قدرها ومقدارها وقدرتها على تخطي العقبات، التي وإن طال أمدها لا تنال من قوتها.**

مشاهدات في ملف دعم اللاجئين

ليس صحيحًا أن النار تدمر كل شيء، تبقى دائمًا بارقة أمل.
لا تنس أن تمنحه لحبيبتك، للشوارع، للمرايا، لمفاتيح الكهرباء،
للشروخ في الجدران، الأمل رشوة يقبلها الجميع.

وحيد الطويلة

الوطن، هو المكان الذي رأى الإنسان فيه النور لأول مرة بحياته، الموقع الذي يحن إليه إذا غادره، البقعة من الأرض التي يريد أن يموت فيها، تلك الجغرافيا العجيبة التي تحدد المنطلق والمرحلة الأخيرة والتعلق بها فيما بينهما؛ لأنها البلد الأم، لذلك يُقال اللغة الأم، أول أبجدية تعلمها الفرد ونطق بها أول كلماته، والثقافة الأم التي علمته ما يجب فعله وما لا يجب، وكأن الإنسان يولد مرتين، مرة بالمعنى البيولوجي، فله أب وأم ينتسب إليهما، ويولد مرة ثانية بالمعنى الرمزي الذي يجعل أرضه أُمًّا أخرى له، من هنا كانت ضيافة من فقد أرضه (المنقطع السبيل) لها نفس مكانة ضيافة من فقد أمه، من هنا أيضًا كان غوث وإكرام ومساعدة **ودعم اللاجئين هو مقياس الإنسانية ورقي وتدين المجتمعات**. ومع تعدد التجارب الإنسانية في دعم اللاجئين عبر قرون وعقود من الزمن، ظهرت عدة مشكلات مع هذا الدعم، وإلى اليوم ما زالت تحتاج إلى وقفات لحلها، لتكون الضيافة على قدر واحتياج الضيف.

من أكبر هذه المشكلات التي تحدث في ملفات دعم اللاجئين وينتج عنها كوارث إنسانية، الاكتفاء بتقديم الغذاء والكساء مع القدرة على تقديم المزيد؛ فاللاجئ إنسان، والإنسان لا يعيش بالخبز فقط، بل يعيش بحاجات الجسد والنفس والروح، يعيش مع الواقع وبالوعي به، مع ذاته ومع غيره، مع ماضيه وحاضره

وآفاق مستقبله، فهو مُرسل ومُستقبل ومُعط وآخذ، يدرك بالحس ويتصور بالخيال، إنه الكيان الإنساني المتكامل، لا الإنسان الجزئي الذي تقتصر تنميته بالغذاء فقط، ولا يقتصر تعليمه على الاهتمام ببعض قدراته، والتنمية الحقيقية تشمل كل الإنسان وكل إنسان، وتحقيق تنميته بمختلف مقوماتها وخصائصها هو خط البداية في تصور مطالب الإنجاز الإنمائي.[1] ما يعني أن التنمية تحدث بتوفير الاحتياجات البيولوجية والعقلية والنفسية والاجتماعية والثقافية والروحية للفرد واعتبارهم كلًّا واحدًا، لا يخضع معها الإنسان للثنائيات والتجزئة والتفاضل والاختيار.

ومن جمال هذه الرؤية أنها تقضي على الفقر وأبعاده عبر التمكين المُستدام للأفراد لا التسكين المؤقت للحاجات؛ فالفقر قد لا يعني عدم وجود موارد، لكنه يعني عدم وجود المعرفة والقدرة على الاستفادة منها واستثمارها، وهو ما أشارت إليه آمارتيا صن في قولها: «المجاعات يمكن أن تحدث مع أن الصوامع مليئة بالقمح».

مع إشارة تقرير التنمية البشرية العربي 1990، إلى أن احتياجات الإنسان بلا حدود من حيث المبدأ، لكن سقوفها مرتبطة بالمحددات المجتمعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وبما يُتاح لتحقيقها من سلع وخدمات ومعرفة، إلا أن التقرير يؤكد أن للتنمية البشرية جانبين:

الجانب الأول: يتمثل في تشكيل القدرات البشرية وتنميتها من خلال تحسين مستوى الصحة والمعرفة والمهارة بعد توفير احتياجات النمو الأساسية من الغذاء، الماء، الكساء، الدواء، السكن، الأمان الشخصي، الحركة والتريض، العمل الآدمي.

الجانب الثاني: يتصل بتوظيف القدرات المكتسبة في الإنتاج، وفي المشاركة بالمجالات الثقافية والاجتماعية والعامة والاستمتاع بوقت الفراغ، ما يعني التعليم، اكتساب المهارات، رعاية القدرات الخاصة، فرص التعليم الذاتي، المشاركة في الفنون، إنتاج المعرفة، التواصل الاجتماعي الآمن، المشاركة في التأثير، القدرة على التنقل والحركة.

---

(1) مقالات في التنمية البشرية العربية، حامد عمار، ص18.

وتتسع مجالات التنمية البشرية في تقاريرها اللاحقة، لتشمل الاحتياجات المرتبطة بكرامة الإنسان وحماية حقوقه وتقديره لذاته والاعتراف بقيمته وحرية ممارسة الشعائر الدينية وتكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون. وعندما تعم هذه الثقافة في حقوق الإنسان بشكل عام والتأكيد عليها كحق إنساني للاجئ، فإن التنمية الشاملة تصبح حقًّا مكتسبًا للجميع ويشارك فيها الجميع، ما يجعل العالم أكثر إنسانية.

إعداد المتطوعين في ملف اللاجئين

رُبَّ خير قدمته لغريب عنك بلا عناء منك، فدعا لك بقبول، فـ آنس غربة قلبك. لكن هذا الغريب يحتاج إلى مهارات معينة للتعرف عليه وللتعامل معه، وطريقة مناسبة لطمأنته وتقديم هذا الخير إليه، حتى يقع البر في أهله ويتم كما يجب، لذلك وجب تدريب المتطوعين بملفات دعم اللاجئين على مهارات وقيم ليقوموا بأداء مهامهم بشكل إنساني، منها:

الاستثمار في المتطوعين

كانت وما تزال أهم مشكلات العمل التطوعي العربي، وخاصة في ملف اللاجئين هو استنزاف المتطوع، وعدم تدريبه بشكل جيد وتوقع منه نتائج كبيرة أو مبهرة؛ فتحدث المشكلات ويكون المتطوع في فوهة اللوم؛ لذا لا بد من تدريب المتطوع والتأكد من تشبعه بمهارات التطوع العامة، مثل القدرة على العمل في فريق، الالتزام بإنجاز المهام في وقتها، التمكن من مهارات التواصل والاستماع، الذكاء العاطفي والملاحظة، حسن التصرف وقت الطوارئ، المرونة النفسية والعملية، القدرة على صنع البدائل، الاستئذان من الحالة محل الدراسة أو الدعم قبل زيارتها وتحديد موعد يناسبها، الاقتصار والاقتصاد الشديد في الزيارة، الحفاظ على الأسرار الشخصية للحالات.

التأكد من قيم التطوع قبل نزول ميدان الدعم

قبل نزول المتطوع إلى ميدان الحالات للدراسة أو توزيع الدعم، على المؤسسات والفرق والكيانات التطوعية التأكد والتأكيد على قيم التطوع الإنسانية للمتطوع لديها، التي تحمي اللاجئين من الاستغلال بكل أنواعه، والعنصرية بكل أشكالها، وتحفظ كرامتهم، ولا يتم التشهير بهم وتصويرهم ونشر صورهم حتى لو كان بإذنهم، فهم لا حيلة لهم، كذلك عدم جرح خصوصياتهم بالتدخل في حياتهم الشخصية أو توجيه أسئلة خاصة أو طلب معلومات ليست من شأن المتطوع أو الدراسة، كذلك حفظ كرامتهم أمام أبنائهم في أثناء التعامل والتوزيع، وعدم استخدام أكياس أو منتجات مدون عليها اسم الجمعية أو مؤسسة الدعم، وأن يحدث الدعم بحيث لا ترى الحالات بعضها ما أمكن، وأن يكون الدعم بشكل سريع على قدر الإمكان. كل هذا بحيث يتم حفظ ماء وجه المحتاج بشكل عام واللاجئ بشكل خاص، كما قال أحدهم:»إذا أحسنت لأحد فابتعد عنه، لا تحرج ضعفه، ولا تلزمه لشكرك وانصرف عنه بوجهك لئلا ترى انكساره».

من الإنسانية أيضًا عدم إرهاق الحالة بالأسئلة، خاصة إذا كانت هيئتها واضحة لا تحتمل إلا وجوب مساعدتها، وخاصة إذا كان الدعم المُقدم يسير. تتجلى هذه الإنسانية في موقف لأحد موظفي مؤسسات إغاثة اللاجئين الدولية، يقول إنهم كانوا يوزعون ملابس على العائلات في أحد المخيمات، وكانت آلية التوزيع عن طريق إبراز الهوية الشخصية؛ فرأيت من بعيد طفلًا بالمخيم يحضر صورته الشخصية ويلصقها على قطعة ورق كرتون، وبدأ يُظهرها لأحد الزملاء من موظفي الجمعية، وكنت ملاحظًا لتحركاته، فذهبت مسرعًا إليه وقدمت إليه الملابس، فأخذها ببهجة عارمة، ومشي راسمًا على شفتيه بسمة الانتصار، ظن أنه تمكن من تحقيق هدفه بذكاء، لقد كانت أجمل ابتسامة رأيتها في حياتي.

القدرة على تحديد مشكلة اللاجئ

الكتف المخلوعة يضرها الطبطبة، وكل عطاء لغير أهله مهدر؛ لذلك فإن تقديم الدعم لإنسان ما، يقتضي معرفة مشكلته بعناية. وتختلف المشكلات بين فردٍ وآخر من اللاجئين حسب حالته، ما بين نفسية واجتماعية وصحية ومادية، وعدم القدرة على فهم وتحديد المشكلة جيدًا يؤدي إلى هدر مادي ومعنوي كبير؛ فقد تأتي استغاثة لمساعدة لاجئ ماديًّا وبعد زيارته يتضح أنه يعاني مشكلة نفسية تجعله يجذب الاهتمام إليه، أو مشكلة اجتماعية مثل رهاب الاغتراب وعدم القدرة على النزول إلى العمل، حتى المشكلات النفسية يجب تحديدها بشكل دقيق، فهناك:

- مشكلات نفسية موجودة سابقًا: مثل الاكتئاب والفصام والاضطراب ثنائي القطب.
- اضطرابات ما بعد الأزمة: نتيجة الحزن والمعاناة والقلق الذي خلّفه التهجير.
- مشكلات عاطفية: مثل التوتر والإحباط والشعور بالذنب وفقدان الأمل والشعور بالخزي والخجل.
- مشكلات عقلية: مثل فقدان التركيز والذاكرة والارتباك والتفكير المفرط وعدم القدرة على اتخاذ القرار.

تتجلى أهمية تحديد المشكلة بعناية، عبر تأمل دراسة الحالة الفقيرة التي وردت بكتاب (اقتصاد الفقراء)، تحكي عن شاب استغاث لإنقاذه هو وأسرته من الجوع، بعد زيارته أفاد الشاب أن والده كان يمتلك قطعة أرض كبيرة، لكنه أيضًا يعيل 13 طفل، وكانت العادة أن الأب يبني لكل طفل من أولاده بيتًا حتى وهم صغار، فاضطر إلى بيع الأرض ليفعل ذلك. ولم يعد هناك أرض لزراعتها والعيش من خيرها، فاضطر الشاب إلى العمل كأجير بما يعادل 2 دولار باليوم، فوقع في مصيدة الفقر، واضطرت زوجته إلى النزوح للعمل في مدينة بعيدة فانهارت الأسرة، ومع ارتفاع أسعار الأسمدة، اضطر المزارعون إلى التوقف عن تأجير العمالة، ما جعله بلا عمل أغلب أيام الأسبوع، فعمل في قطاع البناء والتشييد كعامل مع افتقاره لأي

خبرة بها، واضطر ابنه إلى ترك دراسته لعدم القدرة على دفع نفقاتها والإقامة مع جده، مع ارتفاع الأسعار أكثر أصبحت أسعار الغذاء أعلى، فأصبح يأكل الطعام الرخيص غير الصحي، وأحيانًا لا يأتيه عمل لفترة طويلة فيقع من الجوع، وهو في نهاية الحوار يطلب الغذاء.[1] تُرى لو صرُف له الغذاء، هل سيكون ذلك حلاً لمشكلته هو وأسرته؟!

ملف تشغيل اللاجئين

توفير فرص العمل والتدريب على مهارات التشغيل يعد أبا الحلول لأغلب المشكلات، ومن أهم ما يمكن تقديمه للاجئ (رجل، امرأة) هو تقديم فرصة عمل مناسبة، ليس فقط لأن المثل يقول: «لا تعطني سمكة بل أعطني شبكة»؛ فيتمكن هو من توفير احتياجاته بنفسه ومن عمله، لكن أيضًا لأن العمل يزيد القوة النفسية للاجئ ويساعده في الاندماج ويوفر له بيئة حياة بديلة عن التي فقدها، كذلك يُخرج المرأة من حالات الاكتئاب والوحدة والغربة التي تفرضها العزلة والمساعدات الجاهزة، وهكذا يكون العمل ولو من البيت، مع توفير فرص التسويق وبيع المنتجات (طعام بيتي، كروشية، حياكة ملابس، بيع سلع أونلاين، مشغولات يدوية.. إلخ) له آثار تتعدى تحسين الوضع المادي.

الفاعليات الثقافية والفنية والاجتماعية كأدوات للدعم

الغربة والفقد والهجرة والانعزال لهم آثار مدمرة على حياة اللاجئ، ما يجعله دائمًا كثير الشكوى ويكثر من طلبات الدعم بشكل مستمر، وما تفعله مشاركة اللاجئين في الأنشطة الثقافية والاجتماعية والفنية والرياضية هي رفع السويّة النفسية والاجتماعية لهم، خاصة لمن عانوا آثار الحرب والشتات العائلي؛ حيث تؤدي مشاركاتهم في هذه الفاعليات إلى تقديم ذواتهم للآخر بشفافية، ثم إن وجود اللاجئ داخل أنشطة المجتمع المضيف والمشاركة بفاعلياته يُشعره بالسعادة وأنه

(1) اقتصاد الفقراء، أبهيجيت بانرجي وإستر دفلو، ص46.

جزء منه، ويُسهم هذا الشعور في تخفيف اضطراب الفكر وشرود الذهن بسبب فقدان الأهل، كما تمكنه المشاركة في العثور على أصدقاء ومعارف جدد داعمين له في حياته الجديدة ولهم نفس الاهتمامات الثقافية أو الفنية أو الرياضية.

ثبت ذلك في دراسة أجريت بجامعة روشستر؛ حيث وجد الباحثون أن الأزواج والزوجات السعداء الذين أجروا جراحة قسطرة قلبية كانوا أكثر احتمالية لأن يستمروا على قيد الحياة لـ 15 عامًا بعد الجراحة، بمعدل ثلاثة أضعاف أقرانهم من الأزواج غير السعداء، ووجدوا أيضًا أن العلاقات الاجتماعية الداعمة تخفض خطورة التعرض لمشكلات صحية تتراوح بين نوبات البرد الشديدة والسكتة الدماغية وغيرهما من الاضطرابات النفسية المختلفة، وهي مرتبطة بزيادة السعادة والصمود والسعة المعرفية وجودة الحياة.[1] كما تؤدي هذه المشاركات إلى الثقة المتبادلة بالمحيط المجتمعي، فيشعر اللاجئ بأنه قوي وسوي ويمكن أن يُسهم في فعل شيء ما لصالح المجتمع.

دعم الأطفال اللاجئين

يُشكّل الأطفال والمراهقون أكثر من نصف اللاجئين في العالم، وهم أكبر المتضررين نفسيًّا واجتماعيًّا من اللجوء، بسبب تعرضهم لمختلف أشكال الأذى النفسي عبر العنف والاستغلال وتغيير البيئة، خاصة أولئك الذين انفصلوا عن ذويهم أو والديهم أو فقدوا أحدهما؛ لذلك كان دعمهم نفسيًّا وماديًّا وتعليميًّا حاميًا لهم من مشكلات أكبر بعد ذلك، وهناك مجموعة من الأنشطة التي تساعد في دعمهم ويجب التدريب عليها، مثل:

- إقامة الأنشطة الترفيهية بين جموع الأطفال اللاجئين وغيرهم.
- الاهتمام بأنشطة القراءة والألعاب والعروض المسرحية الهادفة.
- إعادة الأطفال لإكمال المسار التعليمي.

(1) كيف نحيا في رفاه، باميلا أ.هايس، ص 171.

- إعادة تأهيل الأطفال الذين ارتبطوا بالجماعات المسلّحة وعايشوا تجارب العنف.
- الدعم التخصصي للذين تعرضوا لأحد أشكال العنف الجسدي أو الجنسي.
- دعم الأم اللاجئة نفسيًّا لتكون أنثى وزوجة وأمًّا تستطيع القيام بواجباتها وتطالب بحقوقها.
- تدريب الأمهات والآباء على تربية أطفالهم في بيئة اللجوء.

التسرع في قبول الحالات وتقديم الوعود

التسرع بقبول أو رفض حالة ما، غالبًا ما يكون قرارًا خاطئًا؛ لأنه ببساطة يغفل عمليات الدراسة والنقد والمتابعة، كذلك التسرع بالوعود بتقديم الدعم بلا دراسة، له عواقب وخيمة على كل الأطراف. يقول المثل الشعبي ما معناه: «**من جعل نفسه للناس مصباحًا سحريًّا؛ فليتحمل الدعك**»، فكرة الوعد بالدعم الدائم خاصة إذا كان يحدث بشكل عاطفي غير مدروس الموارد، من أخطر ما يمكن أن يقوم به متطوع بشكل عام وفي ملف اللاجئين بشكل خاص، ببساطة لأنه (لا دائم إلا الله)، ولا يعرف أحد الموارد المتاحة في المستقبل ولا الحالات التي ربما تستجد وتكون أولى من الحالة التي تم وعدها، ثم إن المتطلبات الإنسانية للحالة الواحدة متجددة ومتنوعة ومستمرة، ويكون الوعد أشد خطورة مع كثرة الحالات وقلة الموارد، تخيل كم الإحباط الذي رماه المتطوع على الحالة، التي غالبًا لن تثق في أحد من مقدمي الدعم بعد ذلك إذا أخلف وعده، وإذا وفَّى بوعده بالدعم دائمًا، فسيقع فريسة استغلال ولا بد وللأبد، ببساطة لأن **المبالغة في الإتاحة تعلم الاستباحة**.

جلسات تبادل الخبرات

تعد جلسات تبادل الخبرات من أهم أساليب الدعم النفسي الاجتماعي للاجئين، وهي شبيهة الشكل والتأثير بجلسات تثقيف الأقران، بحيث يتم تحديد مشكلة معينة في جلسة ويتم تبادل الآراء والخبرات في تعريفها وأساليبها وطرق التعامل معها. وكلما اختلفت الثقافات وفترة الإقامات للمشاركين في الجلسة

تكون النتائج رائعة، ببساطة لأنها توفر تجارب الحلول بشكل عملي من أصحاب المشكلة السابقين إلى أصحابها الحاليين أو المحتملين، حتى إنها تنفع كثيرًا المواطنين المحليين وتضيف لهم أبعادًا مختلفة نابعة من ثقافة الوافدين الجدد.

أذكر أن بين فريق الدعم الذي أعمل به سيدة مصرية كان لديها أزمة أسرية تخصها مع زوجها بسبب غضبها المستمر منه، لكنها تغيرت بعد ما سمعت جملة في جلسة تبادل تجارب حول مشكلات الهجرة مع اللاجئين، الكلمة قالتها خالة سورية قادمة حديثًا إلى مصر بعد وفاة زوجها وتجربة لجوء أثقلت ظهرها وبددت مالها، بعد أن تنهدت تنهيدة خلعت قلوبنا وأسكتت صوت المكان لها، قالت: «يا أولادي الحرب تهون، الهجرة تهون، لكن فقد الزوج أبدًا لا يهون، الزوج هو الوطن، يا أولادي أهلًا بالمصيبة إن كنَّا بصحبة، وتكرم المصائب بحضور زوج سند، يا أولادي الزوج لزوجته رحمة.. ولو كان فحمة».

إضافة إلى ذلك، فإن هذه الجلسات والفاعليات ومساحات النقاش بين اللاجئين تُسهل تعرف أصحاب المشكلات والمصائب المتشابهة بعضهم بعضًا، حتى لو كانت مستحيلة الحلول مثل مشكلات فقد أو موت أحد من الأهل؛ فإن أصحاب المصائب يتواسون فيما بينهم ويهونون المصائب على بعضهم، ورؤية بلاء الغير غالبًا ما تهون على النفس بلاءها، وربما يهون صاحب البلاء الأكبر على من هو أقل منه، وهنا فاقد الشيء يعطيه بقوة.

عم إبراهيم، رجل سوري سبعيني العمر، لكن لا يبدو عليه الكبر، يبدو شابًّا مشرق الوجه من نور إيمانه الذي تكاد تلمسه إذا صادفته خلال رحلة سيارة (كريم أو أوبر)؛ حيث يعمل كابتن رحلات بالقاهرة؛ وصل إلى مصر بعد مغادرته إحدى الدول العربية التي كان يقيم بها؛ حيث افتتح مطعمًا هناك، لكن بعد قرارات رفع أسعار إقامات وتراخيص عمل الوافدين؛ باع مطعمه هناك وقصد مصر للإقامة والعمل. لقد ابتُلي في وطنه وغادره، وابتُلي مرة ثانية في أكل عيشه واضطر إلى بيع محله، ومع ذلك لا يكف عن تكرار ذكر الله بحمده، في أثناء صحبته في شارع

بمدينة نصر بالقاهرة، توقفنا لشراء بعض الأدوات، فظهرت سيدة سورية أعرفها (سحر)، تبيع أغراضًا بالشارع.

في محاولة مني لمواساة وتصبير عم إبراهيم في بلائه بفقد وطنه وبيع مكان أكل عيشه، قلت له: يا عم، انظر.. هذه سيدة سورية اسمها سحر، لديها ابن معتقل بسوريا، وهي هنا ترعى أبناءه وحدها، وتعمل لهم ليل نهار، الله يقويها ويرزقها ويرزقنا همتها وما عندها من صبر.

قال: أنا أعرفها جيدًا، وقابلتها أكثر من مرة واشتريت منها كثيرًا، وقلت لها يومًا: احمدي ربك، أنتِ تعرفين أين ابنك، غيرك فقدّ كل أبنائه ولا يعرف أين هم.

قلت له: الله يبارك فيك وفي أولادك يا عم إبراهيم، صحيح حضرتك ولادك هنا ولا فين؟

هنا عم إبراهيم لم يقل شيئًا، ثم بعد ثوانٍ امتلأ صدره بالدموع.. ثم ظهر صوت بكاء شديد كان يحاول كتمانه.. ثم انفجر به، لقد فقد الرجل الذي يواسي السيدة كل أبنائه، ولا يعرف مكان حياتهم ولا حتى مكان موتهم.

البحث السريع بالمشاركة

أحد أساليب البحث الحديثة، الساعية إلى تحقيق الفهم الشامل لتعقيدات التغيير في المجتمعات التي لا تبدو عليها مظاهر أو معالم واضحة، تم تصميم أسلوب البحث السريع بالمشاركة لإدراك اختلاف الواقع بين الحالات واختلاف قدراتهم واحتياجاتهم؛ لذلك فهو يهدف إلى تقليل الأخطاء في نتائج الدراسات التي يسببها تحيز الباحثون في مجالات التنمية وإضفاء اتجاهاتهم في رؤية وتفسير الحالات، وذلك من خلال اعتماد البحث على خطوات وأدوات يتم تطويعها بمرونة لتلائم احتياجات الدراسة، منها أساليب المشاهدات المباشرة، والمقابلات شبه المنظمة، والتدرج، وتحليل الروتين اليومي، البحث والسؤال عن المهارات والإمكانات مع السؤال عن الاحتياجات.

كما أن خطة البحث غير جامدة وغير ثابتة، فهي تتغير وفق مجريات البحث ونتائجه، ومن أهم خطواتها جمع المعلومات المتاحة عن الحالة ومصادر دخلها وإنفاقها وحساب الفرق بينهما (ربما كان الدخل يبدو كبيرًا، لكن الإنفاق الواجب أكبر من الدخل)، حصر وتقدير احتياجات الحالة، دراسة جدوى الدعم المقدم لسد هذه الاحتياجات، جمع البيانات عن كيفية وتكلفة ونتائج تقديم الدعم (ربما كان الدعم في حالة غير مؤثر معها، لكنه في حالة غيرها يُعد إنقاذًا للحياة)، تحديد الأولويات في سد الاحتياجات، متابعة وتقييم الدعم بعد فترة مناسبة.

الحماية النفسية للمتطوعين

لا يعجبني قول بعضهم في المدح (أنت سُكَّر)، جميل أن يُحلي الإنسان حياة غيره، لكن لماذا عليه أن يذوب ويُعدم؟!

فكرة أن تكون شمعة تُضيء للآخرين ثم تحترق.. فكرة انتحارية، وفكرة أن تساعد غيرك وتُعرض نفسك للخطر لتكون أنت في حاجة للمساعدة.. أمر في غاية العبث؛ لذلك كانت الحماية النفسية للمتطوعين في ملفات دعم اللاجئين وكل الملفات التطوعية بشكل عام أمر يجب القيام به والتدريب عليه قبل نزول ميدان تنفيذ المهام، وهو الأمر الذي يجب مراقبة وجوده خلال تقديم الدعم وبعده، خاصة في مشروعات دعم اللاجئين، لأنه أحيانًا قد يُصاب البعض بالاحتراق النفسي أو الوظيفي، وهو حالة عاطفية تنجم عن الضغط النفسي الطويل الأمد، يتخللها الإصابة بالاستنزاف العاطفي بسبب سوء حالة اللاجئ والتماهي معها، وانعدام الطاقة للعمل واليأس من التدخل، وفقدان الحماس والحافز على الاستمرار في الدعم، وتضاؤل الكفاءة، وتراجع الشعور بالإنجاز الشخصي والتشاؤم والسخرية من الذات؛ لذلك وجب تدريب المتطوع على أن يحترم أوقات الاستراحة ويستمتع بها، وتعريفه قيمة ما يقوم به وتأثيره، وتوصيته أن يعتذر وقت تعبه ويُصرح به، وتدريب المتطوع على مهارات الدعم النفسي لذاته ولأقرانه والعناية بهم.

وقف النزيف وتجفيف المنابع

يتحدث العالم كثيرًا عن أهمية وقف الهجرة غير النظامية، وعن أهمية دعم اللاجئين ووقف رحلاتهم الخطرة، بلا أن يتحدث عن أسبابها ويضع خططًا جادة لوقف نزيف الهجرة والتهجير والنزوح خاصة في الشرق الأوسط والقارة الأفريقية.

الظلم، التجويع، الترويع.. كلمات السر الرئيسية في صناعة اللاجئين، فاستغلال الغرب لمقدرات الشعوب الأفريقية.. يخلق لاجئين، والشعوب التي تُعاني الظلم من حكوماتها سيحلم أفرادها بالخروج منها، ووجود كيان مغتصب للأرض العربية الفلسطينية والسورية واللبنانية بدعم غربي بالسلاح والإعلام.. يخلق المقاومة أو العنف المضاد (كما يسميه الغرب)، ما استتبع أن يحرص الغرب على تجويع وتركيع وإشغال الشعوب بالمنطقة بأزماتهم الداخلية حتى لا يستطيعوا أن يحلموا بتدخل حكوماتهم العاجزة.. وهذا أمر يستتبع صناعة لاجئين بشكل دائم وإلى سابع حفيد.

من هنا وجب على متطوعي اللجوء في العالم أن ينشطوا في البحث والدراسة والنشر حول مناصرة قضايا الشعوب الفقيرة والمقهورة، حتى لا تبقى الدائرة تدور، وتنتقل الظاهرة من شعب إلى آخر، فأكبر خدمة إنسانية يمكن تقديمها في ملف اللاجئين.. هو تقليل أسباب اللجوء من الأساس.

مبادرات ومؤسسات دعم اللاجئين

يُحصن المُلك ثلاثة:
الرأفة والجود والعدالة.

ربما توهم البعض أن دعم اللاجئ هو منة وتفضل عليه، لكن منطق الواجب الإنساني والديني يؤكد أن كل دعم يكفل للاجئ حياة كريمة هو حقه كإنسان، وهو ما أكده القانون الدولي وأكدته أول اتفاقية للأمم المتحدة خاصة باللاجئين عام 1951؛ حيث حددت مسؤولية المجتمع الدولي على اللاجئين بتوفير الملجأ الآمن، وكفالة حمايتهم من أي مخاطر، وتوفير مقومات العيش الكريم لهم ولذويهم، والتكفل بعدم الإبعاد أو الإعادة قسرًا، وكفالة ممارسة الشعائر الدينية، وإتاحة الحق في تملك الأموال والتصرف فيها.

بالطبع هذه المهام وغيرها في رعاية ودعم ومساعدة وإغاثة اللاجئين، تحتاج إلى جهد كبير وخطط مدروسة وعمل متواصل وتقييم وتقديم وتحقيق واستبدال ومراجعة وتبيان وسؤال وحركة. أمور تحتاج إلى تعاون وتشبيك الجهات المعنية والمهتمة، وعدم الاقتصار على العمل الفردي، الذي قال عنه الإمام محمد عبده: «الإحسان الفردي المستور (يدًا بيد) عمل يستطيعه المُحسن بينه وبين نفسه وبين المحتاج، ويُحمد منه أن يكتمه ولا يعلمه لغيره، ولكن الإحسان في النكبات العامة لا يتأتى بغير التعميم والتنظيم، وضمان الأمانة والدوام، فهذا غير الإغاثة المؤقتة التي تنقضي بانقضاء دواعيها».[1] لذلك ظهرت المبادرات الجماعية الخيرية، ونشطت المؤسسات الدولية والمنظمات المحلية والجمعيات التنموية والخيرية

(1) محمد عبده، عباس محمود العقاد، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، 1983، ص259.

والفرق التطوعية، في دعم ومساعدة وإغاثة اللاجئين، ومن أهم هذه المؤسسات والمبادرات في العالم ما يلي:

مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين: UNHCR

مع تصاعد الاهتمام الدولي بحماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، زاد الاهتمام بشؤون اللاجئين ومن في حكمهم كالنازحين، بهدف بيان حقوقهم وتحديد مركزهم القانوني في دول العبور ودول الاستقبال عبر إقرار المبادئ والاتفاقيات والعهود والقوانين الدولية، وتعدى الأمر إلى إنشاء أجهزة دولية مستقلة يُناط بها مهام الرصد والمتابعة والدعم مثل مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، الأونروا، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، منظمة العفو الدولية.[1]

تختص المفوضية بتوفير الحماية الدولية للاجئين، والبحث عن حلول دائمة لمشكلاتهم بالتعاون مع الحكومات ومنظمات المجتمع المحلي، بغرض الإعادة الآمنة إلى أوطانهم أو تيسير حياتهم في المجتمعات المُضيفة، وتشجيع الدول للانضمام إلى الاتفاقيات الدولية ومساعدتها في تعديل تشريعاتها بما يخدم قضايا اللاجئين، إضافة إلى التواصل والتشبيك مع جمعيات ومراكز حقوق الإنسان الدولية والإقليمية الحكومية وغير الحكومية للرصد والمتابعة وتقديم الدعم المادي والعيني.

وفي مصر، تقدم المفوضية للاجئين الكارت الأصفر الذي يساعدهم في تجديد الإقامات والحصول على المساعدات المالية التي تحتسب كل أفراد أسرة اللاجئ؛ ليكون لهم نصيب من هذا الدعم، إضافة إلى توزيع كوبونات الدعم العيني للمواد الغذائية. صحيح أنه بين الحين والآخر تظهر انتقادات على عمل المفوضية، شأنها شأن كل الجهات التي تتعامل مع شريحة كبيرة من المستفيدين، أغلب هذه

(1) www.unhcr.org

الانتقادات كانت بسبب عدم عدالة التوزيع أو الحرمان المفاجئ لبعض الأسر من الدعم، إلا أن عملها مع هذا الكم الكبير من اللاجئين يجب دعمه وشكره.

الأونروا: UNRWA

بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام 1948، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثالثة القرار رقم 212، الذي يقضي بإنشاء وكالة الأمم المتحدة لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين بغرض دعمهم، وظلت الوكالة تقدم الدعم لأقل من سنتين، ثم تأسس على أنقاضها وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) لتقديم برامج مستمرة للإغاثة المباشرة وتوفير فرص عمل لهم. بدأت الوكالة عملها عام 1950 بتوفير الدعم لنحو 750 ألف لاجئ فلسطيني، العدد الذي تضاعف مؤخرًا ليصبح أكثر من 5 ملايين و900 ألف لاجئ، ويحق لهم الدخول في دعمها. يتم تمويل الأونروا بشكل كامل عبر التبرعات الطوعية من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، تشتمل خدمات الوكالة على التعليم والرعاية الصحية والإغاثة ودعم البنية التحتية وتحسين المخيمات والدعم المجتمعي والإقراض الصغير والاستجابة الطارئة خاصة في أوقات النزاع المسلح.[1]

مع تحول الوكالة إلى تقديم الخدمات الأساسية، اعتمدت الأونروا أسلوب جديد وهو الدمج الاقتصادي للاجئين، ويعد البرنامج التعليمي لها ركيزة لهذا النهج الجديد، كما حاولت الوكالة النأي بنفسها عن السياسات التنموية واسعة النطاق لسنوات، مشيرة إلى أنه لا ينبغي عليها أن تكون مشاركة في مثل هذه التنمية حتى يتحقق حل نهائي لقضية اللاجئين، كما دعمت حق الفلسطينيين في حق العودة، إلا أن خطابها قد اختفت منه هذه النبرة منذ السبعينيات في أعقاب الاعتراف الدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني.

(1) www.unrwa.org

تبنت الوكالة خطة مفصلة حول الدور الذي يمكن أن تلعبه فيما يتعلق بتنفيذ عودة الفلسطينيين على مراحل، مستجيبة بذلك لخطة الحل القائمة على أساس الدولتين التي صاغتها لجنة الأمم المتحدة المعنية بحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف، وأشارت الأونروا إلى أن توفير التمويل المناسب والصلاحيات وتعاون الحكومات يمكن أن يساعد في حركة انتقالهم وتوفير مأوى مؤقت لهم، إضافة إلى توفير الغذاء والرعاية الطبية في حالات الطوارئ، كما يساعد في تحديد هوية اللاجئين (تعريفهم) خاصة مع عدم اعتراف أغلب الدول الأوروبية بدولة اسمها (فلسطين). ظهر دور الأونروا واضحًا خلال الحرب على غزة (أكتوبر 2023) مع اشتداد القصف على المدنيين وبيوتهم، نزوحوا إلى المؤسسات التابعة للأونروا، ومع الأسف قصفت إسرائيل عدد منها.

اللجنة الدولية للهلال الأحمر: RC

منظمة غير متحيزة ومحايدة ومستقلة، لها مهمة إنسانية بحتة تتمثل في حماية حياة وكرامة ضحايا النزاع المسلح وحالات العنف الأخرى وتقديم المساعدة لهم، وتسعى اللجنة الدولية جاهدة إلى تفادي المعاناة عبر نشر أحكام القانون الدولي الإنساني والمبادئ الإنسانية العالمية وتعزيزها. نشأت فكرتها عام 1863 بهدف حماية ضحايا النزاعات المسلحة والاضطرابات ومساعدتهم عن طريق عملها المباشر في أنحاء العالم، كذلك من خلال تشجيع احترام القانون الدولي الإنساني من قِبَل الحكومات وجميع حاملي السلاح من الأطراف المتنازعة.[1]

تعمل لجان المؤسسة في عدد من الملفات أهمها: الأمن الغذائي والاقتصادي، المياه والسكن، النشاط في الأوبئة للتوعية والإغاثة، التصدي للعنف الجنسي، التعاون مع الجمعيات المحلية، الحد من أخطار الأسلحة، الدبلوماسية الإنسانية وتبادل

(1) www.icrc.org

الأسرى وتنسيق الهدنة الحربية وزيارة المحتجزين، لم شمل العائلات، تمكين ذوي الإعاقة، الدعم الإنساني في حرب المدن، دعم المهاجرين واللاجئين.

يُذكر أن فروع الهلال الأحمر في الوطن العربي، وخاصة في مصر، تعد من المؤسسات القليلة التي تنظم تدريبات مكثفة حول مهارات التطوع وحماية المتطوعين، وتنظم دورات الدعم النفسي الاجتماعي. كما كان الهلال الأحمر المصري من الكيانات التطوعية الأولى التي سبقت إلى استقبال اللاجئين السودانيين (بعد الحرب الأخيرة في 2023) على الحدود المصرية السودانية، مع توفير طواقم طبية جاهزة لاستقبال الجرحى؛ حيث قدم الهلال 332 ألف خدمة طبية وإغاثية بينها توزيع الطعام والأدوية وأجهزة الاتصال وتيسير إجراءات السفر للحالات الإنسانية، كما أعلن الهلال الأحمر المصري عن صرف مساعدات مالية للاجئين منهم داخل مصر في يوليو 2023، وعن تنظيمه قافلة إغاثية إلى الداخل السوداني في أغسطس من نفس العام بدعم مفوضية شؤون اللاجئين الذي وصل إلى 50 مليون جنيه، مع شارك الهلال بجهد ملحوظ في الحشد والتعبئة لدعم غزة (أكتوبر 2023).

منظمة أطباء بلا حدود: MSF

منظمة تطوعية غير حكومية عابرة للحدود، حصلت على جائزة نوبل للسلام عام 1999، لتقديمها العون الطبي الطارئ لضحايا الصراعات والكوارث، وتحولت مع مرور الزمن على عملها الذي بدأ عام 1971 في فرنسا إلى أبرز اللاعبين العالميين المؤثرين في العمل الإنساني، وأصبح يُطلق عليها (المنظمة الأكثر جرأة وفاعلية في مواجهة المخاطر في مناطق العنف المسلح)؛ حيث أبدت شجاعة فائقة خلال عملها في سوريا والسودان وشرقي الكونغو الديمقراطية وغزة وكوسوفو واليمن وغيرها، إضافة إلى دورها في الشيشان في تسعينيات القرن الماضي؛ الذي كان الأروع، لتفردها بالعمل الإغاثي هناك بعد انسحاب جميع المنظمات الإنسانية.[1]

(1) www.msf.org

في عام 2015 اعتذر لها الرئيس الأمريكي شخصيًّا بعد قصف مستشفًى تابعٍ لها في قندوز شمال أفغانستان، وفي عام 2016 سيرت المنظمة عددًا من السفن التابعة لها في البحر المتوسط للقيام بعمليات بحث وإنقاذ للمهاجرين واللاجئين الفارين من الصراعات والفقر في الشرق الأوسط إلى أوروبا، الأمر الذي عرّض إحدى سفنها في أغسطس من هذا العام إلى إطلاق النار أمام السواحل الليبية. غالبًا ما كانت تُصدر المنظمة بيانات عن الشفافية في الدعم ومدى الالتزام بالهدنة الإنسانية وتقييم الوضع على الأرض، ما جعلها تنتقد عسكرة أو تسييس الإغاثة. وكانت لا تتردد في إدانة انتهاكات طرف من أطراف الصراع على عملها، كما في بيانها المندد باستهداف إسرائيل للمدنيين الفلسطينيين خلال الحرب على قطاع غزة عام 2014، وبيانها المندد بقصف إسرائيل للمستشفيات في اليوم الأول للحرب على غزة في أكتوبر 2023، وبيانها عن الحرب الأهلية في رواندا الذي فضح جرائم حرب تورطت فيها منظمات إنسانية عالمية، وبيانها عن صراع دارفور 2003، وأيضًا بيانها عن الحرب في جنوب السودان 2016. وحاليًّا للمنظمة مشروعات ومكاتب في أكثر من 65 دولة ويعمل معها 27 ألف موظف بتمويل مستقل يُقارب 2 مليار يورو سنويًّا.

مؤسسة كاريتاس الدولية: Caritas

هي اتحاد مؤسسي إنساني يضم أكثر من 165 كيان إغاثي، بدأت فكرتها في ألمانيا عام 1897، ثم كان التأسيس الدولي عام 1951، وحاليًّا يقع المقر الرئيسي لكاريتاس الدولية في روما، وتُعد من أول شركاء المفوضية الدولية لشؤون اللاجئين. في مصر افتتحت فرعها عام 1956، ثم أطلقت عددًا من المكاتب بالقاهرة لتوفير الخدمات النفسية للاجئين، خاصة المعنفين وذوي الاحتياجات الخاصة وكبار السن، عبر استقبال الأفراد المحولين من الجهات المختلفة للتقييم النفسي، وتقدم خدماتها عن طريق فريق متميز من الأطباء والمستشارين النفسيين يعملون على مدار 24 ساعة بالتعاون مع الشركاء المعنيين. تشمل خدماتها أيضًا

الكشف بالعيادة الخارجية وجلسات العلاج النفسي ووصف الأدوية وصرفها مجانًا، إضافة إلى إجراء الفحوصات المطلوبة وصرف الأجهزة التعويضية والمواد والمستلزمات التي تعمل على تحسين جودة حياة المرضى.[1]

منظمة أوكسفام الخيرية: Oxfam

تأسست منظمة أوكسفام كمؤسسة خيرية صغيرة عام 1942، تحت اسم (لجنة أوكسفورد للإغاثة من المجاعة)، نمت أوكسفام نموًّا كبيرًا؛ لتصبح اليوم إحدى كبرى المنظمات الخيرية الدولية المستقلة في مجالي الإغاثة والتنمية. تُدار أوكسفام حاليًّا كاتحاد دولي يضم 21 منظمة زميلة، مراكزها منتشرة حول العالم في أكثر من 90 دولة بالتشارك مع منظمات محلية وعالمية من أجل التوصل إلى حلول دائمة للفقر.[2]

لم تعد نشاطات أوكسفام اليوم مقتصرة على محاربة المجاعات، بل على محاربة أسباب تلك المجاعات وعلى إيجاد سبل لتمكين الناس من إعالة أنفسهم بأنفسهم، كما تقوم المنظمة بالعديد من النشاطات في مجالات التعليم والديمقراطية وحقوق الإنسان ومحاربة الإيدز والاحتباس الحراري، فضلًا عن افتتاحها للعديد من مراكز التجارة العادلة، فهناك 750 مركزًا تجاريًّا لأوكسفام منتشرة في أنحاء بريطانيا وحدها؛ حيث تُباع من خلالها منتجات البلاد الفقيرة واللاجئين بأسعار عادلة بهدف إفادة المنتجين الفقراء، إضافة إلى عمل حملات دعم دولية لصالح مخيمات اللاجئين في الشرق الأوسط.

منظمة إنقاذ الطفولة: Save the children

منظمة غير حكومية بريطانية، تُعد أول حركة مستقلة تدافع عن الأطفال في العالم (بالإغاثة والدعم والحماية) عبر مكاتبها في 116 دولة، تأسست المنظمة في15 إبريل 1919 في لندن من أجل الدفاع عن الأطفال عبر تحسين أوضاعهم

(1) www.caritas.org
(2) www.arabic.oxfam.org

المعيشية ودعم التعليم وفرص الاقتصاد والاهتمام بالصحة. كما تقدم مساعدات طارئة في أثناء الكوارث والحروب، أسستها أغلانتين جيب وأختها الناشطة دوروثي بكستون، وفكرة إنشائها جاءت كمحاولة للتخفيف من حدة الجوع في ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية خلال الحصار على ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.[1] وعن نشاطها في مصر، فهي تعمل عبر مكاتبها للتنسيق مع وزارة الصحة والسكان المصرية لتسهيل وصول الخدمات الصحية للاجئين وملتمسي اللجوء.

هيئة تير دي زوم: TDH

منظمة سويسرية إنسانية متخصصة تأسست عام 1960 بهدف حماية حياة الأطفال ودعم حقوقهم، تنشط في برامج الدعم الصحي والنفسي والاقتصادي في الدول التي ينتشر بها الفقر وسوء التغذية وفي مجتمعات الهجرة واللاجئين، وتقدم الدعم المباشر وغير المباشر لملايين الأطفال وأسرهم ومجتمعاتهم في 30 دولة كل عام[2].

وفي مصر، تتعاون تيردي زوم مع شركائها في مكتب بستيك وغيره، لتقديم الخدمات الصحية والنفسية من خلال أطباء وممرضات وفرق مُدربة من العاملين النفسيين اللاجئين من إريتريا وإثيوبيا والصومال والسودان والعراق وسوريا واليمن، يقدمون دعمًا يتحدث لغة اللاجئين ولهجاتهم المحلية، متاحون على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع.

هيئة الإغاثة الكاثوليكية: CRS

تقدم المفوضية الدولية لشؤون اللاجئين المنح التعليمية من خلال هيئة الإغاثة الكاثوليكية المصرية التي تساعد في تمويل فرص التعليم في مصر عبر المدارس العامة والمجتمعية، إضافة إلى تقدم الهيئة أنشطة تعليمية متنوعة، مثل دروس اللغة العربية

(1) www.savethechildren.net

(2) www.tdh.org

والإنجليزية وبرنامج المساعدة في الدراسة والتدريب المهني ودعم المشروعات الصغيرة ومتناهية الصغر والدعم في توسع الأنشطة التجارية الخاصة باللاجئين.[1]

الهيئة الحكومية لإدارة الكوارث: AFAD

تعد تركيا ثالث أكبر دولة في العالم تأثرًا بالزلازل، إلا أن زلزال مرمرة عام 1999 يعد نقطة تحول في مجال إدارة الكوارث وتنسيقها، أجبرت هذه الكارثة تركيا على إنشاء مؤسسة حكومية واحدة للتنسيق؛ فأصدر البرلمان التركي القانون رقم 5902 لعام 2009 لتشكيل هيئة إدارة الكوارث والطوارئ (AFAD) التابعة حاليًّا لوزارة الداخلية التركية.[2]

تعمل الهيئة على الوقاية من آثار الكوارث المتوقعة وتقليل الأضرار الناجمة عنها قدر الإمكان، وتخطيط وتنسيق الاستجابة لما بعدها، وتعزيز التعاون بين مختلف الجهات الحكومية عبر81 فرعًا إقليميًّا لها في جميع أنحاء الدولة، إضافة إلى 11 وحدة بحث وإنقاذ، تتعاون الهيئة مع مجموعة من المؤسسات الحكومية والمنظمات غير الحكومية اعتمادًا على طبيعة وشدة الحالات. وعلى مدار السنوات الماضية نجحت الهيئة في التنسيق لاستجابات هائلة، وظهر نشاطها بوضوح بعد زلزال تركيا وسوريا 2023 بعمل آلاف المخيمات المؤقتة في وقت قياسي وقدمت الدعم للآلاف المتضررين في تركيا وسوريا، كما شاركت في استجابات إغاثية مؤثرة بعد الفيضانات المدمرة والنزاعات المسلحة على حدود تركيا، وعلى المستوى الدولي أرسلت بعثات ناجحة لتقديم المساعدة لأكثر من 50 دولة منها الصومال وفلسطين والإكوادور والفلبين ونيبال واليمن وموزمبيق وتشاد.

(1) www.crs.org

(2) www.afad.gov.tr

هيئة الإغاثة الإنسانية والحقوق والحريات: IHH

تأسست عام 1992 في تركيا، كرد فعل إنساني للأحداث التي شهدتها البوسنة والهرسك في سنوات الحرب، وكانت أول مؤسسة مدنيّة خرقت الحصار الذي كان مفروضًا على العاصمة البوسنية سراييفو خلال النزاع المسلح 1992. كذلك كان لها السبق في تنظيم العديد من حملات الإغاثة لقطاع غزة القابع تحت الحصار منذ سنوات، أهمها حملة كسر الحصار البرية عام 2009، وأسطول الحرية 2010 الذي شاركت فيه منظمات ومؤسسات إغاثة حول العالم، ومن أجل سوريا نظمت الهيئة عام 2016 حملة (افتحوا الطريق إلى حلب) بهدف كسر الحصار عن سكانها، شارك في الحملة أكثر من 40 ألف شخص ونحو 5 آلاف سيارة، ونجحت الحملة في الضغط على الرأي العالمي لإجلاء 45 ألف محاصر من المدينة وتلبية احتياجاتهم.[1]

تسعى الهيئة للوصول إلى ضحايا الحروب والكوارث الطبيعية وإلى اللاجئين لتقديم المساعدات، وتؤسس في مناطقهم مشروعات تنموية صغيرة؛ فكانت على مَرِّ سنوات (جسرًا إنسانيًّا) ينطلق من تركيا ويصل إلى 123 دولة، منها فلسطين والسودان وتشاد وسوريا من خلال طواقم عملها ووفرة الدعم المقدم منها.

مؤسسة تافل: Tafel

من أهم الكيانات الخيرية التي تُوصف بأنها بنك ومخزن الطعام الألماني (تافل)، بدأت عملها عام 1993 لتكون حاليًّا أكبر كيان اجتماعي واقتصادي لتوفير الطعام وتمريره إلى الأشخاص المتضررين من الفقر والمشردين عبر 60 ألف متطوع يعملون في 940 فرعًا للمؤسسة في ألمانيا. تقوم تافل بشحن مواردها من الأسواق الغذائية والمتاجر والمخابز والفنادق التي تتبرع بحصص من منتجاتها التي لا تلقى رواجًا أو لا تُستخدم أو تفيض عن الحاجة، لتبيعها تافل بأسعار رمزية للغاية أو مجانًا لمن يحتاجها في كل ألمانيا وخاصة في مدينة إسن بشمال الراين – وستفاليا التي يكثر بها

(1) www.ihh.org.t

وجود اللاجئين والمهاجرين. استفاد منها 6 آلاف شخص على الأقل، وتزود تافل أكثر من 99 مؤسسة خيرية واجتماعية في ألمانيا بما يلزمها من غذاء.[1]

الجمعية الوطنية لمبتوري الأطراف في إسبانيا

تقوم هذه المؤسسة منذ افتتاحها في محافظة بلد الوليد الإسبانية (Valladolid) بمساعدة السكان المحليين واللاجئين المصابين بإعاقات بدنية، عبر توفير أطراف صناعية وكراسي متحركة لهم، ومتابعة ممارسة حياتهم بشكل طبيعي قدر الإمكان، وتقدم هذه الخدمات بشكل مجاني تمامًا، مع شحن الفائض من هذه المعدات الطبية إلى دول النزاعات المسلحة خاصة في الشرق الأوسط.[2]

مبادرة الأذرع المفتوحة: Open Arms

مبادرة تقوم بها منظمة خيرية لها نفس الاسم في إسبانيا في بلدية بادالونيا Badalona، تنشط في تنظيم رحلات على متن سفينة (أسترال) التي يبلغ طولها 30 مترًا للبحث في البحر عن اللاجئين المعرضين للغرق وانتشالهم وعلاجهم، ونجحت بالفعل في إنقاذ 300 شخص كانوا معرضين للموت قبالة الشواطئ الليبية. وتقوم المبادرة في مدينة غرناطة برفع مستوى الوعي العام للمواطنين حول مآسي اللاجئين واحتياجاتهم، يُذكر أن مؤسسة الأذرع المفتوحة تم التبرع لها بـ يخت (بيلوبينا) من لاعب الوسط الإسباني تشافي هرنانديز، نجم برشلونة الإسباني والسد القطري، لبيعه في مزاد علني لصالح إنقاذ اللاجئين القادمين من البحر المتوسط، وتبرع لها جواردیولا (مدرب مانشستر سيتي) فى عام 2018 بـ 150 ألف يورو وما زال يواصل دعمه لها.[3]

(1) www.essener-tafel.de
(2) www.amputats-santjordi.org
(3) www.openarms.es/en

مبادرة مدينة اللاجئين

مبادرة من المجلس المحلي في إقليم كتالونيا الإسبانية، تهدف إلى وضع وتنفيذ خطط استقبال اللاجئين وتوفير السكن والخدمات اللازمة لهم منذ اللحظات الأولى لوصولهم. كما تضع خطط التشغيل والتنمية لمهاراتهم. خصص المجلس في ذلك أماكن تتسع لتسكين وتشغيل 1250 لاجئ، مع تنظيم ندوات ومحاضرات في إسبانيا تحث على معاملة اللاجئين والمهاجرين كإخوة، بدعوة وحضور الكثير من الشخصيات العامة. كما نظم أعضاء المجلس مظاهرات مرحبة بوجود اللاجئين، وبعد نجاح المبادرة في كتالونيا تم نسخها وتطبيقها في ولاية بلنسية.

مبادرة منازلنا منازلكم

في إسبانيا، يشارك 50 فنانًا في حفلات غنائية ضخمة بمسارح برشلونة بحضور يُقدر بـ 150 ألف مشاهد، وتُخصص أرباح الحفلات كاملةً لدعم قضايا اللاجئين، خاصة ملف التسكين تحت شعار (منازلنا منازلكم).

مبادرة تليفونيكا: Telefonica

مبادرة إسبانية لإطلاق عدة مواقع عبر الإنترنت، تبث باللغات العربية والإنجليزية والإسبانية لمد اللاجئين بالمعلومات اللازمة لهم عند دخولهم إلى إسبانيا مثل عناوين مراكز اللجوء والإيواء والتعريف بالإجراءات القانونية التي ينبغي اتخاذها وتوضيح الحقوق والوجبات والمعلومات الخاصة بالمستشفيات والمواصلات والتعليم.

معرض المسافرين

تنظم مكتبة مدينة مرسية الإسبانية معرض رسومات وصور فوتوغرافية للاجئين من عمل اللاجئين وغيرهم للتعريف بقضاياهم، مع حشد عدد كبير من الجمهور ووسائل الإعلام لنقل قضايا وقصص اللاجئين والمهاجرين باستخدام الفنون.

مسرح اللاجئين

تنظم جامعة كارلوس الثالث بمدريد عددًا من المسرحيات المستمرعرضها، والتي تتناول قضايا اللاجئين وضرورة دعمهم، تحت اسم (مسرح اللاجئين).

مبادرة التضامن المدني مع اللاجئين

مبادرة تعليمية أطلقتها وزارة التربية والتعليم والثقافة في إسبانيا للطلاب المحليين، بهدف تعليمهم قيم العدالة والتضامن وشرح مأساة اللاجئين وكيفية دعمهم.

مبادرة مرحبًا باللاجئين

أحد المشروعات الناشطة في مدينة ألكالا دي إينارس الإسبانية، تقوم بمطالبة الحكومة بعمل ممرات آمنة لدخول اللاجئين، وتُجري دراسات وتقارير عن اللاجئين لرصد التطور في حياتهم ومدى إفادتهم للمجتمع، كما تعمل على إنشاء مراكز لتعليم اللغة الإسبانية للمهاجرين.

مبادرة العيش المشترك

في سويسرا، تم إطلاق عدد من البرامج ضمن مبادرة العيش المشترك، منها ما هو موجه للاجئات لتعريفهن بالمكتبات العامة ومراكز رعاية الأمومة والمتنزهات العامة، وبرامج أخرى تهدف إلى تعزيز الحوار بين الأديان والثقافات، والتعرف

على التنوع الديني والثقافي لسويسرا، من خلال رحلات منظمة لاستكشاف مواقع دينية وثقافية وتعليمية، كما تنظم لقاءات نوعية بين المواطنين المحليين واللاجئين لتحسين تعلم اللغة.

اليوم العالمي للاجئين

خصصت الأمم المتحدة 20 يونيو من كل عام ليكون اليوم العالمي من كل عام، لتسليط الضوء على معاناة اللاجئين في العالم والحديث عنهم ومعهم ولهم، والإشارة إلى شجاعة وقوة ونجاح رموزهم الذين تحدوا ظروف الصراعات والحروب أو الاضطهاد، كما يُعد مناسبة لحشد التعاطف والتفهم لمحنتهم والاعتراف بعزيمتهم من أجل إعادة بناء حياتهم.

اليوم العالمي للعمل الإنساني

إحدى مبادرات الأمم المتحدة التي جعلت يوم 19 أغسطس من كل عام لتكريم جهود المتطوعين، خاصة الذين يعملون في المساعدات الإنسانية بميادين خطرة مثل الصراعات المسلحة وبيئات الأوبئة ومجتمعات النزوح واللجوء.

اليوم العالمي للمهاجرين

أحد الأيام العالمية للأمم المتحدة، حيث يُخصص 18 ديسمبر من كل عام للحديث عن المهاجرين (للعمل) في العالم، وضرورة الاعتراف بأهمية مساهماتهم الإنسانية، مع تسليط الضوء بصورة خاصة على التحديات التي يواجهونها، ومراقبة تعزيز الإدارة الإنسانية والمنظمة للهجرة بما يعود بنفع الجميع، بما في ذلك مجتمعات المنشأ والعبور والمقصد.

اليوم العالمي للتضامن الإنساني

أعلنت الأمم المتحدة 20 ديسمبر من كل عام يومًا دوليًّا للتضامن الإنساني، ويُخصص للاحتفاء بالوحدة في إطار التنوع، وتذكير الحكومات بضرورة احترام التزاماتها في الاتفاقات الدولية لتحسين أوضاع المهاجرين واللاجئين لديها، ورفع مستوى الوعي العام بأهمية التضامن في قضايا الأزمات والتنمية على السواء، كما يشمل اليوم تشجيع المبادرات الجديدة للقضاء على الفقر.

مبادرة سوريا الأهل

مبادرة مصرية عربية تطوعية مستقلة، بدأت عملها مع بداية هجرة السوريين إلى مصر في 2011، عملت منذ بدايتها كحاضنة اجتماعية للاجئين والمغتربين، ودعمهم في ملفات التسكين والتشغيل والتغذية والعلاج والتثقيف والتعليم وترفيه الأطفال اليتامى والتدخل للمساعدة في حالات الطوارئ، بالإضافة إلى تنظيم معارض الملابس التي يتم التبرع بها لبيعها بأسعار رمزية أو بشكل مجاني للاجئين. أطلقت المبادرة قبل سنوات مشروع (المطبخ البيتي) عبر دعم أسر اللاجئين التي وصلت إلى مصر بلا عائل، لعمل طعام من بيوتهم، وتقوم المبادرة بتسويقه وتنسيق بيعه وتوصيله إلى الجمهور، لينجح المشروع في دعم أكثر من 120 مطبخًا بيتيًّا في عامه الأول؛ ليكون بعد ذلك فكرة يعمل بها ويطورها اللاجئون من الجنسيات المختلفة الذين انضموا لاحقًا إلى برامج دعم المبادرة بحكم التوافد الكبير إلى مصر بعد النزاعات المسلحة، خاصة من اليمن وليبيا والسودان.

تنشط المبادرة أيضًا في برامج تعزيز الاندماج الاجتماعي عبر تقديم دورات التعريف بالقانون المصري والعادات والتقاليد واللهجة المحلية، وورش عمل حول تعزيز المهارات التربوية للأمهات اللاجئات، إضافة إلى تنسيق مشاركة اللاجئين في الفاعليات الثقافية والاجتماعية، وتنظيم رحلات إلى المكتبات العامة ومعارض الكتاب المصرية، كما تقوم المبادرة برعاية أعداد كبيرة من المصريين أبناء المحافظات المنقطعين في العاصمة القاهرة.

الخـاتـمـة

لاجئون.. هكذا بدأنا جميعًا، فهذه ليست دارنا الأولى؛ فآدم أبو البشر غادر داره الأولى (الجنة) وهبط إلى الأرض، ومنذ يومه كُتب على أولاده الرحيل والترحال، فسكنوا البلاد وأسموها أوطان، تجمع الشمل وتُعطي الونس أو هكذا يجب أن تكون، لكنها صارت أوطانًا غريبة ومُغربة، يكره فيها أحدهم أخاه ويستكثر عليه خبزها وملحها وهواءها، وصارت بلاد تتحدث لغة الحرب ولهجاتها الأسلحة المتنوعة، أنتجت دمارًا وقتلى وجرحى وأسرى، وأعادت الملايين لاجئين مرة أخرى، ليكونوا هذه المرة مثالًا للألم الإنساني في أقصى أحواله، يعانون خطر الموت والجوع والمرض والقتل والغرق، ويضعون ضمير الإنسانية على مفرق طرق.

في أزمات كهذه، يكون دعم اللاجئين هو مقياس إنسانيتهم وفطرتهم وأخلاقهم وتدينهم، ومع ذلك وجدنا من يؤذيهم ويطردهم ويزيد آلامهم، برغم أن الدرس الأكبر من ظاهرة اللجوء واللاجئين هو أن وحدة الشعوب والدول الإنسانية ليست وهمًا؛ فما يحدث في سوريا من نزاع ليس شأنًا سوريًّا فقط، وما يحدث من اقتتال في السودان ليس شأنًا سودانيًّا بحتًا، والحرب على أوكرانيا ليست قضية أوكرانية خالصة؛ فالنزاع والاضطراب في أي دولة يؤثران على المحيط الإقليمي والدولي بالسلب؛ فوجب التضامن قدر ما يُمكن لعبور الشدة، ثم إن الاستقرار والتنمية في أي دولة يؤثران عليها بالإيجاب؛ فوجب التشبيك والتعاون لتعم المصلحة والمنفعة. لكن ظهر من يُعاكسون الفطرة والدين والأدب وقواعد التاريخ والجغرافيا والمنطق، ويرفضون هذه الوحدة باضطهاد الغريب. ويا لسذاجة دوافعهم التي ادعت ضيق الأرض وقلة الموارد وصغر الإمكانات!

والحقيقة معهم نصف الحق، فالضيق حاصل بالفعل، لكن في طريقة تفكيرهم، والقلة موجودة، لكنها في حظهم من الإنسانية، والصغر حقيقي، وهو صغر عقولهم، وصدق فيهم قول عمرو بن الأهتم:

كـل كـريم يتقي الذم بالقِرى وللخير بين الصالحين طريق

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق.

وعلى جانب آخر؛ حيث تفرح السماء برؤية العقلاء على الأرض، الذين التمسوا الغنى في التطوع والبذل والصدقة، وبحثوا عن الونس في إسعاد اللاجئين، ومن شبعوا وهم يطعمون الجائعين، ومن تفننوا لفرح المنقطعين وحولوا بؤسهم إلى بهجة، من عرفوا أن الروح لا تعيش بالدنيا منفردة، وأن النور الذي يُزرع في الغير يضيء قلب الزارع وروحه. وهؤلاء لا يخلو منهم زمن ولا أرض، وكان هذا الكتاب توثيقًا لما يقوم به هؤلاء وأولئك، مع أن الإنسانية ستخلد فقط ذكر النوع الأول، الساعين بالخير لغيرهم، الذين يُحسنون أساليب تطوعهم به ويحشدون له بكل طاقتهم، ليغرسون أملًا، ويزيلون ألمًا، ويرفعون ضررًا، ويخففون عن اللاجئين غربتهم بونس قلوبهم، فقد غرسوا في الدنيا بذور تُبقيها على قيد الإنسانية تُنبت العون والبر، حتى إن فنى الجميع، سيبقى جمال وخير هؤلاء باق الأثر.

باسم الجنوبي

القاهرة – مصر

وأنتَ تُعِدُّ فطورك، فكِّر بغيركَ
لا تَنْسَ قوتَ الحمام
وأنتَ تخوضُ حروبكَ، فكِّر بغيركَ
لا تنس مَنْ يطلبون السلام
وأنتَ تسدد فاتورةَ الماء، فكِّر بغيركَ
مَنْ يرضَعُون الغمامِ
وأنتَ تعودُ إلى البيت، بيتكَ، فكِّر بغيركَ
لا تنس شعب الخيامْ
وأنت تنام وتُحصي الكواكبَ، فكِّر بغيركَ
ثمّةَ مَنْ لم يجد حيّزًا للمنام
وأنت تحرّر نفسك بالاستعارات، فكِّر بغيركَ
مَنْ فقدوا حقَّهم في الكلام.

محمود درويش

الـمـراجـع

- مقاصد الشريعة الإسلامية في العمل الخيري، إبراهيم البيومي غانم، مؤسسة الفرقان، لندن، 2016.
- الأوقاف والسياسة والمجتمع في مصر، إبراهيم البيومي غانم، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة،2015.
- مقاصد الشريعة، الطاهر بن عاشور، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2004.
- التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية، محمد بن أحمد الصالح، جامعة الإمام، الرياض،1993.
- المجتمع المدني في اليونان حتى القرن العشرين، جون أرنبيرغ، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، معهد الدراسات الاستراتيجية، العراق، 2007.
- المجتمع المدني: النظرية والتطبيق السياسي، فرانك آدلوف، ترجمة: عبد السلام حيدر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2009.
- المجتمع المدني: دراسة تحليلة نقدية، عزت حجاوي، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 2017.
- المجتمع المدني والدولة المعاصرة، أحمد شهاب، دار الانتشار العربي، بيروت، 2007.
- الموسوعة العربية للمجتمع المدني، أماني قنديل، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2008.
- المجتمع المدني بعد الثورات، أماني قنديل، مجلة آفاق سياسية، القاهرة، عدد 13، 2014.

- إشكالية المجتمع المدني العربي، صالح السنوسي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2012.
- دور المجتمع المدني في تكوين رأس المال الاجتماعي، إنجي محمد عبد الحميد، المركز المصري للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، القاهرة، 2010.
- الدور السياسي الثقافي للقطاع الأهلي، أحمد ثابت، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2009.
- منظمة الشباب الاشتراكي: تجربة مصرية في إعداد القيادات، عبد الغفار شكر، مركز دراسات الوحدة، بيروت، 2004.
- الدور التنموي والتربوي للجمعيات الأهلية والتعاونية في مصر، عبد الغفار شكر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2005.
- المنظمات الأهلية العربية على مشارف القرن الحادي والعشرين، شهيدة الباز، لجنة المتابعة لمؤتمر التنظيمات الأهلية العربية، القاهرة، 1997.
- الأعمال الكاملة: عبد الرحمن الكواكبي، تحقيق: د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، 2014.
- الأعمال الكاملة: قاسم أمين، تحقيق: د.محمد عمارة، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2008.
- الأعمال الكاملة: الإمام محمد عبده، تحقيق: د.محمد عمارة، مكتبة الأسرة، مصر، 2009.
- العمل الأهلي حياة الأمة: تجربة الإمام محمد عبده، مجدي سعيد، القاهرة، 2009.
- التطوع وإدارة المتطوعين، هشام الروبي، مركز جون جرهارت للعطاء الاجتماعي بالجامعة الأمريكية، القاهرة، 2013.
- التنوع البشري الخلاق، تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009.

- العنصرية والتعصب العرقي، إيان لوو، ترجمة: عاطف معتمد، كرم عباس، عادل عبد الحميد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013.
- العنصري في غربته، هيثم حسين، منشورات راميا، لندن، 2023.
- حيونة الإنسان، ممدوح عدوان، دار ممدوح عدوان للنشر، دمشق، 2007.
- التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005.
- وهم الأصالة: النسبية الثقافية وعالمية حقوق الإنسان، يسري مصطفى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2016.
- الهروب من الحرب الأهلية، ياسر الغرباوي، مركز دراسات الوحدة، بيروت، 2015.
- تأملات حول المنفى، إدوارد سعيد، ترجمة: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، 2007.
- اللاجئون، مرصد الأزهر لمكافحة التطرف، القاهرة، 2021.
- هجرة الشوام، مسعود ضاهر، دار الشروق، القاهرة، 2009.
- عصر الهجرة، ستيفن كاستلز ومارك ميللر، ترجمة: منى الدروبي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012.
- التقرير الاستراتيجي العربي 2022، مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية، القاهرة، 2023.
- التقرير العربي للفقر متعدد الأبعاد، مكتب الأمم المتحدة، بيروت، 2017.
- تقرير الشباب العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 2019.
- تقرير آفاق مستقبلية 2022، مركز دعم القرار بمجلس الوزراء المصري، القاهرة، 2022.
- دليل التمكين القانوني للفقراء، محسن عوض، المنظمة العربية لحقوق الإنسان، القاهرة، 2013.

- الفقر في الوطن العربي، تحرير: أحمد السيد النجار، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، 2005.
- عولمة الفقر، ميشيل تشودوفيسكي، ترجمة: محمد مستجير مصطفى، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2012.
- اقتصاد الفقراء: إعادة النظرفي أساليب محاربة الفقر، أبهيجيت بانرجي وإستر دفلو، ترجمة: أنور الشامي، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة، 2016.
- نهب الفقراء: الشركات عابرة القومية واستنزاف موارد البلاد النامية، جون ميدلي، ترجمة: بدر الرفاعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة،2011.
- مقالات في التنمية البشرية العربية، حامد عمار، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2007.
- التنمية الثقافية المستدامة وبناء الإنسان، تحرير: سعيد المصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2023.
- ملحمة المواطنة: من صكوك الوطنية إلى عولمة الحقوق الإنسانية، سعيد المصري، مكتبة الإسكندرية، 2018.
- مواطنون في العالم: نحو نظرية للمواطنة، عدلية كورتينا، ترجمة: علي المنوفي، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2015.
- عار الجوع، ديفيد ريف، ترجمة: أحمد عبد الحميد أحمد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2022.
- اقتصاد يغدق فقرًا، هورست أفهيلد، ترجمة: عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2007.
- السيطرة الصامتة، نورينا هيرتس، ترجمة: صدقي حطاب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2007.
- أوروبا والتخلف في أفريقيا، والتر رودني، ترجمة: أحمد القصير، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1988.

- الاستبعاد الاجتماعي، تحرير مجموعة مؤلفين، ترجمة: محمد الجوهري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2007.
- رأسمالية الكوارث، أنتوني لوينشتاين، ترجمة: أحمد عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2019.
- الهجرة: كيف تؤثر في عالمنا، بول كولبير، ترجمة: مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة، 2016.
- انعدام الجنسية: تاريخ حديث، ميرا إل.سيغلبيرغ، ترجمة: ابتهال الخطيب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2022.
- خيارات صعبة: مذكرات هيلاري رودهام كلنتون، أ للنشر والتوزيع، بيروت، 2014.
- رحلتي الفكرية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، 2006.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
- بلوغ الإرب، الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
- فضائل مصر المحروسة، ابن الكندي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1997.
- حضارة العرب، غوستاف لوبون، موقع مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2013.
- من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، دار الوراق، الرياض، 1999.
- العرب قبل الإسلام، محمود عرفة محمود، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1998.
- الإعلام العالمي لحقوق الإنسان، محمد سليم العوا، دار نهضة مصر، القاهرة، 2000.
- رحماء بينهم: قصة التكافل والإغاثة في الحضارة الإسلامية، راغب السرجاني، نهضة مصر، القاهرة، 2009.
- المجتمع العربي المعاصر، حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989.

- الاغتراب في الثقافة العربية، حليم بركات، مركز دراسات الوحدة، بيروت، 2006.
- النكبة، عارف العارف، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2013.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، 2022.
- القدس: معرفة في سبيل التحرير، عبد القادر ياسين، مكتبة الشروق الدولية، الإسكندرية، 2010.
- الدليل الخاص بحماية اللاجئين الفلسطينيين، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، بيت لحم، 2009.
- الأسرى الفلسطينيون: آلام وآمال، عبد الناصر فروانة، جامعة الدول العربية، القاهرة، 2015.
- مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، بيني موريس، ترجمة: عماد عواد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2013.
- اليد الخفية: دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، عبد الوهاب المسيري، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2000.
- فلسطين:الأرض والشعب من النكبة إلى أوسلو، عماد جاد، مركز الأهرام للدراسات، القاهرة، 2003.
- إسرائيل وفلسطين: إعادة تقييم وتنقيح وتفنيد، آفي شليم، ترجمة: ناصر عفيفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013.
- فلسطين: تاريخ شخصي، كارل صبّاغ، ترجمة محمد سعد الدين زيدان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015.
- اللاجئون الفلسطينيون في المشرق العربي، آري كنودسن وساري حنفي، ترجمة: ديما الشريف، المركز العربي للأبحاث، بيروت، 2015.

- معاناة اللاجئ الفلسطيني، محسن صالح، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت، 2010.
- دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، محسن صالح، المركز العربي للإعلام، القاهرة، 2003.
- تقرير فلسطينيو سورية: تحت خط الحياة، مركز العودة الفلسطيني، لندن، 2022.
- قضية اللجوء والنزوح في أفريقيا والدور المصري، أميرة محمد عبد الحليم، مركز الأهرام للدراسات، القاهرة، 2019.
- تاريخ السودان الحديث، روبرت أو.كولينز، ترجمة: مصطفى مجدي الجمّال، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2015.
- السودان وأهل السودان، يوسف الشريف، دار الشروق، القاهرة، 2003.
- مشكلة دارفور، زكي البحيري، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2010.
- أفريقيا: السلم والنزاع، ديفيد ج.فرانسيس، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010.
- إثيوبيا: التوسع وتأسيس الدولة، داليا سعد الدين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2017.
- العولمة ومناهضوها، كلاوس ليجفي، ترجمة: ضياء الدين زاهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011.
- دليل الاستبداد والمستبدين، بروس بيوند دو وألستير سميث، ترجمة: فاطمة نصر، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2014.
- دليل علم النفس الإيجابي، شين لوبيز وسنايدر، ترجمة: صفاء الأعسر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2018.
- كيف نحيا في رفاه، باميلا أ.هايس، ترجمة: راقية جلال الدويك، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2019.

- تدبر الكبر، مارثا نوسباوم، ترجمة: هشام ممدوح طه، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2023.
- الدولة المستحيلة: الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، وائل حلاق، ترجمة: عمرو عثمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2014.
- المتخيّلات الاجتماعية الحديثة، تشارلز تايلر، ترجمة: الحارث النبهان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2015.
- اغتيال الهوية، باسم فرات، مؤسسة أبجد، العراق، 2022.
- حذاء فلليني، وحيد الطويلة، منشورات المتوسط، العراق، 2016.
- العار من الضفتين، عزت القمحاوي، دار العين، القاهرة، 2011.
- غرفة المسافرين، عزت القمحاوي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2019.
- لا تمت قبل أن تحب، محمد الفخراني، دار العين، القاهرة، 2022.
- طيور مهاجرة، حسام عبد القادر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2022.
- وطن محمول، جيني إيربينبيك، ترجمة: صلاح هلال، دار صفصافة، القاهرة، 2018.
- بزوغ الحقيقة، نافيد كرماني، ترجمة: نيرمين الشرقاوي، دار صفصافة، القاهرة، 2019.
- الرحلة، رضوى عاشور، دار الشروق، القاهرة، 1983.
- رأيت رام الله، مريد البرغوثي، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2011.
- ولدت هناك.. ولدت هنا، مريد البرغوثي، رياض الريس للكتب، بيروت، 2009.
- الوطنية الأليفة، تميم البرغوثي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2012.
- وأنقذتنا الصفحات، باسم الجنوبي، دار روافد، القاهرة، 2024.

المحتويات

إهداء	**5**
البـدايــة	**7**
معاني التطوع وأهميته	**9**
فوائد التطوع للمجتمع	11
فوائد التطوع للمتطوع	15
تراث العمل التطوعي العربي والإسلامي	**18**
العمل التطوعي في التراث الإسلامي	23
الصحابة على الدرب	27
الوقف في التراث الإسلامي	31
العمل الخيري في التراث المصري	33
واقع المجتمع المدني العربي	**35**
الأزمة تظهر للجميع	39
مشكلات المجتمع المدني في مصر	41
العلاقة غير المستقرة بين الدولة والمجتمع المدني	43
ثقافة السوق وطغيان الفردية	46
شيوع ثقافة العجز وقلة الحيلة	47
الطائفية والمذهبية وعرقلة المجتمع المدني	48
التشكيك في نوايا العمل الأهلي	49
إدارة العمل التطوعي	49
استبعاد القيادات الشابة في عمل المؤسسات	52

احتكار المدن والعواصم للمؤسسات الأهلية	52
طغيان التطوع الافتراضي	53
الـلاجـئـون	**55**
الغربة: الوحشة الثقيلة ومنبع الإلهام بالألم	56
دول القهر: هنا ثروات الطبيعة ومصنع اللاجئين	60
اللاجئون الفلسطينيون	**64**
الفلسطينيون في الدول العربية: ورقة سياسية متأرجحة	70
فلسطينيو سوريا: الوجع المضاعف	70
واقع النزوح الفلسطيني	72
اللاجئون السوريون	**86**
شعب في قلب حصار وحرب وزلازل وفيضانات وقهر وبرد	87
خريطة توزيع اللاجئين السوريين	89
السوريون في الداخل السوري	95
السوريون في أوروبا	96
سياسة الأبواب المغلقة	98
اللاجئون اليمنيون	**100**
اللاجئون اليمنيون بين قارتين	101
اللاجئون السودانيون	**103**
السودان.. حرب لا تنتهي	103
الحرب السودانية في الجنوب	104
أزمة دارفور	104
شعب تحت دوائر الانقلاب والسيول والحروب	107

اللاجئون العراقيون **110**
اللاجئون الليبيون **114**
اللاجئون الأفارقة **118**
اللاجئون الروهينغا **128**
اللاجئون الأوكران **133**
أزمات اللاجئين في العالم **137**
مشكلات بداية الهجرة 137
الاستغلال الجنسي للنساء والأطفال 138
النظرة الأمنية للاجئين 140
مشكلة مبدأ الدولة الآمنة: Safe Country 141
مشكلات الوصول والإعاشة 142
مشكلات التوطين والوعود الكاذبة من الدول المضيفة 142
المشكلات القانونية 143
التمييز والعنصرية ضد اللاجئين 143
الحركات المحاربة للاجئين 147
الاعتداءات والمضايقات المباشرة على اللاجئين 149
الاستغلال في أماكن العمل 150
التمييز في المنح والمساعدات 151
الزواج مقابل الخبز 152
الغربة وصعوبة الاندماج والصدمة الثقافية 154
غيتو اللاجئين ومجمعات المهاجرين 158
حاجز اللغة واللهجات المحلية 162
التحاسد بين اللاجئين وبعضهم 165

ثروة اللاجئين الإنسانية **167**
تعلم الصمود النفسي عمليًّا 168
النجوم المهاجرة 170
السيراليوني إسماعيل بيه 171
السورية يسرى ماردِيني 171
السوري مأمون طاهر 172
المبرمج السوري محمود شحود 172
السوري ريان الشبل 173
الفلسطيني السوري محمد إبراهيم زيدان 173
الفلسطينية زاهية المصري 174
الأفغانية فاتيما بايمان 174
اليمني أحمد عسكر 175
مودريتش: نجم ريال مدريد 175
الامتنان وشكر النعم والهروب من ورطة إلفها 177
اقتصاد اللاجئين 179
التجربة الألمانية في استثمار وجود اللاجئين **184**
اللاجئون في مصر **190**
من القاهرة: هنا دمشق 197
مشاهدات في ملف دعم اللاجئين **201**
إعداد المتطوعين في ملف اللاجئين 203
الاستثمار في المتطوعين 203
التأكد من قيم التطوع قبل نزول ميدان الدعم 204
القدرة على تحديد مشكلة اللاجئ 205
ملف تشغيل اللاجئين 206

الفاعليات الثقافية والفنية والاجتماعية كأدوات للدعم	206
دعم الأطفال اللاجئين	207
التسرع في قبول الحالات وتقديم الوعود	208
جلسات تبادل الخبرات	208
البحث السريع بالمشاركة	210
الحماية النفسية للمتطوعين	211
وقف النزيف وتجفيف المنابع	212
مبادرات ومؤسسات دعم اللاجئين	**213**
مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين: UNHCR	214
الأونروا: UNRWA	215
اللجنة الدولية للهلال الأحمر: RC	216
منظمة أطباء بلا حدود: MSF	217
مؤسسة كاريتاس الدولية: Caritas	218
منظمة أوكسفام الخيرية: Oxfam	219
منظمة إنقاذ الطفولة: Save the children	219
هيئة تير دي زوم: TDH	220
هيئة الإغاثة الكاثوليكية: CRS	220
الهيئة الحكومية لإدارة الكوارث: AFAD	221
هيئة الإغاثة الإنسانية والحقوق والحريات: IHH	222
مؤسسة تافل: Tafel	222
الجمعية الوطنية لمبتوري الأطراف في إسبانيا	223
مبادرة الأذرع المفتوحة: Open Arms	223
مبادرة مدينة اللاجئين	224
مبادرة منازلنا منازلكم	224

مبادرة تليفونيكا: Telefonica	224
معرض المسافرين	225
مسرح اللاجئين	225
مبادرة التضامن المدني مع اللاجئين	225
مبادرة مرحبًا باللاجئين	225
مبادرة العيش المشترك	225
اليوم العالمي للاجئين	226
اليوم العالمي للعمل الإنساني	226
اليوم العالمي للمهاجرين	226
اليوم العالمي للتضامن الإنساني	227
مبادرة سوريا الأهل	227
الخـاتـمـة	**229**
المـراجـع	**233**